# الضائع

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

**(2023/12/6663)**

**813.03 الضائع/ سلوان أحمد محمد إبراهيم.- عمان: دار أروقة الفكر للنشر والتوزيع،2023**

**ISBN 978-9923-50-275-4 (ردمك)**

**دار أروقة الفكر للطباعة والنشر والتوزيع**
**fikrdar3@gmail.com**
**الأردن - عمّان - وسط البلد - شارع سينما الحسين**
**هاتف: - 0788413775 -0785360684**

**الواصفات: /الروايات العربية//الأدب العربي//العصر الحديث/**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولايعبّر هذا المصنف عن رأي دار المكتبة أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة العربية الثانية

2024

# الضائع

"رواية"

تأليف: سلوان إبراهيم

أروقة الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

# (١)
# صدفة ودونما وجهة

هناك من يسحب الشمس لتسقط من السماء وراء الأفق، كانت قبل قليلٍ تطل عليه من شباك سيارته الأيمن، تغطي عليها بعض الأحيان أشجار صنوبر تحاول معانقة السماء. لا يذكر كيف وصل إلى هنا، ولا يعرف حقاً أين هو، كان قد خرج ضائعاً في أفكاره ودخان سجائره، قفز إلى سيارته وانطلق دون وجهة، والآن انتبه إلى الشمس تكاد تغيب، وإلى مؤشر شحن سيارته يعطيه منبهاً أن ما تبقى من كهرباء لن يكفيه سوى بضع كيلومترات أخرى.

لا بأس، من المؤكد أن هناك محطة قريبة يستطيع أن يشحن سيارته فيها، أو على الأقل أن يجد منها من يقله. فتح برنامج الخرائط، الإشارة هنا سيئة، ألا تعرف الأقمار الصناعية نفسها كيف تصل إليه؟ بدأ الظلام يشتد، وتلك المناظر الشجرية الخلابة من حوله بدأت تتحول إلى بعض مشاهد من فيلم رعب ضعيف الإنتاج، تباً لسيارات الكهرباء! أكان حقاً عليه أن يقتني واحدة؟ ولكن ماذا لو كانت سيارته تعتمد البنزين أما كان سيفرغ خزانها أيضاً؟ المشكلة في عقله لا في سيارته!

هناك ضوء يظهر من بين الأشجار، على مسار طريقه المتعرج على ما يبدو، ربما هناك بشر في هذا اللامكان، مع الاقتراب من خيال الضوء تظهر ملامح المنطقة أكثر قليلاً، كأن هناك مزرعة منارةٌ أسوارها، تبدو كبيرةً! أوقف سيارته اللاهثة للكهرباء أمام

البوابة، تبدو كأنها مدخل قلعةٍ لا مزرعة، عاليةٌ هي، حجريةٌ كبيرة، جزءٌ من سورٍ من حجارةٍ كبيرةٍ ملتصقةٍ بمبنىً صغيرٍ يبدو أنه للحارس. ليس أمامه حلول كثيرة، سيارته ستتوقف عن العمل قريباً، رن الجرس بعد تلكؤ بسيط.

للمفاجأة رد عليه صوتٌ نسائيٌ هادئ، شرح موقفه متلعثماً، يحتاج أن يشحن سيارته لو ساعة لتوصله لشارعٍ رئيسي، ويحتاج بعض الإرشادات، وبعد انتظار عدة دقائق سمع مزلاج البوابة المخيفة يفتح...

- ***معلش عمو أبو علي، خليه يصف سيارته قريب من نقطة الشحن.***

كانت هناك سيدة ترتدي ملابس رياضية، بجانبها يقف كائن ضخم أسود، يشبه الحصان بحجمه، لكنه يجلس على أقدامه الخلفية، ولولا نباحه لما ميز أنه كلب، اكتفت سيدته بالإشارة إليه فتوقف عن النباح، وحافظ على مكانه.

عاد إلى سيارته ليدخلها إلى الموقع المذكور، واستغرب أن السيدة حافظت على وقفتها تنتظره ليدخل، ربما كان أسهل عليه أن يتعامل مع هذا العم (أبو علي) دون تدخل سيدته ووحشها المتنكر ككلب.

- ***شكراً جزيلاً، وآسف جداً على الإزعاج، ما بعرف كيف طلعت في السيارة من دون ما انتبه للشحن!***

كان قد نزل من سيارته، وأطرق رأسه للأرض مراعياً بعض الآداب العامة بألا ينظر إلى سيدةٍ غريبةٍ بشكل مباشر.

- *دكتور مراد؟ مراد عودة؟*

جاء صوتها متفاجئاً، كصوت من رأت ميتاً عاد إلى الحياة! رفع نظره إليها، كيف يمكن أن تعيش سيدةٌ هنا تعرف من هو؟ ربما هي واحدةٌ من طالباته، فهو يدرّس في جامعةٍ خاصةٍ معظم طلابها فاحشو الثراء، ليس مستغرباً إذن أن تقضي إحداهن نهاية الأسبوع في هذه القلعة.

ليست طالبة، رغم ارتدائها ملابس الرياضة وبراءة ملامحها تبدو في عقدها الرابع، مشت خطوتين باتجاهه ومدت له يدها مصافحة، الآن تحت الضوء ميز ملامحها.

- *سلمى؟*

هل تؤمن أن هناك قوىً قدرية تدفعك بطرق غريبة إلى مشاهد لم تكن في الحسبان؟ ليس للصدفة تعريفٌ في قواميسه، كيف يمكن إذن أن يساق إليها بعد عقدين من الزمن؟ لم يصل إليها بإرادته، لم يبحث عنها، ورغم أن خيالها طاف في باله مرات عدة خلال فراقهما، إلا أنه لم يحاول ولو مرة الاتصال بها، كيف إذن وصل إلى هنا اليوم؟ وبالذات اليوم؟

ابتسمت له ذات الابتسامة التي يذكرها، ودعته لمرافقتها داخل المنزل ليشاركها فنجان قهوة، لم يتردد في قبول دعوتها،

ورافقها رحلة الوصول إلى المبنى الرئيسي مشياً على الأقدام برفقة وحشها الأسود، كانا يمشيان على شارعٍ مرصوفٍ بالحجر، تحيطه ورودٌ وأشجارٌ من الجانبين وأعمدة مصابيح تشبه الفوانيس ضوءها أصفر، تهب عليه بين الفينة والأخرى نسائم تحمل معها روائح الورد والياسمين والحصلبان. لا يعرف إن كانت الطريق التي مشاها طويلةً حقاً، أم أن قلبه كان فقط هائماً بين الثواني والدقائق، فتمر الدقيقة ساعةً.

ليس المبنى الرئيسي كبيراً كما توقع، لكن النافورة في وسط الساحة أمامه فاتنة، تمثال سيدةٍ من رخامٍ أبيض، تحمل جرة تصب الماء في حوضٍ تنمو على جوانبه بعض الأزهار. أما البيت فهو مبني على طرازٍ ريفيٍ قديم، من حجارةٍ صفراء كبيرة، يعتمد الأقواس والقبب في تصميمه، بدا له كقصيرٍ من قصور الأمويين المنتشرة في البلاد. صعدا أربع درجاتٍ أو خمس ليصلا إلى جلسةٍ خارجيةٍ ذات مصاطب مفروشةٍ بوسائد بسيطة تبدو مريحة.

- *بتحب نقعد برا ولا جوا؟*

انتبه أن هذه أول جملة نطقها أحدٌ منذ بدء رحلتهما من البوابة، هل كان صامتاً طوال هذه المدة؟ هل انتظر عشرين عاماً ليضيع في خيالاته وصمته؟ اختار الجلوس خارجاً، وانتظرها عدة دقائق ريثما تحضر القهوة!

- *لحالك هون؟*

سألها مستغرباً هدوء المكان.

- ***أنا وعموأبو علي وخالتو أم علي، ولا تنسى كوسا.***
- ***كوسا؟ قصدك الوحش الأسود اللي كان واقف جنبك؟ اسمه كوسا؟***
- ***الاسم الوحيد اللي عجبه ورد عليه، بعدين هو مو وحش، اوعى تغلط عليه!***
- ***بعدك بتحبي الكلاب؟***
- ***وبعدك بتخاف منهم؟***
- ***انا بس ما بحبهم، ما بخاف!***
- ***اها! زي ما بدك! ما بتخاف!***

تلك المناقرات السخيفة بينهما، كأنهما بالأمس فقط كانا سوياً، دقق نظره فيها الآن بعدما خف توتره قليلاً، ما زالت كما يذكرها مع فارق بضعة خطوطٍ تظهر عند طرف عينيها إذا ما ضحكت، تبدو أصغر من عمرها بعشرة أعوامٍ على الأقل، رقيقة الملامح، يتقد الذكاء في عينيها، شعرها بنيٌ ناعم مع بعض التعرجات، ملمومٌ في ذيل فرس، تهرب منه غرتها التي تحاول أن تزيحها عن عينيها كل قليلٍ وتدفعها خلف أذنيها، لا تضع من مساحيق التجميل شيئاً، ومع ذلك تبدو صافية البشرة متوردة الخدين.

- ***عشرين سنة يا سلمى ما تغير فيكي شي!***

- *عم تحسب من وقت ما خلصنا جامعة؟ يمكن لازم تحسب من وقت ما خلصنا مدرسة!*

ربما معها حق، ففي الجامعة لم يكونا سويةً كما كانا في المدرسة، كم كان أحمق! في الحقيقة هو من أبعدها. ارتشف من قهوته قليلاً، لم تسأله كيف يفضلها، هل حقاً تذكر كيف يشرب قهوته بعد كل هذه السنين؟ بعض النكهات مجرمة، تسحبك إلى ماضٍ كدت تنساه، فتحمل في فمك أكثر قليلاً من مرارها، تمتد لتداعب بعض مشاعر مختبئة تحت جلدك، فتزداد نبضات قلبك قليلاً وترتبك قليلاً، وتقلب ذاكرتك قليلاً علك تجد اللحظة التي أرادت النكهة أن تسحبك إليها. بعض الذكريات جمالها مؤلم، وبعض المشاعر سعادتها موجعة، وبعض القرارات المتخذة التي بدت حينها أكثرها عقلانية، مع الوقت تبدو في منتهى الحماقة.

- *طيبة قهوتك!*
- *يعني بعده زوقك بالقهوة ما تغير؟*

نظرت إليه الآن، وما عرفت كيف ميزته حقاً، إذا كانت هي لم تتغير، هو تغير كثيراً، يبدو مرهقاً، انتشر الشيب في شعره، وأطلق لحيته قليلاً فبدا أكبر عمراً، لكنه ما زال وسيماً كما تذكره، لوجهه تلك الخطوط الحادة الرجولية، ونظاراته التي تعلو أنفه تضيف له لمسة نباهة تلائم وظيفته كمدرس في الجامعة.

ربما وجوده معها أعاد إليه ذكريات قديمة، جعلته يدرك فجأة أنهم كبروا، (عشرون عاماً) تنطق الآن بطريقةٍ عادية! يشعر أنه

يحتاج لاستنشاق أكبر كميةٍ من الهواء هذه الليلة، فربما تبقى بعض أنفاس الماضي -التي نفثتها في هوائه- في صدره مدةً أطول.

لماذا نحن كثيراً إلى الماضي، رغم أننا ربما عندما عشناه كنا نتوق إلى المستقبل؟ لماذا لا نعرف كيف نلتزم بالبعد الزمني للأحداث، فتجد مشاعرنا دائماً ضائعةً بين الأبعاد؟

تخلى عن أفكاره الضائعة ونظر إلى السماء، جميلةٌ سماء اللامكان هذا، لا قمر الليلة، ولا غيوم، فتبدو السماء كخارطةٍ للنجوم.

انتبهت له يراقب السماء...

- ***بعدك بتحب السما؟***
- ***بطل يصحلي أشوفها!***
- ***مع انه انت السبب اللي خلاني اهتم بالنجوم والكواكب!***

ربما كانا مقربين خلال سنوات المدرسة، ربما كانا مؤثرين على بعضهما، وربما افترقت طرقهما لاحقاً، ولكنهما بلا شك يحنان لماضٍ كان يجمعهما.

## (٢)
## رحلة س في الذاكرة

تصعد الشمس إلى السماء متكاسلة، لم تنر بما يكفي فتبدو كفانوسٍ كاد يفرغ زيته، وهناك باص مدرسةٍ كبير يقف في ساحة المدرسة ينتظر بمللٍ صعود ركابه، ويبدو أن أحد الركاب قد تأخر في الصعود، فبعد امتلاء الباص ظل واقفاً ينتظر.

تظهر فتاةٌ تشبه الصبيان في طاقتها، بين السادسة والسابعة عشرة من عمرها، تحمل على ظهرها -إضافةً لحقيبةٍ ممتلئة- حقيبة جيتار، شعرها متموجٌ مفرودٌ بإهمالٍ ظريف، لا يكاد طوله يصل نصف رقبتها، ترتدي قميصاً قطنياً قصير الكم أسود يبدو كبيراً عليها، وبنطال جينز واسعاً كثير الجيوب.

توقفت الفتاة بجانب الباص ونقرت على شباك ذلك الجالس في المقعد الفردي الثاني من الأمام، كان الشاب الجالس يحاول وضع سماعات في أذنيه تعزله عن ضوضاء الباص، ولما انتبه للنقرات على الشباك رأى الفتاة الصبيانية تبتسم له ابتسامةً عريضةً، وتلقي عليه ما يشبه التحية العسكرية، ففلتت منه ربع ابتسامةٍ سرعان ما أخفاها.

صعدت الفتاة إلى الباص، وتوقفت أمام الباب في منتصف الممر، رافعةً يديها أمام وجهها، مضمومتين إلا من إصبعي الخنصر والسبابة الممدودين، تظهر على ساعدها الأيسر

خربشاتٌ مرسومةٌ بقلم حبر أزرق، شعار فرقة ميتاليكا. سرعان ما علا صوت صفير الشباب الجالسين في المقاعد الخلفية، وبدء بعض التصفيق التشجيعي، وصرخ البعض اسمها: (***سلمى! سلمى!***)

حنت رأسها كمن يحيي الجمهور...

- ***شكراً... شكراً! أيها الحفل الكريم، بعد عشرة دقائق من البهدلة التي تلقيتها عوضاً عنكم من الإدارة، إليكم التعليمات: احنا طالعين رحلة، انبسطوا! وين حجزتولي اقعد؟***

توجهت إلى المقاعد الخلفية من الباص، كعادتها في الصف أيضاً، فهي المشاغبة المتمردة زعيمة العصابة، وربما لأن علاماتها كانت تشفع لها لطالما تحملت التقريع بدلاً من زملائها، فزاد ذلك من شعبيتها بينهم، وكانت محبوبة من الفتيات والصبيان على حد السواء، كما قلنا كانت زعيمة العصابة.

دخلت كما إعصارٍ إلى الباص، فهاج وماج وسادت الفوضى، ولكنها سرعان ما أعادت مسك زمام الأمور، وسيطرت على الجموع بالغناء، لم يكن صوتها جميلاً حقاً ولكنه كان مدرباً فلا تخرج عن اللحن ولا تحدث النشاز، وكانت تجر من حولها للمشاركة معها بحيوية وطاقةٍ تناسب إعلان بطاريات أو مشروب طاقة.

يغيظها ذلك الشاب الجالس في الأمام، لا يشاركهم، ولا يتفاعل معهم، والرحلة إلى وادي رم طويلة، هل سيقضي الساعات منعزلاً عن الركب؟

كعادة طلاب المدارس يخفت حماسهم وضوضاؤهم بعد مدةٍ بسيطةٍ من الانطلاق، ولما هدأ الركب توجهت سلمى حاملةً جيتارها لتجلس على تلك الدرجة بجانب السائق، ناولت السائق علبة عصيرٍ صغيرةً في يدها، ولكزت كتف الشاب المنكفئ على نفسه، وناولته علبة عصيرٍ أخرى، تناولها من يدها دون تردد...

- ***مراد! لا تقولي انه بدك تقضي الرحلة كلها مع نفسك! احنا أصلاً اخترنا المكان والتاريخ مشان يلائم نجومك وكواكبك.***

مراد هو الطالب صاحب النظارات، المجتهد النجيب المنطوي على نفسه، قليلاً ما يختلط بأحدٍ من زملائه، هو النقيض لسلمى. ويبدو أن سلمى لا ترضى أن ينعزل عنها، فمذ انتقل إلى مدرستها في العام الماضي حرصت على التقرب منه علها تضمه للعائلة، فتصر على سحبه للنشاطات، وتحاول دائماً إدراج ما يحب في قائمة الأعمال الصفية.

هذه الرحلة كانت مخططةً كرحلة مبيتٍ إلى العقبة، لكنها أقنعت طلاب الصف أن يحولوا وجهة المبيت لليلة الأولى إلى وادي رم، فهي بفضولها عرفت أن مراداً يهوى الفلك والفضاء، وبذلك فرضت عليه الانضمام لهم في رحلتهم الطويلة هذه.

رغم جموده وبروده وغبائه العاطفي والاجتماعي، يعرف مراد أنها تفعل كل ما هو ممكن لتربط طلاب الصف معاً، فكأنها وضعت لنفسها مهمة الغراء الذي يجمعهم، وربما يكون ذلك السبب في أنه يلين معها قليلاً ويسمح لها تجاوز مساحته الخاصة أحياناً، مع أنه يعترض على معظم تصرفاتها.

لم يعطها أية استجابةٍ سوى نزع السماعات من أذنيه ليسمع ما لديها لتقول.

أركزت جيتارها على فخذها الأيمن، وراحت تدندن عليه لحناً بطيئاً هادئاً يلائم السكون الذي خيم على الركاب، تتحرك أصابعها الملطخة بالألوان الزيتية والحبر على الأوتار بخفةٍ وسلاسةٍ لا تلائم صغر يديها، أصابع يمناها تنقر الأوتار الست كأنها أقدام عنكبوت، ويسراها تتحرك على ساعد الجيتار الطويلة قفزاً من أولها لآخرها دونما كلل.

وجد نفسه يستمع للحنها ويراقب أناملها الملونة...

- ***عم ترسمي شي جديد؟***

توقفت عن العزف متفاجئة من توجيهه للكلام إليها، وقالت ضاحكةً:

- ***يعني بتعرف تحكي؟ بحاول أخربش...***

وتوجهت بالكلام إلى السائق كأنها تذكرت شيئاً للتو:

- *عموبما إنه عنا وقت ممكن نمرعالكرك بالطريق؟ نشوف القلعة؟*

نظر السائق إلى المعلم المرافق لهم الجالس على الكرسي الأمامي بجانبه ينتظر منه رداً، فأومأ الثاني برأسه دونما اعتراض.

يرافقهم معلمٌ ومعلمة، ولكن يبدو أن لسلمى حظوةً لديهما، فرغم مشاغباتها وضوضائها لطالما حافظت على علاقةٍ ودودةٍ مرحة مع معلميها، فكانت كآخر العنقود في الأسرة يحرك خيوطها ويستجيب الجميع لطلباته، وربما ساعدها جسدها صغير البنية ووجهها بريء الملامح في الحصول على هذا الدور.

بسعادةٍ بالغةٍ لتحقيق طلبها أكملت عزفها ولكن للحنٍ أكثر مرحاً وحيوية.

مثلما يحب مراد السماء، تحب سلمى الآثار، لا يشاركها الكثيرون شغفها ولكن زملاءها لم يعترضوا على الالتفافة في الطريق، وعند الوصول إلى القلعة رغم تململهم لم يروا مانعاً من منحها بضع لحظاتٍ تروي فيها عطشها للتاريخ.

تقف القلعة حصينةً على جبل تحيطه الأودية، فتبدو كجزيرةٍ عائمةٍ في السماء.

رافق مراد سلمى في تنقلها داخل القلعة، ربما لأنه طالبٌ نجيبٌ بطبعه، وربما لأن الفضول تملكه ليعرف ما الذي يجذب من مثل سلمى لهذا الاهتمام، فهي ليست ممن يبدو عليهم حب التاريخ،

كل شيء فيها يصرخ بعكس ذلك، ولكن ربما حبها للفنون يختلط بالعمارة والمباني القديمة.

نظرت إلى مراد الذي تبعها...

- ***بتعرف مع انه القلعة هاي بقولوا صليبية، بس هي كانت موجودة قبلهم... كان في هون معبد للاله كموش، إله الحرب عند المؤابيين...***

استرسلت دونما انتباه في سرد التاريخ بين مؤاب وعمون وأدوم والنبط، وكان هو يستمع لا للكلمات بل للشغف، فلم تكن الحجارة فقط محط اهتمامها، أليس مستغرباً أن تهتم فتاةٌ في الثانوية بفرعها العلمي بالتاريخ القديم؟

انتبهت لمستمعها يتشتت انتباهه، فتوقفت عن الكلام، واعتذرت عن إضجاره، وعادت قافزة إلى الباص لتعيد شحن الحيوية بين رفاقها وتعيد الفوضى.

لم تعطه خلال ما تبقى من الطريق سوى تلك الدقائق، فما أن وصلت الباص حتى اندمجت مع الفتيات، فمثلها ممن يملك تلك المهارات الاجتماعية لن يعطي أحداً أكثر من بضع دقائق، لينشغل بعد حين بآخر يعطيه دقائق أخرى، وهكذا حتى يعود الدور للأول.

وصلوا رم قبيل الغروب بأكثر من ساعةٍ بقليل، وتوجهوا عبر رمال الصحراء المريخية ليشاهدوا غروب الشمس، فازداد احمرار

الأرض والسماء، وبدا الأفق اندماجاً للألوان لا خطاً فاصلاً، ومع استمرار غرق الشمس تحت الرمال، اسودت السماء وبدأت بعض النجوم تتسلل إلى مواقعها.

عند تخطيط الرحلة تأكدت سلمى من موافقة نهاية الشهر القمري، حتى يكون القمر محاقاً فلا يستفرد بالسماء وحده، كانت تلك ليلةً مظلمةً من ليالي أواسط الربيع، تتخللها نسمات الصحراء الباردة التي تشتد كلما مضت ساعات الليل.

بعدما أنهكت قوى رفاقه، وبعد امتلاء بطونهم، تشتتوا كل إلى خيمته، وبعد قليل أطفئت أنوار المخيم، فوجد نفسه سارحاً في سماء تبدو كأنها من خيال، كثيرة التفاصيل، تغزوها الشهب بين الفينة والأخرى، لم ينتبه لقدوم أحدهم إليه، كان جالساً على الرمال يعانق نفسه لبردٍ أصاب ذراعيه وجذعه، وما لبث أن وجد ظلاً يناوله غطاءً، كان الظل يتلحف بغطاء على كتفيه يبدو كرداء سوبرمان، ركز النظر قليلاً... إنها سلمى...

جلست بجانبه تسأله أن يعلمها عن النجوم، فأشار إلى بنات نعش ونجم الشمال، ووصل إلى الدب الأكبر، ليقطعه معلمه متسائلاً ماذا يفعلان في الظلام، فردت سلمى بحيوية لذيذة:

- ***اهلا استاز، عم اتعلم عن النجوم، هاد نجم الشمال... وما كملنا! اقعد معانا...***

ربما كان في نيته نهرهما، إن السيطرة على رحلة مختلطة تكاد تكون مهمة مستحيلة، ولكن هذين الأحمقين الذين تجاوزا الحدود المسموحة لهما، لا يبدو أنهما يفهمان أن هناك خطأ فيما يفعلان، فالأول غبي اجتماعياً وعاطفياً، والثانية... لا أحد يعرف ما مشكلة الثانية، هي مجرد كائن يملك طاقةً مفرطةً يصعب تفريغها. تنهد الأستاذ وجلس معهما يستمع لمراد يكمل شرحه عن برج الأسد والسرطان وكوكب الزهرة والمريخ...

# (٣)
# الأنسب للزواج

في انتظار شحن سيارته، وبين رشفات القهوة وعواصف الذكريات، قطعت الصمت:

- ***صحيح سمعت انك تزوجت هبة بعد ما اتخرجنا؟***

نزل سؤالها عليه كثلجٍ على مؤخرة رقبته، من الطبيعي أن يسألك شخص لم يرك منذ مدة عن زوجتك أليس كذلك؟

- ***مزبوط.***
- ***عندك أولاد؟***

أخرج هاتفه ليريها صور طفليه (خالد وسارة)، ابتسمت ابتسامةً عريضةً إعجاباً ببراءة طفليه اللذين أخذا ذكاء عينيه ولون بشرة أمهما، فكانا خلطةً أجمل من كلا والديهما.

- ***الله يحميهم، طيب وهبة شو عاملة هالأيام؟***
- ***انفصلنا!***

أخذ نفساً عميقاً يحاول أن يهدئ به عصبيةً سرت في عروقه، تناول من جيبه علبة سجائر، وبأصابع مرتجفة أشعل سيجارةً وضعها في فمه، ثم انتبه لرفيقته، ونظر إليها معتذراً سائلاً إن كان دخانه يزعجها، فهزت رأسها نافيةً! وبعد لحظاتٍ من صمت مدت يدها إلى علبة السجائر التي ألقاها بإهمالٍ على المنضدة، تناولت

منها سيجارةً ووضعتها في فمها، وبرمت إبهامها على سبابتها كنايةً عن طلبها توليعة، ثم مدت وجهها إليه، وبتلقائيةٍ بحتة مد يده اليمنى تقدح الولاعة واليسرى تحيط السيجارة خوفاً من مرور هواء يطفئها.

- ***انتي بتدخني؟***
- ***لا!***

هل شعرت بتوتر أرادت تخفيفه بمشاركته سيجارة؟ أم أنها أرادت مواساته بطرقها العجيبة؟

- ***وانتي؟ اتزوجتي؟***
- ***مريت بعلاقات متعددة! وفشلت! أنا لا أصلح كزوجة!***
- ***هاد اسمه هبل!***
- ***أنا هبلة أظن...***

جفل وانتبه لصياغة الكلام...

- ***لا موقصدي انه انتي اللي هبلة، قصدي انه انك لا تصلحي للزواج هو الهبل!***
- ***الرجال بحبوا اللي متلي، بيبقى سعيد بالصحبة وبالحكي، بس لما بده يتزوج بده حدا زي هبة موزي سلمى!***

كانت هبة تصغرهم بعامين، فتاة جميلة هادئة خجولة، متوسطة الالتزام، تغطي شعرها بشالة أنيقة دون الالتزام بما هو أبعد من ذلك، قليلة الاختلاط بالجنس الآخر، ناعمة الحركات منخفضة الصوت، تبدو طيعةً لينةً تعرف دورها وموقعها الاجتماعي. تعرف عليها مراد في سنته الخامسة من هندسة العمارة، وخطبها خلال سنوات دراسته الماجستير.

- ***انا آسفة، طلعت معي الجملة من دون قصد!***

لمراد كانت هبة مجرد نتيجة حسابات لمن (تصلح أن تكون زوجة)، لا يمكنه إنكار أن فكرة الارتباط بسلمى دارت في مخيلته، لكنه استثناها، لأن سلمى غير قابلة للترويض! هي صاخبة ومندفعة وصبيانية، تقول ما يخطر على بالها دون فلترةٍ أو تعديل، قوية لا تبدو بحاجةٍ لأحد، فتعدها صاحبك لا صاحبتك! في حين أن هبة كانت تلعب على أوتار غريزته الرجولية، تعطي ذبذبات الضعف التي تجعله يرغب في حمايتها، وتعطيه دفة القيادة والسلطة!

ضحك مراد بسخرية مرة...

- ***وهيها طلعت هبة كمان لا تصلح كزوجة، أو يمكن بالأحرى انا لا أصلح كزوج!***

ضحكت سلمى من قلبها...

- ***تحية النا احنا اللي لا نصلح للزواج!***

ضحك معها، وهم بالقيام ليتفقد سيارته علها توصله إلى مكان قريب، لكن سلمى أوقفته متسائلة إذا ما كان هناك من ينتظره في البيت، فأجابها بالنفي، فأومأت له بتسلط نسبي أن يجلس، فهي تستمتع برفقته.

لم يعترض، ربما لأن البيت الفارغ في انتظاره مؤلم، وربما لأنه يحن لأيامٍ مضت، ويملؤه فضولٌ غريبٌ ليعرف أخبارها بعد طول السنين، فما يتابعه عنها على صفحات التواصل لا يروي العطش ولا يشبع الجوع!

- ***ما قلتيتي شو بتعملي بمكان زي هاد؟***
- ***الي تقريبا ٣ سنين عايشة هون!***
- ***وشغلك؟***
- ***على فكرة احنا مو بعاد عن عمان، نص ساعة بتكون وصلت المدينة، بس انا ما بروح عالمكتب كل يوم، بمر عليهم مرة او مرتين بالاسبوع بشوف الشغل وبروحه معي بشتغله براحتي.***

شرحت له باختصار أنها قبل ثلاث سنوات كانت قد وصلت إلى مرحلةٍ من عدم الراحة والضغط دفعتها للهروب، وكانت هذه مزرعةً مملوكةً لجدها، قائمة على عشرين دونماً من الأرض، لكنها مهجورة، فقررت أن تبتعد عن ضغوطاتها بإعادة إحياء هذا المكان، وشغلت نفسها بالإصلاحات وبالزراعة، تعج المزرعة بالأيدي العاملة صباحاً، ولكنها قبيل غروب الشمس تفرغ إلا من

ساكنيها الثلاثة، وأحياناً يأتي أحد من أهلها ليقضي ليلته في الريف فيؤنس وحدتها!

أما هي فتقضي وحدتها في أداء بعض التصاميم لمكتبها، وفي الرسم والقراءة والموسيقى! وإذا ما شعرت بالحنين تعود إلى أحضان المدينة ليوم أو يومين ثم ترجع إلى هواء الأرياف وعزلتها.

- ***يعني تقريبا عايشة حياة التقاعد؟***
- ***انا لسه بشتغل بس براحتي وبختار الشغل اللي بيعجبني، ومكتبي شغال من دوني!***
- ***بس عمره ما بكون الشغل منيح ازا ما كنتي واقفة عليه!***

سلمى تنتمي لعائلةٍ ميسورة الحال جداً، وفي الحقيقة لم تكن يوماً بحاجة لتعمل من أجل المال، الهدف الأساسي من عملها هو إشباع طموحاتها! وكان اختيار تخصصها ناجماً عن حبها للفنون والعمارة التاريخية.

ربما عائلة مراد ميسورة الحال أيضاً، ولكن مراداً ليس كسلمى، فإذا كانت تلك تقوم بما تمليه عليها عواطفها ورغباتها، هو يقوم بما يجب أن يقوم به! فكان يدرس لا لطموحٍ يريد تحقيقه، بل لأنه يؤمن أن تلك مهمته كطالب، وأكمل سنوات دراسته الجامعية بنفس الفكر، ولم يستطع التوقف فأكمل الماجستير والدكتوراة، وإذا ما سألته إذا كان يحب هندسة العمارة، لن يعرف كيف يجيب! إن لحظات الشغف التي عاشها

خلال مسيرته المهنية كانت معدودةً، ومعظمها كانت خلال أيام دراسته الأولى عندما كان ما زال صديقاً لسلمى! كان شغفها معدياً كطاقتها الإيجابية!

ربما يكون هذا سبب إنكاره عليها الابتعاد عن مكتبها، فهو لا يفهم كيف يمكن لها أن تهرب من شيء تحبه! ومفهومه للحب مشوه قليلاً، فيعتقد أنك إذا ما أحببت شيئاً تقضي عمرك فيه!

لم يستنكر مراد على زوجته هبة ترك مهنتها والحفاظ على شهادتها كلوحةٍ تزين بها جدران غرفةٍ لا يدخلها أحد في المنزل، لا يستنكر اختيارها أن تبقى في البيت كزوجةٍ ولاحقاً كأم، وفي الحقيقة لم يكن يرى فيها قدرةً على مواجهة عالم العمل، وربما نسي أنها كانت في يومٍ ما تدرس نفس اختصاصه.

- ***بس دكتور مراد انا ما تركت الشغل! انا ببساطة بشتغل براحتي!***
- ***ما بعرف كيف ممكن الشغل يكون مريح!***
- ***في شغلات انت ما بتعرفها دكتور.***
- ***ممكن تناديني باسمي من دون القاب؟***

ليست سلمى ممن يضعون الحواجز، ربما أبقت على استخدام لقبه العلمي لتذكر نفسها بحواجز كان هو قد وضعها قبل إبعادها التام عن حياته، استخدامها لكلمة (دكتور) معه كان له تأثير حارقٌ على مسامعه، فكان يشعر بالكلمة تبعثر ذكرياته، وتشوه الصورة التي حفظها لها!

ربما عندما نكبر ندرك كم كنا حمقى عندما كنا صغاراً، ربما في عقدك الخامس تقف لتنظر خلفك، فترى اعوجاج ماضيك وسذاجة طرقك، وربما تدرك أن ما كنت تعتقد أنك تريده لم يكن أبداً ما أردته! ما أدركه الآن هو أنه يحن لذلك الماضي، ويحن لاختراقها حواجزه ومساحاته الشخصية، ولا يريد لها أن تتوقف الآن عما كانته في ذكراها المطبوعة في مخيلته.

هي الآن أمامه تضع بعض أقنعةٍ تسقط منها أحياناً، تحاول أن تبدو أكثر رزانةً، تحاول أن تراعي كلامها وألفاظها، تحاول أن تكون ما تعتقد أن الكون يريدها أن تكونه، ولكنها لا تستطيع الاستمرار في لبس هذا الزي، تشعره ثقيلاً على جسدها، فتخلعه شيئاً فشيئاً دون انتباه منها!

- *جوعان؟ أنا جوعانة... قوم معي نعمل شي ناكله!*

وها هي تعود لما كانت عليه قبل عشرين سنة! ولم يملك إلا أن يبتسم لاندفاعها غير المسؤول ولإسقاطها كل الحواجز!

## (٤)
## كهف سلمى

تكثر الأعمال الدراسية في نهاية الفصل، فغالباً ما تكون هناك مشاريع مؤجلة، وتسليمات، وامتحانات قصيرة غير تلك النهائية التي تطل على الأبواب، ورغم ذلك يميل الطلاب عادةً في نهاية الفصل إلى التكاسل مع شعورهم بقرب النهاية، فتجد غياباتهم تزداد، ومتابعتهم للدراسة تقل، ولأمرٍ ما تبدو تلك الدورة الطبيعية للطلاب.

لكسر الروتين دعت سلمى زملاءها إلى جمعة دراسة في بيتها، على أمل الحظي ببعض المتعة خلال المهمات المتراكمة الرتيبة، وكان مراد من ضمن قائمة المدعوين.

في البداية طبعاً رفض مرادٌ دعوتها، لأنه في قلبه يعرف أن ما يصاغ على أنه جمعةٌ دراسيةٌ ما هو إلا جمعة إضاعةٍ للوقت، ولكن سلمى تميل إلى الإلحاح، فيكون رفض طلبها وجعاً أكبر للرأس من مسايرتها، فاشترط أن من حقه الانسحاب من جلستهم تلك في حال وجدها كما يعتقد بلا فائدة، ووافقت هي ربما لأنها تؤمن أنها قادرةٌ على إبقائه حتى لو كانت جلستها بلا فائدة.

هذه أول مرة يزور فيها منزل فتاةٍ ليست من أقربائه، في الحقيقة لا يتلاءم الاختلاط مع مجتمعه، وانضمامه لمدرسة مختلطة كتلك ما كان سوى نتاج علاقات رأسمالية تربط والده

بأحد ملّاك المدرسة. ولما كانت قواعد منع الاختلاط تطبق على الإناث أكثر منها على الذكور، لم يجد والده حرجاً من إلحاق ابنه بمجتمعٍ غريبٍ عنه.

وصل إلى بوابة حديقة المنزل، بوابة صغيرة من حديدٍ مزخرفٍ مدهونٍ باللون الأبيض وبعض الذهب، لا تعرف قيمتها كبوابة إذ لا يمكن لها أن تمنع أحداً من العبور! تكشف خلفها حديقةً منسقةً من شجيراتٍ سياجية قلمت بعنايةٍ، يأخذ بعضها أشكالاً هندسية، وورود وأزهار براقة، وأرضٍ مغطاةٍ بالنجيل، وبضع أشجار زينةٍ أخرى تتناثر فيما بينها بعض تماثيل الحيوانات الصغيرة.

رن الجرس، فرد عليه صوت شابٍ ظن أنه أخوها، فتلعثم قليلاً وتردد قائلاً: ***(أ.. أ.. أنا مراد)***، فسمع صوت الشاب يندهه ضاحكاً: ***(سلمى، في مراد عالباب!)***

وخلال لحظاتٍ جاءت قافزةً إلى بوابة الحديقة، مع أنها كان بإمكانها ببساطةٍ أن تقول له ادفع الباب وادخل، لم تكن كما كان يراها في المدرسة، ليست صبياً الآن، ترتدي فستاناً أزرق فاتح اللون بلا أكمام، منسدلًا كأنه قطعة قماش ربطتها على كتفها وألقتها لتغطي بعض جسدها، تنتهي عند ركبتيها لتكشف عن سيقان حريرة، وكانت عارية القدمين، خرجت من بيتها حافيةً لاستقباله!

فتحت له باب الحديد ووقفت مركزة مرفقها الأيسر على حافة الباب ورافعة قدمها اليسرى عن الأرض مع ثني ركبتها، فبدت كشخصيةٍ من مسلسل كرتوني مخصص للفتيات! اعتذرت عن أنها حافية، فلم تنتبه لعري قدميها إلا عندما وصلت البوابة.

اقتادت مراداً عبر الحديقة إلى مدخلٍ في الجهة الخلفية من المنزل الكبير، يطل على حديقةٍ خلفية تحوي تعريشةً قرميديةً ونافورةً وبضعة مقاعد.

فتحت الباب ودعته للتفضل بالدخول ريثما مسحت قدميها بقطعة بشكير مبلل. كان عبارة عن استوديو مستقل عن باقي المبنى، يحوي صالةً واسعةً فيها أرائك جلدية ضخمة على طرازٍ أمريكي، وطاولة طعام تحيطها ثمانية كراسٍ، تتصل الصالة بمطبخٍ كلاسيكي الطراز من خشب أصفر فاتح، غني بالكهربائيات، ينفصل عن الصالة بقاطع يشكل طاولة رخامية، وبوابة قصيرة تشبه ما تراه في الأفلام الأمريكية الغربية لبوابة (صالون) أو حانة تفتح بالاتجاهين.

ألقي على ظهر الأريكة الكبيرة غطاء صوفي وجيتار يركز ساعده عليه، وفي إحدى جوانب الصالة يقف حامل لوحاتٍ خشبي، يحمل قماشاً لم يكتمل رسمه، كان يبدو الرسم مشبهاً للغروب الذي شهدوه في رم، وعلى الحائط بجانب الحامل تتكئ لوحات قماشيةٌ أخرى تخبئ وجهها ولا يبدو منها إلا ظهرها، وضعت هناك بعدم انتظام وبعض الإهمال.

من الواضح أن هذا الاستوديو هو مكان مخصص لـ(سلمى) دون أسرتها، وكأنه ملجأ وحدتها تنكفئ فيه على نفسها عندما تحتاج الوحدة.

- ***شكله أنا اول الواصلين؟***

قال ذلك محاولاً عدم النظر إلى رفيقته، يشعر ببعض الخجل من خلوتهما، خجلٌ لا تتشاركه معه، فتبدو طبيعيةً جداً كأنها لا ترى في مراد رجلاً غريباً، بل واحداً من أفراد أسرتها اعتادت وجوده.

- ***الباقيين على وصول، بعرفوا يفوتوا هون لحالهم، انت أول مرة بتيجي مشان هيك استقبلتك من برا! بتعرف تقطع خضرة شرائح؟ عم أعمل مازات!***
- ***مازات؟***
- ***سناكات يعني...***

دخلت إلى المطبخ، كان هناك لوح تقطيعٍ على الطاولة وسكين وطبق مليء بخضروات وفاكهة مغسولة، وبضعة أطباق أخرى تحوي قطع جبن ومكسرات ورقائق بطاطا ومخبوزات مقرمشة. ناولته جزرةً وسكيناً، ووجد نفسه يقف بجوارها في المطبخ يساعدها في تحضير المقبلات، ولأمرٍ ما لم يشعر وقفته تلك غريبةً، رغم غرابتها عندما استرجعها بذاكرته، إلا أنه عندما أوقف عقله عن التفكير بما هو مسموح وما هو مرفوض وجد نفسه – وإن كان فقط للحظات- يعاملها باعتياديةٍ كما تعامله.

لم تطل خلوته بها، فخلال الدقائق التالية بدأ رفاقهم بالحضور، وكما توقعت سلمى لم يكلفوا أنفسهم عناء رن الجرس، فكانوا كمن يدخل منزله لا يحتاج إلى إذن! لا يشبه هذا العالم شيئاً من عالمه، هذا عالمٌ بلا قواعد ولا ضوابط، ولا يشعر أفراده بغرابتهم، يرون كل شيءٍ عادياً!

كانوا في مجموعهم سبعة، أربعة أولاد وثلاث بنات، بدا على الآخرين أنهم يأتون من مكانٍ قريب، كأنهم يسكنون ذات الحي، كانوا يرتدون ملابس مريحة تشبه ما ترتديه في منزلك، سلموا عليه بحرارةٍ غير مصدقين وجوده بينهم، وسرعان ما تأقلموا مع المكان وصاروا كما أصحابه، يتجولون في الأنحاء، واحدهم يساعد في حمل الأطباق وآخر يرتب الأوراق والأقلام على الطاولة، وغيرهم يحضر أكواب ورقية، وخلال عدة دقائق كانوا جالسين إلى الطاولة يمسكون أقلامهم ويتصفحون الكتب!

لم تكن جلسةً دراسيةً جماعية، بل كان كلٌّ يدرس على حدة، ولكن مستمتعاً بصحبة الآخرين، وبين الفينة والأخرى يوجه أحدهم سؤالاً ينتظر إجابةً عليه، ويبدو أن الأسئلة عادةً كانت توجه لسلمى، فقبل مجيء مراد كانت هي صاحبة العلامات، اليوم حولت سلمى سيل الأسئلة باتجاه مراد بدلاً من اتجاهها، فكأن بها تحاول ضمه للفريق بأية طريقة ممكنة.

كانت سلمى تترك الجلسة أحياناً فقط لتقف وتمد ذراعيها، وأحياناً ترمي بنفسها على الاريكة، وأحياناً تدندن على الجيتار،

وكان مراد يتشتت ذهنه بمراقبتها، ولما التقت عيناها بعينيه حاول أن يخفض بصره ويختبئ من نظراتها، لكنها قامت فوضعت كفها عل كتفه:

- ***بتشرب قهوة؟***

لم تنتظر إجابته، فأخذت طلبات القهوة المختلفة من باقي الشلة، وسحبت مراداً من يده ليساعدها، يشرب الجميع القهوة السريعة أو الأمريكية، إلا هي كانت تفضل القهوة التركية...

- ***صحيح ما سالتك شو قهوتك؟***
- ***تركي، مغلية كتير، سادة!***
- ***ممتاز، لقيت شريك!***

ألقت عليه مهمة تحضير الأكواب والفناجين، وحضرت هي القهوة، مثلما طلبها تركية، مغلية إلى آخر رمق، من دون إضافة السكر، في الحقيقة هي تشرب القهوة بكافة أشكالها، فلا تمانع السكر أو قلة الغليان، ولكن طريقة مراد المحددة في اختيار قهوته جعلتها تعتقد أن للقهوة طقوساً مقدسة، فكأن لتحضيرها شعائر ومراسم، ولشربها أخلاق، ويبدو أن من الخطيئة إضافة السكر ليخفي بعضاً من مرارتها، وكأن المر من القهوة أصلٌ نعذب به أنفسنا لتغفر من خلاله الذنوب، وفكرت بمكر: ***(مع انه اسمها قهوة حلوة!)***

لم ينسحب مراد من الجلسة، بل بقي حتى هم الجميع بالرحيل، شعر بالوقت يمر مرحاً مسلياً، لم يشعر أنه يضيعه، ولم يشعر بالخسارة في النهاية. وهؤلاء الغرباء المنتمون لعالمٍ (منحل) ليسوا سيئين كما اعتقد في البداية، هم فقط لا يرون ما يراه، ربما هم أكثر براءةً مما تخيل، ربما لا تدور في أذهانهم تلك الأفكار المشوهة، على الأقل لا تدور أي من هذه الأفكار في عقل سلمى، فهي أكثرهم براءةً وطفولةً رغم مشاغباتها وتجاوزاتها لكل الحدود الموضوعة.

خرجت معه توصله إلى بوابة منزلها...

- ***كتير انبسطت بجيتك!***
- ***اه... شكراً...***
- ***ما ضايقناك صح؟***
- ***لا...***
- ***حتيجي مرة تانية؟***
- ***اه.. لا.. ما بعرف!***

ضحكت، وسلمت عليه بحرارة، وتمنت له ليلةً سعيدة.

سيبقى ذلك اليوم في ذاكرته مخربط المعالم، لن يغير فيه شيئاً واضحاً، لن يصبح أكثر اجتماعيةً أو وداً، ولكنه ربما سيتقبل المجتمع الجديد بوصفه مجتمعاً آخر لا مجتمعه، سيبقى يرفض طرقهم وتعاملاتهم على مجتمعه، ولكنه سيرضى به لهم، وسيشاركهم بعض أوقاته في عالمهم، ولن يدعوهم إلى عالمه، فربما

يعتقد هو أن هذين عالمان لا يمكن لهما أن يلتقيا أو يتفاعلا، فيتجاهل المجتمع الأول الثاني، وينكر الثاني وجود الأول، وكلما مر ذكر للعالم الأول سيقول الثاني (هذا ليس مجتمعنا!).

# (٥)
# فنانة مع بعض الغبار

تكررت تلك الجمعات خلال سنتهم الدراسية الأخيرة، وكانت دائماً تقام عند سلمى، فكان استوديو سلمى بمثابة مقرٍ للعصابة، وهذه العصابة تكبر أحياناً وتصغر أحياناً، ولكن أربعةً من أفرادها كانوا أعضاء دائمين للمجلس، وهم سلمى ومراد وأمجد وزينة.

أما مراد، فكان يحضر جلساتهم دون علم عائلته، فتعرف أمه أنه يذهب لمنزل أحد أصدقائه يدرسون سويةً، ولكنها لم تكن لتقبل أبداً باجتماعات تضم فتيات، ومن المؤكد أن الرفض سيكون أكبر إذا ما كان الاجتماع هذا يقام في منزل واحدةٍ من هذه الفتيات! ومع هذا التناقض في حياته كان يرى نفسه متسللاً يشبه اللصوص في كل مرةٍ يذهب فيها إلى بيت سلمى، ورغم ذلك كان يذهب في كل مرة، ربما كانت تلك نزعة ثورة مراهقة، وربما كانت فضولاً، ولكنه يعرف أنه لن يقوم بشيء لا داعي له إن لم يكن يعجبه! ولم يكن يشعر بتأنيب الضمير، ولا يشعر بخطأ يرتكبه خلسةً من وراء عائلته، ولا بالخوف من اكتشاف أفعاله، ليس لأنه شجاع جسور، بل إيماناً منه أنه يعرف خير نفسه أكثر مما يعرف والداه، ولأن لا ضير في تجربة تزيده إدراكاً لعالمٍ محيط به لا يعرفه.

كانت تلك الاجتماعات الصغيرة بالنسبة له مغامرات لم يعتد خوضها، في الحقيقة لم يكن مغامراً ولم يخض المغامرات بنفسه، وفي هذه الاجتماعات كان أشبه للمتفرج منه للمغامر، ومع ذلك فكان يجد فيها نشوة استكشاف عالمٍ جديد، وربما كان يشعر بنفسه كـ (أفاتار avatar) لا كشخص حقيقي، كأنه يعيش تجربة عالم افتراضي لم يخترع بعد، فيخرج من جسده وواقعه، ليعيش في خيال رقمي غريب في جسد يشبه جسده ولا يشبهه، ويتخيل أنه في لحظةٍ ما سيخلع أحدهم قابساً ممدوداً إلى عقله يوقف سريان هذا الخيال ويقتل أفاتاره في ذلك العالم.

أما أمجد، فكانت والدته أجنبيةً من شمال شرق أوروبا، فأخذ من أخواله تلك المورثات الجينية التي لونت عينيه بالأزرق الغامق، وشعره باللون الكستنائي، وبشرته بالأبيض، وأعطته جثةً ضخمة جعلته عملاقاً بين رفاقه، ورغم ضخامته يملك عقلاً طفولياً مضحكاً يبدو واضحاً من علاقته بسلمى.

كانت علاقتهما قد بدأت منذ سنين حياتهم الأولى، فتجمع بين عائلتيهما روابط صداقةٍ قديمة جعلتهما أخوة في عائلةٍ واحدة، وكان مثلها لا يعترف بوجود كروموسومٍ قصير القامة يدعونه (Y) يخلق اختلافاً بين ما يدعونه ولداً وبنتاً، وللمشاهد لهما أن يعرف أن علاقتهما بريئةٌ كل البراءة رغم ما فيها من تقارب، فلا يستطيع أن يرى ذراعه التي تحوط كتفها إلا ذراع أخٍ حنونٍ يعطف على أخته صغيرة البنية التي لا يصل رأسها إلى إبطه.

كانت لقاءاتهما تملؤها الخصامات والمناكفات، ولكنها بمرور لحظاتٍ تنتهي بصوت ضحكة أمجد المتقطعة المضحكة، وكانت خصاماتهما غالباً ما تدور خلال دروس جيتارٍ يعطيها لها، تتهمه فيها أنه معلمٌ سيء، ويصر فيها أنه لا يريد تعليمها!

لم يحب أمجد الموسيقى أو العزف، ولكن البيانو كان مفروضاً على نسخته ذات السنوات الخمس من قبل والدته، وكان مجبراً على حضور الدروس والتمرين يومياً، وعندما كبر قليلاً تمرد على البيانو باختيار الجيتار كآلة يعزفها، لم يكن في الحقيقة يحب هذا أو ذاك، ولكن سلمى كانت تفرض عليه تعليمها، ولم يكن معلماً سيئاً كما تتهمه! فرغم صغر عمره استطاع دفع مبتدئةٍ كسلمى لمراحل جيدة من الإتقان، ولكن ذوقهما الموسيقي مختلف، فهو لم يستطع التحرر من البيانو تماماً، فيميل لتطبيق مهارات هذه الآلة على تلك، ويميل للموسيقى الكلاسيكية وبعض موسيقى الريف، وتميل هي للـ(ميتال) والـ(روك)!

وكما كان يعلمها العزف، كانت تساعده في دروسه ووظائفه، وكانت سريعة الملل، كثيراً ما تتهمه بالغباء وقلة التركيز، لتعود خلال لحظات تشعر فيها بتأنيب الضمير تعتذر عن ضيق خلقها وقلة صبرها، تعيد بعدها شروحاتها بصدرٍ أكثر رحابة، ولفظٍ أكثر بساطة، وحنان غريب يطغى على شعورها بالأسف. كانت ردود أفعالهما ملفتة لمن يشاهد، فلم يكن أمجد يغضب من وصفها إياه بالغبي، بل كان يخفي ابتسامة عنها تدل على رؤيته للمشهد القادم

من عودتها إليه معتذرة، وكأن به يقدم قرباناً يضمن به إحساناً قادماً لا محالة.

لم يكن وجود أمجد مزعجاً لمراد، فكان -دون إدراكٍ منه- يستمتع بمشاهدة علاقته الغريبة مع سلمى، وبدأ يفهم نسبياً آلية عمل عقليهما، وكانت تلك البراءة الطفولية فيهما تبعث الراحة إلى قلبه، فينسى أحياناً المجتمع الغريب حوله. ربما جعلته علاقتهما يدرك أن لكل قاعدةٍ شواذها، وربما يدرك أيضاً أن بعض المجتمعات ضيقة الأفق، وبعض الاختلاف ليس جريمة، ولكن إدراكه هذا ما كان ليعمم، ولا كان ليخرج خارج تلك المساحة التي جمعته بسلمى ورفاقها!

رابعتهم كانت زينة، فتاةٌ ناضجةٌ جداً، تدرك تمام الإدراك اختلاف ال(Y) عن ال(X)، وتشعر كل من حولها أنها تستطيع رؤية ذلك الكروموسوم قصير القامة في جينات من حولها، وإذا ما لمحت طرفاً لذاك القصير بنت جدرانها، جدرانًا ورقية توحي أنها تحمي من خلفها، وفي الحقيقة هي تدعوك لتمزيقها واختراقها.

كانت تقطر أنوثةً، منخفضة الصوت ناعمة، كثيرة التهامس مع الفتيات الأخريات، ملابسها تغطي كل جسدها، لكنها في الحقيقة توحي بكل ما تغطيه تحتها، تبدو أنها خجولة، لكنها تسترق نظراتٍ إذا ما التقطتها ترى خلف مقلتها شيئاً متوحشاً ينضح غريزةً ولهفاً، بلا شك كانت جذابة جميلة! وبلا شك لم تكن بالنسبة لمراد مريحة! فكان يشعر معها أن توليفته الجينية كاملة

تقتصر على ال(Y)، ولأمرٍ ما كان ذلك يشعره بضيقٍ لا يختلف عن الضيق الذي تشعر به فتاة لا ينظر إليها إلا بناء على (X)ها!

ليس مراد كسلمى وأمجد، فلديه ضوابط وحدود وقوانين، ولكنه أحياناً ينسى ذلك برفقتهما، فيضع أرضاً بعضاً من حواجزه، ويرتاح أكثر في جلسته، ويتصرف أكثر على طبيعته! لكن زينة كانت تراقبه بأعينها المنتقدة، تصدر حكماً على كل حركةٍ يقوم بها، وإن لم تنطق بأحكامها بلسانها، تكفي نظراتها لتشعره بضيق تلقي الانتقاد، لم يكن يعرف كيف تريده أن يعاملها، فكان ببساطةٍ يتجنبها!

لماذا يوجد من مثلها ضمن مجموعةٍ كمجموعة سلمى؟ ولماذا يوجد من مثله ضمن مجموعتها أيضاً؟ هل يعتقد أنه يختلف كثيراً عن زينة؟ يقنع نفسه أنه مختلف لأنه تقبل اختلاف سلمى، ولكن الحقيقة أن كل من في محيطها تقبل اختلافها! ليس لأن محيطها متسامح بل لأنها تقبل اختلاف الجميع عنها، فتجدهم يقبلونها كل على حدة!

في إحدى جلساتهم تاه تركيزه في تلك اللوحات مقلوبة الظهر، فوجد نفسه يقوم عن كرسيه الذي لصق نفسه به، وقلب اللوحات مستطلعاً بفضولٍ إلى ما يدور فيها، مواضيعها غالباً مشاهد طبيعية، ولكن في بعضها إدماج لعدة مواضيع برمزية بسيطة، فترى في المشهد الكبير شجرةً مثلاً، بين أغصانها تدور أحداث أخرى: على رأس الشجرة كوخ له ممر يقطع الأغصان

العليا، يمتد إلى طريق ذات مقاعد وأعمدة إنارة، وقطة تلوي ظهرها صارخةً على كلب يلحقها، وبومة تجلس على الجانب الآخر من الشجرة تراقب طفلةً تتأرجح في السماء، تتدلى قدماها فوق دبابة توجه فوهتها إلى عصفور صغير في عشه يتلقى طعاماً من فم أمه، وفي قاع الشجرة باب فتحه مسافرٌ رث الثياب عائد من سفر...

للوحاتها بصمة، في مزيج ألوانها ما يصرخ اسمها، صاخبة، ملفتة، مجنونة بعض الشيء، جميلة!

- ***شو ناوية تعملي بلوحاتك؟***

سألها وهو يعيد ترتيبها...

- ***ولا شي!***
- ***طيب علقيهم!***
- ***أنا كسولة!***
- ***وين بتحطي العدة؟ انا بعلقهم...***

خلال الساعة التالية كانت جدران الاستوديو بدأت تمتلئ بلوحات القماش والزيت، وبدت كجدران معرضٍ فني يفتح للزوار خلال ساعات دوام، يفتقد بعض ديكورات الإضاءة التي تسلط على مواقع اللوحات، ويفتقر لإطارات الخشب الفاخرة تحيط القماش، ولكنها بلا شك خلقت جواً فنياً صاخباً يضع حياةً في الجدران البيضاء الهادئة!

بعد تعليق آخر لوحة، وقف في منتصف الغرفة ينفض عن قميصه وبنطاله ما علق من غبار الحفر وينقل بصره بين الجدران يراقب إنجازه معجباً به، لم يعرف كيف يمكن أن يمتلئ فخراً لمجرد حفره بضع حفرٍ لبراغٍ في جدران منزلها، أدرك أن فخره لم يكن بحفره وبراغيه إنما بعرض فنونها للجميع، لم تثر لوحاتها مقلوبة الظهر فضول أي من رفاقهما، ولكنهم فجأة بعد رؤيتها تزين الحوائط البيضاء الباردة، أدركوا أن بينهم فنانة، كان فخره فخر مكتشف لا فخر مخترع.

ناولته سلمى زجاجة ماء يبل بها ريقه، أخذ نفساً كبيراً وهو يفتح زجاجتها، نفش فيه صدره، وقال لها مازحاً على غير عادته:

- ***بكرا بس تعملي معرض إلي نسبة من أرباحك!***
- ***ازا بتعلقلي لوحاتي بالمعرض زي هلا يمكن اسمحلك يومها تتصور معي!***
- ***شو بدي بالصورة معك؟***
- ***ما انا رح اصير مشهورة!***
- ***طيب؟***
- ***الصورة معي بيبقى الها سعر!***
- ***يعني لازم ابيعها مشان اخد حصتي؟ بديش! لاقيلك حدا يعلقلك إياهم غيري!***

لم تعتد منه أن يمازحها هكذا، لم يسبق أن رأت هذا الجانب منه، شعرت هي الأخرى بفخر المكتشف، كأنها نفضت عنه رمال

صحراء أخفت كنوزه، فوجدته مدينةً أثريةً أسطوريةً كأطلانطس، لم يصدق أحد بوجودها، ولكنها هي كشفتها تحت رماله وجليده وقشوره!

ضحكت، ثم اعتلت وجهها نظرات استعطاف كاذبة...

- ***بس ازا ما علقتلي لوحاتي مين بعلقهم؟ بهون عليك أعلقهم لحالي؟***

استخدمت نبرةً غريبةً أجفلته، تلعثم قليلاً يريد أن يتراجع عن مزاحه، ولكنها قطعت جفلته بأن ضحكت وأمسكت يده بين يديها الاثنتين، ونظرت في عينيه صادقة...

- ***شكراً مراد!***

# (٦)
# نوبة ذعر

هم مراد ليقوم وراءها بتلقائية رجل آلي تلقى أمراً من سيده، دخل معها البيت الحجري، واجهه مدخل رخامي واسع خالٍ إلا من مقعد خشبي دون ظهر، قديم الطراز، يبدو مخصصاً للمساعدة على انتعال الأحذية، ومرآة كبيرة بإطارٍ من ذات الخشب القديم يحيط عشرة سنتيمترات من التطريز السنبلي الأحمر على قماش مخملي أسود.

من المدخل قادته إلى معيشةٍ كبيرة، تحتوي -على غير المتوقع- ثلاث أرائك ثلاثية المقاعد، بسيطة التصميم، قاتمة اللون، تغطت حيطان الصالة بلوحات سرعان ما أدرك أنها من رسمها، في صدرها لوحة ذات إطار يبدو ثميناً، فيها شجرة على رأسها كوخ وفي قاعها باب، توقف أمامها طويلاً، مثلما توقف أمامها أول مرة، سرعان ما نقل بعدها نظره بين اللوحات كمن يبحث عن شيء فقده، وكانت هناك! على الحائط المقابل، محاطةً بذات الإطار الثمين: غروب رم، كتب بخط اليد في زاويتها السفلى، كما التوقيع: (رسمت لتحفظ في الذاكرة). لم يعرف أياً من اللوحات الأخرى، ولكنه استطاع أن يرى تطوراً في الشخصية والأسلوب، كأنها سلسلة دارونية لنشأة الفنان في سلمى.

لاحظت تعلقه بنقطتين على جدران صالتها الواسعة، ربما لأنها اهتمت بديكوارتها المحيطة من أطر وإضاءة لتجعلها أكثر

بروزاً من غيرها، ولكنها أدركت أن تعلقه لم يكن فقط مدفوعاً بخدعها البصرية، بل كانت أطياف ذاكرة حامت في عقله وأسرت مخيلته، كأنها رحلة في الزمن، كأن الجدران حوله بدأت بالدوران لتعيده لذلك الاستوديو وتلك الحيطان البيضاء الباردة وركام الغبار العالق بملابسه وشعره، وشعور غريب من سعادةٍ ممزوجة بأسى الحنين قبض على صدره ليعيده لواقعه.

استيقظ من غفلته ليتبع رفيقته إلى مطبخ كبير، كلاسيكي الطراز، في وسطه جزيرة من رخام، ناولته بضع أوراق خس وطماطمة وخيارة وفلفلة وضعتها في مصفاة له ليغسلها...

- ***آخر مرة وقفت هيك وقفة برضه كانت معك، دايماً بتشغليني بخضرو اتك!***
- ***كيف يعني آخر مرة؟ بدك تقوللي الك اكتر من عشرين سنة ما وقفت تغسل خضار؟***
- ***ممم... تقريباً!***

بحثت في وجهه عن مبالغة أو علامة تساعدها على تكذيبه، لم تجد شيئاً تتعلق به، وفي اندفاع من حيرتها وجدت نفسها تستجوبه.

- ***اكترمن ١٠ سنين متزوج، ما وقفت بالمطبخ؟***
- ***هبة ما كانت تحب وجودي بالمطبخ، كان بالنسبة الي غرفة ممكن افوتها ازا بدي اشرب مي، وحتى هاي كتير من الأحيان كانت تيجيني لعندي!***

- ***ما بتعمل لحالك قهوة؟ ولو جعت بالليل؟***
- ***هبة مسؤولة عن كل شي...***
- ***وهلا كيف عايش؟***
- ***عالمطاعم والقهاوي وكاسات الكرتون! وطبعا امي وخواتي كل يومين اوتلات بمروا علي!***
- ***هالحكي مش منيح بال cv تاعتك! بقصص الرومانس دايما بطل القصة اله مشهد لابس روب المطبخ وبيطبخ لحبيبته! لا لا لا، ما بينفع، بدك إعادة تاهيل!***

ضحك من انقضاضها العفوي على طبيعة حياته، ما تراه هي مناقضاً للطبيعة كان الطبيعي في عالمه، فلماذا يحتاج رجل متزوج ذو مركز علمي ومادي جيد، لا يخلو منزله من الخادمات، تتفرغ له زوجته، لماذا يحتاج لدخول المطبخ؟

تراجعت سلمى قليلاً بعد أن شعرت أن تدخلها في حياته غير مبرر...

- ***وجودك هون بضايقك؟***
- ***ما عندي خبرة، بدي تأهيل!***
- ***اه... طب بضايقك تضل قاعد هون؟ ما تعمل شي... بس تسليني؟***
- ***انتي صاحبة البيت، انا ضيف، بقعد وين ما بتحطيني!***

ربما لم تكن قد انتبهت أن رفيقها كان جالساً على كرسي أمامها، راخياً مرفقيه على جزيرة الرخام، لا يصنع شيئاً سوى مراقبتها، ربما لم ينتبه هو نفسه أنه كان يراقبها، تقفز بين خزائن المطبخ وأدراجه، تتناول أدوات وبهارات وصلصات، كفلم كرتوني لسيدة ذات ألف ذراع طويلة تدرك دون استخدام نظرها أين توجه أيديها لتلقف ما تحتاج!

- ***شو بدك تعملي؟***
- ***ساندويش!***
- ***كل هالمعركة والفوضى عشان سندويشة؟ أنا قلت حتطلعي بشي اختراع!***
- ***يعني ما بتساعد كمان بتعلق علي؟ الاكل يا صديقي موتعباية تنك! الاكل فن ومتعة! انت مثلا ما بتحب الصلصات بقلب السندويشة، بس ازا ما كان فيها صوص بتبقى ناشفة، مشان هيك بتجبرني اعملك شي جنبها تستعمله dip!***
- ***مين قالك ما بحب الصلصة بقلب السندويشة؟***
- ***هيك كنت! تغيرت؟***
- ***لا... ما تغيرت... ما بحبها!***

تاه خياله قليلاً، أيحجب الليل قدرة المرء على ضبط نفسه؟ ماذا يفعل هو الآن؟ يجلس في مطبخ سيدة غريبة، تعد له شطيرة من خبز محمص، يناقرها ويمازحها ويراقبها بعطش! أما زالت

أطلانطس مختبئة تحت جلده؟ تملك هي أسرار دخولها، فتلقي تعويذتها لتفتح الأبواب رغماً عنه؟ أيشترك الضياع والليل وسلمى في الجريمة؟ لطالما شارك الليل سلمى في تخريبه، لطالما اتفقا على إبراز مراد آخر غير الذي يحرص على إبرازه، مراد لم يخرج منذ أكثر من عشرين عاماً، مختبئ تحت جلده في سبات عميق يشبه الموت! أتوقظ الموتى أيضاً؟ هل تضاف تلك كموهبة جديدة لها في سيرتها الذاتية؟ ولكنه لا يشعر بالخطر، لا يشعر بالذنب، لا يشعر بالخطأ، لأمر ما هو يشعر بالسعادة!

وضعت أمامه صحناً من بورسلان أبيض مربع، على طرفه صحن آخر صغير فيه سائل يميل لونه للحمرة رآها تعده من زيت وليمون وأشياء أخرى لم يركز بها، وشطيرة من خبزة مربعة سمراء محمصة يبدو أنها تحوي شرحات من جبن ولحم وخس، قسمتها بسكين من منتصفها بشكل قطري ليصبح المربع مثلثين، وبضع من قطع خضار مقطعة كأصابع منتظمة، سرقت منها واحدة من خيار وضعتها في فمها قبل أن يمد يده إليها.

يتوقف الزمن أحياناً في لحظات غير مفهومة، أو يبطئ، لماذا تباطأت الحركة عندما دخلت شرحة الخيار فمها؟ لماذا تعلق بمصير خيارة تقضمها دون أن تلامس شفتيها، ثم برؤية الشفاه تغلق والفم يتحرك ليمضغ الضحية داخله، ثم بحركة لقمة تعبر رقبتها إلى طريق النهاية؟

***Bon Appetite!*** -

كان صوتها كفرقعة أيقظته من حلم، شعر بغرابة أخافته، شعر أنه يريد الهروب الآن، سيبحث عن مفاتيحه وسجائره ويهرع إلى سيارته، يجب أن يهرب، كأن هناك إنذار وأضواء حمراء تنبئ بالخطر، ولكنه تجمد في كرسيه أمام الجزيرة الرخامية، كأنه أمام مذبح تقدم عليه القرابين، هو أضعف من أن يهرب بعد بدء طقوس المعبد، لن يهرب قبل أن تتقبل الآلهة قرابينها! يشعر أن جسده هو القربان، ينتابه ذعر اللحظات الأخيرة قبل الأضحية، أضواء حمراء متراقصة، وصفارات، وحبات من عرق بارد تسري على ظهره، وقلب ينبض سريعاً يكاد يسمع صوته يفجر طبلتي أذنيه، **إنه خائف!**

- *مراد؟*

أذلك اسمه؟ أذلك صوتها؟ هل كانت المتحركتان شفتيها؟ رفع رأسه ليتأكد من أنها هي، تعلق في وجهها كمن يريد أن يحفظ ملامحها، هدأ قلبه قليلاً، اختفت الأضواء الملونة والصفارات، عاد نفسه ينتظم، كان اسمه على لسانها كحضن ضمه يطمئنه أنه بخير، كم يحتاج لحضن يضمه! للمسة تربت على وجهه تخرجه من نوبات ذعره، لنور في نفقه المظلم يعيده إلى الحياة.

أمسكت يديه ضمتهما على كوب ماء، ورفعتهما إلى فمه، ثم شدت يدها على كتفه كأنها تقول (أنت بخير، لا تخف!) كأنها عرفت بماذا يمر، كأنها رأت ما رأى وسمعت ما سمع، كأنها كانت

معه! لم تقل شيئاً لكن يدها على كتفه كانت كأنفاس اليوغا تعيد السلام إلى قلبه.

لم تكن نوبات ذعره متكررة، ولم يعرف عنها أحد، كانت قصيرة الأمد، وكان قادراً على إخفائها، لماذا إذن أصابته اليوم؟ ولماذا ميزتها هي؟

ربما هي سببها! ربما تلك أعراض إيقاظ الموتى! ربما ذلك الحنين...

- ***شكرا سلمى!***
- ***على ايش؟ لسه ما اكلت! بس تاكل وتعترف انه سندويشتي بتستاهل كل العجقة بتبقى بتقولي شكرا!***

يشعر جوفه حطاماً، يشعر نفسه عارياً مشوهاً أخرق يغزوه الفشل، ويشعر أنها ترى ذلك فيه ولكنها تغض بصرها وتدعي العمى، فيحطمه ذلك أكثر! لا يعرف كيف يخلي أنقاض نفسه ويعيد بناءها، في عقده الخامس، ولكن روحه هرمة منهكة متقطعة الأنفاس! وهي، سلمى، أمامه كما عرفها قبل ألف سنة، لم تكبر ولم تهرم ولم تصغر هالتها... يحسدها؟ يكرهها؟ يريدها في عالم أسود كعالمه؟ ربما، ولكن الحقيقة أنه مشتاق!

- ***مراد، بتعرف؟ اشتقتلك!***

لماذا تصب زيتاً على ناره؟ لماذا ترش الملح على جروحه؟ لماذا تصر على إيقاظ أمواته؟ وضع يده على فمه وركز عينيه في عينيها، أخذ نفساً عميقاً يحاول فيه أن ينقذ آخر خلايا في عقله، ولم يقل شيئاً! تناول شطيرته وبدأ يقضمها، يحاول أن يصفي ذهنه بطعمتها، ولكنها مجرمة، قاسية، لئيمة، لا تسمح له بالهروب من حنينه، بل تزيده ألماً، تدفع عينيه للجريان، فلا يدرك أنه يبكي إلا بعد ما اختنقت أنفاسه قليلاً، وسقطت دمعة متمردة على يده.

# (٧)
# دعوة ووعد وهدية

- *الو... مرحبا... ممكن احكي مع مراد؟ أنا سلمى!*

لحسن حظ مراهقي ذلك الزمن، أو لسوئه، لم يكن الهاتف النقال منتشراً بينهم، كانوا بعد قلةً من يملكون هاتفاً نقالاً، وكان استخدامه مكلفاً جداً، فاعتمد الناس على التلفونات الثابتة أرضية الخطوط في إجراء المكالمات.

كان الجو خريفياً فيه بعض البرودة، وكان النهار يقصر يوماً بعد يوم، وكانت تلك الدقائق التي تسبق غروب الشمس خاصة كسولةً متثائبة، تدفع أهل البيت للاسترخاء والتجمع في المعيشة لشرب الشاي عل سخونة مائه تدفئ أجسادهم.

إن الحميمية التي تضيفها كأس قصيرة بلا يد من شاي تتعكر أحياناً بمجرد صوت هاتف يرن، خاصة إذا ما كان صوت الطرف الآخر على الهاتف أنثوياً، وإذا ما طلب ذلك الصوت بكل صلافة أن يتحدث مع أحد ذكور البيت.

كانت أمه من تلقى ذلك الصوت الأنثوي، أعطته سماعة الهاتف والشرر يتطاير من عينيها، سمع صوت سلمى تحدثه فتجمد دمه، لم يعتقد أنها ستتصل به في بيته، ومن بين الجميع تلتقط مكالمتها أمه، كانت ردوده مقتضبة غير مرتاحة تتلخص بـ*(اه، ولا، وطيب)*، تحثها على إنهاء المكالمة سريعاً، وكان ذهنه

مشغولاً بالحسابات لما بعد إنهاء المكالمة، لذلك التحقيق الذي سيخضع له، كان يفكر سريعاً في مرافعة دفاع عن نفسه.

وبالفعل، ما أن أغلق سماعة الهاتف سحبته أمه إلى غرفته وأغلقت خلفها الباب، أرادت أن تحدثه بعيداً عن مسامع أخواته البنات خوفاً من تدنيس أفكارهن بتابوهات المجتمع، جلس على طرف سريره بعدما اتخذت أمه كرسي مكتبه عرشاً لها، شعر نفسه فأراً في قفصٍ يحاول قطٌ فتح بابه، فيهرب الفأر إلى زاوية القفص البعيدة عن الباب ليكتشف أن القفص صغيرٌ جداً تطال زواياه يد القط من بين القضبان.

بدأ التحقيق، أو ربما الاتهام، لم تكن أسئلة أمه استكشافيةً بل كانت متهمةً مقرعة، أعادت سؤالها عن هوية المتصلة عدة مرات، عن أهلها، عن صفتها بالنسبة لابنها، ولم تستح من اتهامها بالوقاحة وقلة الأخلاق، لم تسأله عن سبب الاتصال، لم تكن محتاجةً لمعرفة السبب، فلا سبب يبرر تواصل فتاةٍ مراهقةٍ مع شاب غريب عبر الهاتف.

أراد أن يدافع عن صديقته، لكن دمه المتجمد شل لسانه وعقله، ماذا لو عرفت أمه أن ابنها يزور قليلة الأخلاق هذه في بيتها؟

بعض الخطايا لا تعد خطايا إلا إذا ما اكتشفت، كان يرتعد خوفاً كمجرمٍ مُسك متلبساً، ولم يكن يشعر أنه مجرم! كان غير قادرٍ على رفع عينيه في عيني أمه ندماً على فعلٍ ليس نادماً عليه،

كان يتفق مع قولها على اعتباره حقائق ولم يكن مصدقاً للحقائق! إن شعوره بالذنب حقيقي، وشعوره بالندم حقيقي، وشعوره بالخوف حقيقي... ورغم ذلك لم يكن أي من ذلك فعلاً حقيقياً!

هناك برمجةٌ مسبقةٌ لعقولنا إذا تجاوزناها يحدث خللٌ في نظام التشغيل، وبعض أنظمة التشغيل هشةٌ لا تستطيع إصلاح الخلل، فلا يصلح ببساطة إقفال الجهاز وإعادة فتحه، وليست كل الأجهزة ملائمةً لتحديث الأنظمة، حتى تنجح عملية التحديث قد تحتاج لإجراء بعض التغييرات في البناء الفيزيائي لا الرقمي.

إن ما حدث مع مراد الآن يشابه تلك التعليقات في الحاسوب، تبدأ تظهر أمامه رسائل الخطأ والخلل، وكأن أمراً جديداً أدخل إلى نظامه يتعارض مع ما سبقه، فيعترف ولا يعترف، ويندم ولا يندم، ويأسف ولا يأسف! إن برمجته الأولى محفورةٌ في عقله وقلبه لا يمكن محوها، ربما يكون الحل بوضع نظامٍ جديدٍ منفصلٍ عن الأول، فيشغل هذا أحياناً ويشغل ذاك أحياناً أخرى!

عالمه الجديد في واقعه يجب أن يكون منفصلاً عن القديم، ومحاولة اتصال سلمى بعالمه القديم سببت خللاً في سريان الزمن والفضاء، خلقت بوابةً قد تدمر العالمين، الحل بسيطٌ إذن، عليه أن يغلق تلك البوابة ويمنع أية محاولةٍ لفتحها من جديد.

مكالمة سلمى له كانت لتدعوه إلى حفلةٍ صغيرةٍ لعيد ميلادها، لم يرفض دعوتها كما كان يجب عليه أن يفعل، قبلها بكل تلقائيةٍ كدعوةٍ إلزاميةٍ للقاء عمل. جرت مكالمتهما كالآتي:

- *شكلي اتصلت بوقت غلط؟*
- *اه.*
- *طب عندك شي بالويكند؟*
- *لا.*
- *تيجي ع عيد ميلادي؟*
- *طيب!*

وحتى بعد أن انتهت أمه من محاكمته لم يخطر في باله أن يلغي موعده، وكأن الحادثين منفصلان لا علاقة بينهما، فيبدو أنه قرر إكمال حياته في مسير التناقض هذا، فطالما استطاع إخفاء آثاره لن تكون هناك مشكلة، ولكنه ربما يحتاج بعض المساعدة للاستمرار، على الأقل يحتاج من آثاره ألا تظهر نفسها وتتصل به لترد عليها أمه!

اتصل بها لاحقاً ليسألها عن التفاصيل، طلب منها ألا تتصل هي به لأن ذلك قد يسبب لكليهما آلاماً في الرأس لا يحتاجانها، ولكنها لا تمانع وجع الرأس، ولا ترى أن اتصالها به كان خطأ، وترى أن المخطئ فقط هو من يختبئ، لم يستطع إقناعها فوجد نفسه يتوسل إليها:

- *يا حبيب... إ إ... يا سلمى، انتي مو غلطانة، بس مشاني انا مشيها، والله بتجيبيلي مصيبة! بعملك شو ما بدك بس الله يرضى عليكي اهلي ما يكونو بالصورة!*

رغم أنها لم تفهم حقيقة كيف يمكن لمراد أن يعيش هذا التناقض، ولم تفهم كيف يمكن أن تكون هي سبباً لمصائبه، هي لم تحاول يوماً سوى مساعدة رفاقها فكيف تكون مشكلة بالنسبة لهم؟

- ***مراد صرنا بآخر القرن العشرين، كلها كم سنة وبينتهي العالم أصلاً! عيش آخر ايامك بطريقتك!***
- ***بعيش بطريقتي تمام، بس ليش لازم وجع الراس؟***
- ***خلص بلاش نوجع روسنا، زي ما بدك، كل هالقصة مشان ما ارن عليك عبيتك؟ حاضر ما برن! بس بشرط بترن علي انت كل يوم!***
- ***أمرك ستي، انا برن عليكي كل يوم!***

لم يكن هذا مرادًا نفسه الذي عرفته سلمى قبل عامين، بالأحرى ليس نفسه الذي عرفته العام الماضي، في واجهته لم يختلف فيه سوى زيادة في هرموناته الذكرية التي زادت من طوله بشكل سريع، وغيرت صوته وأطلقت شعرات وجهه، في طريقة تعامله وتصرفاته كان ثابتاً كصخرة، ولكن معها... لم يكن نفسه! بات ليناً مطواعاً، ينطلق لسانه بالكلام، أكثر ابتساماً وضحكاً ومزاحاً، أكثر شغفاً!

لم يسبق له أن حضر حفلة عيد ميلاد خارج تلك المقتصرة على أفراد أسرته، تلك التي لا يمكن أن تدعوها حفلة في الحقيقة، إنما هي عذر يتخذونه لتناول قطعة كعك مغلفة بالكريما وإنارة

بضع شموع. لم يسبق له أن حضّر هدية لعيد ميلاد، ولم يسبق له أن قدم هدية لفتاة! إنه يعرف ماذا سيبتاع لها، يعرف مكتبة في وسط عمان لديها ما يلزمه: مجموعة من فراشي الرسم وألوان الزيت الفرنسية الصنع، لا يعرف الكثير عن الفنون ولكنه على الأقل يعرف أنها هي تعرف، سيستعين باستشارة صاحب المكتبة الذي سيعرض عليه أغلى الأدوات وسيشتريها هو دون معرفة حقيقية بمزاياها!

طمأنته سلمى أن الحفلة ستكون بسيطة، بلباس (كاجوال)، ستكون مجرد لقاء يحضره أصدقاؤهم المقربون، مع إضافة بعض الموسيقى والحلويات!

هذا عيدها السابع عشر، في سنتها الأخيرة من المدرسة، بدت له -على صغر حجمها اليوم- أكثر نضوجاً، كحبة مشمش على غصن الشجرة لفحتها أشعة الشمس لتلونها قليلاً بلونها، كانت قد سمحت لشعرها الصبياني بأن يزداد طولاً، ورفعت نصفه وتركت ما تبقى منه متعرجاً كمياه سيل تغطي كتفيها شبه العاريتين، تضع بعضاً من مرطب شفاه لامع، وقليلاً من كحل، يضيق فستانها عند الخصر فيظهر ثنيات ما كانت تظهرها، ثم يتسع الفستان حتى ينتهي فوق ركبتيها بقليل، فإذا ما دارت يرتفع قليلاً كمظلة، فيظهر شيء بسيط من لحم أبيض كان مختفياً!

كانت له يومها ساحرة أخاذة، حركت فيه غرائز كان منكراً لوجودها، وربما كان تسلله من وراء عائلته لمقابلتها يجعل الأمر

أكثر إثارة، وربما لأن أجمل الحب هو المسروق، وربما لأن هرمونات ذكورته كانت مهتاجة، وربما لألف سبب آخر، شعر يومها بالضياع!

جلس على أريكتها يراقبها تبتسم لضيوفها وتمازحهم، لم تكن مختلفة في تصرفاتها عن عادتها، كانت طبيعية جداً، مرحة جداً، ولكنه هو لم يكن كعادته، كان متعلقاً بتلك الشفاه اللامعة كلما ابتسمت، وبذراعها العارية كلما تحركت، وبخصرها النحيل التفت حوله ذراع أمجد يدعوها للرقص على ألحان أغنية لاتينية الكلمات، كان أمجد بارعاً في الرقص، وكانت مطواعةً له يتحرك جسدها حسب قيادته، فيلتف كبلبل إذا ما رفع يدها فوق رأسها، وإذا ما شد ذراعها المفرودة التفت على ذراعه كورقة مبرومة تنتهي في حضنه رأسها على صدره وجسدها محاط بذراعيه.

كانت سعيدةً جدا وهي ترقص كأنما تطير، وكان مراد يشعر بضيق لا يفهمه، ولم يعتده، وشعر أنه نسي أن يتنفس، ولم تعد أنفاسه إلا بانتهاء اللحن اللاتيني وانفصال الجسدين الراقصين وسط تصفيق الحاضرين.

- *ترقص؟*

سألته مباغتة..

- *لا ما بعرف!*

ولكنها لم تسمع إجابته، فسحبت يده بيسراها عندما بدأت أغنية ذات لحن شعبي، خلعت حذاءها عالي الكعب، وركضت حافية إلى وسط الصالة تجره خلفها، طمأنته أنها ستدله، الحركة المطلوبة بسيطة، تحرك قدمك اليسرى أمام اليمنى لتخطو خطوتين، ثم ترفعها لتضرب بها الأرض، وتكرر تلك الخطوات... إنها دبكة بسيطة، لا شيء صعب فيها، ولما شعرت أنه يسايرها شدت خطاها قليلاً، شبكت أصابعها بين أصابعه وثنت ذراعها الممسكة به خلف ظهرها، فباتت أصابعه ملامسة لجذعها، بدأ جذعها يتمايل أكثر، وارتفعت قدمها عن الأرض أكثر، وبدلاً من خطوتين باتت قفزتين، وصارت تبطئ حيناً وتسرع حيناً، كما نبضات قلبه الخارجة عن الإيقاع! كان شعرها يتطاير مع طيرانها فيلامس وجهه أحياناً، ويظهر عنقها أحياناً، ويراقبها هو بتصوير بطيء للحركات، فيرى حبات العرق تسيل على عنقها الطويلة، ويرى أنفاسها تدخل صدرها عند كل قفزة! عدة دقائق مرت دهراً ليده العالقة في يدها ولعينيه العالقتين بين ساقيها ومؤخرة عنقها! كانت دقائق من عذاب له، عذاب حلو المذاق، تمنى لو طال قليلاً قبل أن يعود لواقعه وأفكاره السوداء.

ليست سلمى له وحده! وليست تلك اللحظات التي يعتبرها مميزة له وحده، بل ليس هو مميزاً عندها، هو صديق مثل باقي أصدقائها، ولا تعنيها لمسته ولا قبضته ولا نبضات قلبه! ليست سلمى له!

## (٨)
# عبادة الشمس والفئران

أحياناً يناشد القلب صاحبه بالتوقف، يعطي إشاراتٍ متتالية متعددة تدل على خطرٍ قادم: يفقد ميزان نبضاته، يعتصر قليلاً، يرتخي قليلاً، يتوقف أحياناً عن العمل، يسقط أحياناً من مكانه، ويبعث رسائل إلى عقل صاحبه كل ليلة تقلق نومه.

وأحياناً لا يستجيب صاحب القلب لقلبه، ولا يبالي بنذره أو تحذيراته، بل ويتهم قلبه بالجهل والمبالغة، ويقول (انتظر قليلاً بعد!) ... لا يعرف القلب أن طرقه في طرق نواقيس الخطر قد تكون لذيذةً لصاحبه، ولا يعرف أن اختلال إيقاعه مسكر، وأن تعكير سلام النوم مثير، فيدمن صاحبه هذه التغييرات، ويطلب المزيد منها!

يدرك العقل الخلل، فينبه صاحبه أيضاً، ويطرح أسئلته، ويقول له (ماذا بعد؟) ويجيب عن الأسئلة بأكثر الطرق وحشية، فلا يرى (بعد) ل (ماذا)، ويحكم على القصة بالفشل، ويحكم على القلب بالانكسار، ويحكم على صاحبه بتحطم يشبه الموت وشيك!

فيرفض صاحب العقل عقله، ويتهمه بالتشاؤم والسوداوية، ويقول له (انتظر قليلاً بعد!) ويصر على السير في طريقه، يغلب

العند على طبعه، أو ربما حب الاستكشاف! فينكر قلبه وينكر عقله ويمضي في طريقه!

إن الحرب مع القلب والعقل معاً لأمر مضن، يشعر صاحبهما بطاقته تهرب منه، وبجسده يتفكك، ويصبح التماسك أمراً صعباً، ويصبح كل شيء صعباً، حتى التنفس ربما يحتاج لاستذكار كيفية إجرائه، أتسحب الهواء أولاً أم ترخي الحجاب الحاجز؟

ود مراد لو أطفأ أجهزة إنذاره، وكبس تلك الكبسة التي تحمل صورة جرس مغطى عليه بعلامة (X)، فلا يأبه للصفارات ولا للأضواء، ويتخطى كل رسائل الخطأ المبعوثة إليه، ويرجئ عملية الإصلاح لوقت آخر غير مسمى! ولكن محاولات الإطفاء تلك لم تكن ناجحة تماماً، بل خلقت في جوفه نزاعاً للقوى، كل تسحبه باتجاه، تكاد تقطع أطرافه.

كان للمراقب الفطن أن يرى تقلبات مزاجه، بين اللين والقسوة، بين الدفء والبرد، بين الحنان والجفاء! وللمراقب الفطن أن يرى أن تلك التقلبات ما كانت إلا بوجودها، وإذا كان هذا المراقب أكثر جرأة لاتهمه بالوقوع في حب صبياني أحمق يقوده للجنون!

كانت أيام سنتهم الأخيرة تمضي راكضة، لاهثة بالنسبة لمراد، وبكامل لياقتها بالنسبة لسلمى! لم يبد أي أثر لسباق المسافات التي تخوضه الأيام على سلمى، لم تلهث، ولم تعطش، ولم تؤلمها خاصرتها، كانت كنزهة خفيفة الخطى قبيل الغروب. أما لمراد

فكانت شاقة، مؤلمة، يتصبب لها عرقه، وتتقطع أنفاسه، ويجف ريقه، وتتفتت عضلاته ألماً.

ربما يكون الفرق بينهما فرقاً في المبادئ لا في الظروف، فمراد شخص دائماً يبذل أقصى جهده دون النظر إلى الهدف، وسلمى تفعل فقط ما تريد بما يتناسب مع الهدف، فيصارع هو زلازل من المهمات الدراسية، وتتأرجح هي على أرجوحة هادئة مريحة، أضف إلى ذلك عواصف المشاعر التي يمر هو فيها، والتي لا تبدو أنها تعصف بأحد غيره، فبين زلازله وعواصفه أنهكت قواه، وبين نزهاتها وأرجحاتها ازدادت نضارة وحياة.

رآها ذات يوم جالسة في باحة المدرسة، كانت أشعة شمس أواخر الشتاء دافئة، تتعارض مع نسمات الهواء الباردة، تخلق إحساساً جميلاً كأنما تحتضن متلقيها وتلفه برداء يحميه برد الموسم، وكانت سلمى غارقة في أحلامها، جلس بجانبها، نظرت إليه كوجود طبيعي لم تبال به، بل بدأت تتكلم كمن تسرد أفكارها لنفسها، قالت إنها إذا ما كانت ستعبد إلهاً غير الله لعبدت الشمس، فهي أكثر الظواهر الطبيعية استحقاقاً للألوهية، إذا ما ظهرت ملأت الدنيا نوراً وألواناً وحياة، وإذا ما رحلت غرق الكون في الظلام والسبات، إذا ما حنت كانت دافئة تحتضن عبيدها، وإذا ما غضبت كانت ناراً تحرقهم، وأحياناً تبرد عواطفها، فتطل بعيدةً باردةً بلا فائدة، بأمرها تأتمر الفصول، وكما يجب للآلهة أن تكون: الاقتراب منها هلاك والابتعاد عنها هلاك!

كانت طبيعة الحديث هذا تثير غيظه، لكنه لم يستطع إيقاف سردها، ربما لأن حركات شفاهها تثير اهتمامه، وربما لأن صوتها يثير اهتمامه، وربما لأن كل ما فيها مثير لاهتمامه.

قطعت سردها الحالم لما رأت ملامح امتعاضه وباغتته بسؤالها:

- ***شو ناوي تدرس بالجامعة؟***
- ***ممم... ما بعرف!***

لم يكن طبيعياً ألا يعرف طالب في الثانوية ماذا يريد، فأبواب الجامعة قريبة، ولكن نظامنا التعليمي لا يتطلب تحضيرات للتخصصات المختلفة سوى دفتر علامات لا يهم أيها أعلى، المهم أن يكون تحصيلها كافياً لدخول الفرع المطلوب، فلم يجد مراد سبباً لوضع خطة لمستقبل قريب معتمد على أدائه خلال مدة زمنية لا تتجاوز الشهر، بل قرر التدرب لذلك الشهر دون اعتبارٍ لما يأتي بعده.

- ***اصحابنا معظمهم عارفين شو بدهم، أمجد ناوي يسافر عند أهل أمه يدرس طب، مع اني قلتله انه لو صار دكتور مو ممكن اوثق فيه يعالجني.***
- ***اها... مو مبين لابقله يكون دكتور صراحة.***
- ***زينة بدها تدرس إدارة أو اقتصاد مع انها علمي، وعلاماتها نسبيا جيدة، بس هي خطتها البعيدة***

تتزوج، فبدها اختصاص من دون ضغوطات، تشتغل فيه مع مديروسيم وغني!

- شكلها حاطة عينها عحدا؟
- أكترمن حدا!
- شاطرة هالبنت! وانت؟
- حاطة عيني عحدا؟
- لا قصدي شو بدك تدرسي؟
- عمارة!
- لأنك رسامة؟
- لا مش تماماً! بس الحضارات شو بضل وراها لما تختفي؟
- شو؟
- عمارة وفنون!
- وكتب!
- مهو الأدب من الفنون، بس المكتبات بتحترق، والمكتوب مو دايماً حقيقي، وانا أصلا مو شاطرة بالاداب!
- يعني انت بدك تخلي وراكي آثار!
- هههههه... لا يمكن بس بدي ادرسها من وجهة نظر المهندس!
- على العموم وظيفتك موجودة، أبوي عنده شركة اسكانات، بخليه يوظفك!

- ***شكرا على العرض! بس بالك انا شكلي وحدة بتوظف عند ابوك؟***
- ***صراحة لا!***
- ***بس انت ممكن تشتغل معه! قصدي ادرس اشي بيناسب شغل ابوك! مدني مثلاً!***
- ***ليش مش عمارة زيك؟***

ربما كانت تلك نزوة مراهق واقع في الحب، ولكن فكرة البقاء بجانبها خمس سنوات أخرى بدت لذيذة حينها، وربط ذلك بحجة مهنة مفيدة ذات مستقبل واعد سيكون أمراً مقبولاً ومفهوماً، ولربما فرصة للعمل سوية لاحقاً ستكون جائزة كبرى يفوز بها إن قبلت به شريكاً!

رسمت سلمى خطة استنسخها لنفسه، قد يكون رسام اللوحة أدرى بنواياه، ولكن هذا لا يمنع دارسها من تحليلها كما يريد، ويمكن اقتباس كلمات قصيدة لتعبر عن غير ما أراد صاحبها، وربما ليست الفنون لمبتكريها، فبمجرد عرضها تصبح ملكاً للمحلل يرى فيها ما يرى!

سلمى تبحث عن شغف، ومراد يبحث عن شغف، ولكن شغفهما ليس واحداً، هي طريق واحدة تصل إلى المحطتين، أما محطتها فذات معالم واضحة ثابتة على الخرائط، ومحطته تكاد تكون بوابة خفية لعالم سحري يجب أن تملك لها كلمة سر حتى تعبرها!

رغم جديته إلا أن قلبه المراهق يغير أنغامه دون أن يعرف خطوات الرقص على النغم الجديد، فيهز كتفه أحياناً، ويطرق بأطراف أصابعه أحياناً أخرى، ولكنه لا يعرف كيف ينسق حركة أعضائه ليخرج برقصة يرقصها ليلاً حول نيران القبيلة!

لم تجد سلمى صعوبة في التعامل معه، لم يبد على قلبها أي تغير في الألحان، كانت كما هي، ولكنه وجد أنه يقضي وقتاً أطول معها، لم يعتقد أن زيادة وقتها معه كان فعلاً تم برغبتها، إنما ببساطة كان لأنه هو كان يتبعها متعلقاً بخيالها أينما ذهبت.

لم يعد اتصاله بها أمراً منها، بل بات حاجة له كحاجة مدمن إلى جرعاته، تبدأ جرعاته صغيرة، لكن كبده سرعان ما يعتاد صغر الجرعة فيأمر بالزيادة، هل سيأتي يوم يأخذ فيها جرعة تفوق تحمله تودي بحياته؟ ربما لن يمانع فرط الجرعات إذا ما عادت إليه بالنشوة المرجوة.

من مثل سلمى لا يروين العطش، تشعرهن يقدمن لك أفضل ما يمكن تقديمه من شراب، ويبدو الشراب لذيذاً وربما مسكراً عند تجرعه، ولكنه أيضاً ينتهي كوهم، تتمنى لو كان هذا الشراب حضر لك فقط، ولكنك تدرك أن سلمى تسقيه لكل من حولها، فلا تستمتع باللذة، ولا تدوم السكرة إلا ثوان، تعود بعدها لظمأ لا تعرف كيف تطفيه، لا تعرف سوى أن تعود إليها لتسقيك بعد من خمرها الذي لا يسكر!

انتهت السنة الدراسية، وكانت سلمى كمنارة تقود خطته المستنسخة إلى مينائها، كانت نتائجهما جيدة ملائمة للتخصص وللجامعة، ربما كانت نتائجه تسمح له بدراسة اختصاص طبي، ولكن العلوم الطبية لم تلائم خطته.

دعته إلى منزلها لتبارك له نجاحه في الثانوية، لأنها طبعاً لا تستطيع زيارته في منزله، لم تستقبله هذه المرة في كهفها السري، بل استقبلته في مضافة العائلة، وعرفته على أفراد أسرتها الذين كان قد لمحهم سابقاً وتعرف عليهم من بعيد! لكن هذه المرة كانت مختلفة، لم يكن من أصدقائهما أحد موجود غيره، فكانت الدعوة خاصة له، عرفته على العائلة بصفته الصديق العزيز، الأول على المدرسة، الذي يستحق التقدير!

رغم غرابة عائلتها إلا أنها كانت دافئة، أخ أكبر يستغل كل فرصة ليلقي النكات على أخته، أب حنون لا يرى في الكون أغلى من ابنته، وأم تحاول أن تلملم بعض الإتيكيت أمام الضيف إلا أنها في النهاية تيأس من ذلك وتقرر أن تترك الضيف لرعاية أخ وأخت يكادان ينسيان وجوده في جدالاتهما!

كان أخوها (وليد) يكبرها بخمسة أعوام، وعلى عكسها بصغر بنيتها كان ضخماً، أصغر قليلاً من جثة أمجد، وكان يدرس الطب. تذكر وليد وجود مراد بينهم فسأله:

- *سلمى قالتلي إنك ناوي زيها تدرس عمارة، صح؟*
- *ان شاء الله.*

كان مراد يطغى عليه الخجل، فلا يعرف ماذا يفعل حقاً على سفرتها بين أفراد أسرتها، ورغم لطافة الجمع وحميميتهم، إلا أنه كان يشعر أنه يجلس في غرفة تحقيق، ولأمر ما كان أخوها وليد مصدر قلقه الأكبر، ربما لأن عمره القريب منهما يجعله أكثر قدرةً على قراءة نوايا مراد، وربما لأنه في الحقيقة أقرب أفراد أسرتها إليها ولطالما تحدثت عنه باحترام وحب لا تظهرهما له، وربما لأن له شخصية وبنية سينمائية تجعل مراداً يبدو أمامه -رغم وسامته- ضئيلاً قبيحاً!

- *بس معدلك بدخلك طب! يمكن موعنا بالجامعة، بس عنا اكيد بتدخل طب اسنان! متاكد انك حترمي هاي الفرصة؟*
- *انا ما بحب ...*
- *القصة مش بتحب او بتحبش، القصة بتقدر او بتقدرش! ما بتخاف تندم؟*

تلعثم قليلاً، شعر أنه بحضرة حميه يسأله عن مهنته وأملاكه ويحاكمه على إمكانية التقصير، أرادت سلمى أن تتدخل لتبعد أنياب أخيها عن رقبة صديقها، لكن مراداً سبقها:

- *صراحة أنا حدا اكترشي بعرف اعمله اني ادرس! بس اظن الطب موبس دراسة صح؟ انا ما اعتقد*

*انه عندي طاقة للتعامل مع الناس والتعاطف معهم!*

- *طيب والبرستيج والمكانة الاجتماعية؟*
- *ازا كان لقب دكتور مهم بكمل دوكتوراه، بس صراحة انا ما بدي حدا يعالجني او يعالج عيلتي صار دكتور مشان برستيج ومكانة اجتماعية! مش اني مو مهتم بهاد الحكي، انا حتى الهندسة غالبا رح ادرسها مشان اللقب، بس المهن المختلطة بالانسانية ما بتناسبني!*

لم يكن كلام مراد مخططاً له، خرج منه بشكل عفوي، لم يدع أنه مثالي بعيد عن النفاق الاجتماعي، هو فقط لا يريد أن يشغل مهنة تفرض عليه إنسانية لا يملكها حقاً، أو ربما كان لا يريد أن يحاسب عليها هو دون غيره، إنها لعبة ظالمة أن تحكم بقوانين لا يحتكم إليها غيرك!

ابتسم وليد لرد مراد:

- *انا بس كنت بدي اتاكد انك ما رح تندم! بس يا ترى لو سلمى درست طب كان هيك حيكون رايك برضه؟*

اختتم وليد جلسته معهم بذلك التعليق الحذق الساخر، واعتذر بدعوى حاجته للدراسة، وغاب مراد في أفكاره، هل استطاع أخوها حقاً أن يقرأه؟ أكانت تلك قراءة أم اتهام؟ وفي كلتا الحالتين ما هو موقف الأخ الطبيعي؟ هل على مراد أن يجهز دفاعاته؟ وماذا عنها هي؟ إذا كان هو بهذا الوضوح لأخيها الذي لم يره قبل هذه المرة سوى لحظات، كيف لها ألا تقرأ ما يدور في خلده؟

إنها عائلة غريبة ستدفعه من حفة إلى الهاوية!

# (٩)
# سيل ماء ودموع

ماذا يفعل رجل شد الشيب في رأسه إن أظهر ضعفه أمام امرأة كان لها في يومٍ موقع غريب في صدره؟ وماذا تفعل هذه المرأة إن شهدت هذا الضعف؟ كيف سيرفع عينيه في عينيها؟ كيف سيمحو ذاك المشهد من ذاكرتها؟ أينكر ما حدث ويتهمها بالوهم؟ أيهرب؟ أيتظاهر بالإغماء يدعي بعده أنه فقد ذاكرة ما حدث؟ ولكن ذاكرة حدث كهذا حتى لو أنكرها ستبقى منقوشة على ألواحه كما الأساطير البابلية! أيستسلم لها ويعترف بالضعف؟ أيسلمها مفاتيح قيوده تقتاده بها؟

ماذا عنها؟ أتدعي عمى البصر والبصيرة؟ أم تستنكر عليه دمعته العنيدة التي بللت يده؟ أتربت على رأسه حانيةً؟ أم تقرعه لضعفه؟ أتنسى ما رأت أم تحفظه هي أيضاً في ألواحها؟

سلمى الآن صاحبة القوة، هي الآن الاتزان، وهو الضعف والاختلال! فليحترق ميزان القوى، فلتحترق الفيزياء، لماذا لا يستطيع أن يخلق بوابة يضيع فيها عن واقعه؟ لكنها ربما ستجده في كل أبعاده المختلقة كما وجدته الآن في ضياعه! لماذا كان عليه أن يفقد سيطرته الآن؟ بعد عشرين عاماً من التماسك والاحتفاظ بتمثال شمعه، لماذا انصهر اليوم دون باقي أيامه؟

لا يملك الآن حتى طاقةً للغضب! يريد أن يغضب، يريد أن يكره، يريد أن يحقد، يريد أن يتحول إلى شيطانٍ مجنون يدمر ما حوله من عالم، ولا طاقة له!

لم تغمض سلمى عينيها، ولم تزح وجهها عنه، ولا ربتت على رأسه، ولا حضنته! لم تحاول تهدئته، لم تقل له (***معلش***)، لم تفعل شيئاً! وقفت كما صنم لإله لا يجيب دعوة الداعي، ولا يأبه لآلام العبيد، صنم من ذهب يراقب عبده يهدم بيته لبعض الحطب، ويبيع بقرته لبضع حبات من أرز، وذهب الإله في المعبد يعبد، والعبد تقرقع معدته من جوع وعظامه من برد! ونار المعبد حارقة وقلب العبد محترق!

ود لو حطم الصنم، ولكنه ضعيف لا يملك قوة للتحطيم، ولا يتحمل لعنات الآلهة!

انتظرت قليلاً عله يستعيد رباطة جأشه، لحظات صعبة عليها كصعوبتها عليه، قد يراها صنماً أجوف لا يحس، ولكنها ليست حقاً الصنم!

- ***شو بدك مني أعمل؟***

سألته بصوت هادئ، حاول النطق لكن صوته خانه، كمن ألقيت عليه لعنة الصمت.

- *بدك ياني اقلك معلش؟ بدك ياني اغمض؟ ما رح اقلك ولا رح اغمض ولا رح اعمل اني بعرف انت شو حاسس، ولا رح اضويلك شمعة بعتمتك!*

كانت حازمة قاسية، ليست كما عهدها، بل ربما كانت كما عهدها ولكنه نسي كيف أنها شمسه تحرقه إذا ما اقترب وتجمده إذا ما ابتعد! حاول مرة أخرى أن يخرج صوتاً من حنجرته، لكن الصوت اختنق في رئتيه ولم يعرف دربه.

- *بتحب اتركك لحالك شوي؟*

كان صوتها الآن يحمل شيئاً بسيطاً من تفهم حنون، دعا عينيه لتلتقي عينيها، رأى ملامح لا تنتمي لحزم الصوت، استجمع بعضاً من جلده ليتحشرج صوت ينطلق من فمه: *(لا)*.

لماذا (لا)؟ أكل ما فيه يدعوه للاختفاء عنها وصوته عندما انطلق طلب منها البقاء؟ ألم يرد أن تبتلعه الأرض قبل قليل؟ ألم يبحث عن آلة للزمن تمحو ما حدث؟ لماذا (لا) إذن؟ تلك الأنظمة المتعارضة في عقله! أعادت إحياء نظامه الآخر بعد إيقاف دام دهراً، كان مرتاحاً بوجود نظام تشغيل وحيد في عقله، أو ربما لم يكن فعلاً مرتاحاً، وربما لم يكن النظام الآخر موقوفاً عن العمل، إنما كان مزاحاً فقط إلى مكاتب مظلمة في قبو عقله، نظام تشغيل متوافق مع سلمى، كان سابقاً محتلاً للطوابق العليا من مؤسسته، ثم انقلبت موازين القوى، ولكنه لم يفصل النظام، لم يجد لديه

قوة لاجتراره، فقط أبعده لعالم سفلي مظلم، ولم يتخيل أن المنفي قد يعود!

لم يتخيل أن عقله سيقع فريسة لطرفين متناقضين يطلقان أحكاماً يطبقها هو دون فهم أو تركيز، ويمسك كل منهما طرفاً منه يشده باتجاه عكس شد الآخر، ولا تعرف كم تحتمل الأطراف من قوى الشد، ومتى ستنفصل عن الجسد!

كانت (لا)ءه كما صرخة استنجاد ألصقتها بالكرسي أمامه. جلست دونما صوت يخرج منها، أرخت مرفقيها على الطاولة وحملت وجهها بين كفيها وركزت عينيها على وجهه، هرب من عينيها، وأخفى وجهه في تركيز بالطبق أمامه، ألهى نفسه بنصف الشطيرة ليهرب من نظراتها، ولكنه كان ينسى أن يمضغ ما قضم، فتحبس الشطيرة بين أصابعه واللقمة في جوف فمه.

تناولت الشطيرة المحبوسة بين أصابعه وحررتها بإعادتها إلى الطبق، وأمرته أن يتبعها، أخذته إلى غرفة منزوية في المنزل مخصصة لمبيت الضيوف، فتحت أبواب خزانة فيها تناولت منها بشكيراً وما يشبه ملابس الرياضة، ناولته إياها وأشارت له إلى الحمام...

- *خد راحتك، بستناك برا!*

لماذا تفترض النساء أن مياه الحمام ستغسل الهموم؟ إن القذارة ليست على جسده بل فيه، كيف ستخترق مياه حمام

جلده لتصل قلبه فتغسله؟ أم مياهها سحرية أيضاً؟ يجب أن يعود إلى بيته، أن يترك كل شيء الآن ويشكرها ويهرب، لكنه تناول قطع القماش منها دون اعتراض! لماذا لا يفعل ما يجب أن يفعل؟ ما كان يجب عليه أن يقبل دعوتها لفنجان القهوة! كم مر من الوقت؟ ألم تشحن سيارته بعد؟ كم من التابوهات سيكسر أيضاً؟ إن ما يدور في عقله لا يطبقه جسده، كرجل آلي تقرصن نظام تشغيله، يتحرك بناء على أوامر غريبة لا يعرفها.

حرر أزرار قميصه، بدا له أن الأزرار كانت تكتم نفسه، فشعر بعد تحريرها بالهواء يدخل صدره، استنشق الهواء كجائع له، ألقى ملابسه على السرير ودخل الحمام.

هناك مشهد متكرر في الأفلام لرجل معذب يريح رأسه على حائط وتسقط مياه (الدش) على رأسه، بلا وعي منه، هذا ما فعله مراد! فتح الماء دافئاً ينساب على رأسه، وأركأ رأسه للحائط البارد، وجعل الماء يتساقط بحبات كبيرة سريعة على رأسه كأن به يدلك فروة رأسه لتخفف قليلاً من شدها! وأدرك شيئاً: لا يغسل ماء الحمام الهموم، ولكنه يختلط مع الدمع فيسمح بتفريغ شحنة الدموع الغارقة في عينيه دون أن يعرف أي الماء على وجهه ماءه.

لا يغسل ماء الحمام الهموم، لكن الدموع تزيحها قليلاً من الطريق، كسيل أمطار تغسل بعض الأتربة عن الشوارع! أغمض عينيه قليلاً، وحاول أن يملأ صدره بالهواء، ثم توقف الزمن عنده قليلاً، خطر في باله سؤال غريب: لماذا يشعر أنه محتاج للبكاء؟

لماذا يشعر الآن بكل هذا الضغط المحتاج إلى تسريب؟ ما الجديد اليوم؟

إن مشكلاته الزوجية خبر قديم، وعمله حالياً مستقر، وحياته -رغم بعض الشوق يكنه لأطفاله- هادئة نسبياً، لماذا خرج إلى سيارته دون هدف إذن؟ ولماذا ضاع في طريقه؟ لا يذكر المحفز لذلك، لكنه كان قد تلقى -قبل خروجه من عمله بقليل- مكالمة من أمه، وكما عادتها تنهي مكالمتها بدعاء أن يجد حوله (أولاد الحلال) ولكنها أضافت إليها هذه المرة (بنت الحلال) التي ستعوضه عن سنواته التي مرت.

لم يعر دعوة أمه انتباهاً، ولكنه شعر بضيق غير مبرر بعد أن أغلق الهاتف، فتوجه إلى سيارته مختنقاً باحثاً عن هواء، ففتح الشبابيك، وحاول الخروج من شوارع المدينة المكتظة عله يستطيع الإسراع، فيدخل هواء من شباكه يطير سواد أفكاره معه! لم يعرف في الحقيقة بماذا كان يفكر، كان سارحاً في لا شيء حقاً، فإذا ما أوقفه أحد ليسأله عما يدور في خلده لكان صادقاً إن قال (لا شيء).

كان الشيء الوحيد الواضح بالنسبة له أنه يشعر بلون أسود يملؤه ويحيطه، لون لا يعرف مصدره ولكنه كان قد بدأ يأكله رويداً رويداً بعد غياب الشمس، فيستطيع أن يرى بقعه على جلده تنتشر كمرض أسطوري، كذلك الذي يصاب به حفار قبور سارق لكنوز مصرية نتاج لعنة تحمي ضريحها!

ثم رآها! فاختلت كل الموازين، لم يعد يرى الأسود على جلده، نسي وجوده، وتذكر ألواناً أخرى من ماضيه.

أنهى دموعه وحمامه، ووقف أمام المرآة عارياً إلا من منشفة تلف خصره، في المرآة رجل بدا غريباً عنه، أحمر العينين قليلاً، شعره المبلل مبعثر نتيجة محاولة تنشيفه، مد أصابعه فيه ليعيد ترتيبه، يعيده إلى الخلف، ليكشف عن جبينه، بعض الخطوط على جبينه واضحة، شدها بيده عله يسحرها لتختفي، حاجباه جميلان عريضان مرسومان فوق عينين واسعتين عسليتين، كانتا سابقاً تقدحان ذكاء، هما الآن مرهقتان، بشرة الوجه لوحتها أشعة الشمس الميدانية لمشاريع شركة أبيه، فوق الشفتين شارب ملتصق بلحية صغيرة تعانق ذقنه، تعطيه طابعاً يفيض رجولة!

دقق النظر في المرآة كمن يحاول أن يحفظ في عقله الصورة أمامه، كمن يخاف أن تضيع الصورة من مخيلته، فسريعة الأيام تأخذ في طريقها ملامحه التي عرفها وتبدلها كل يوم بهيئة جديدة عليه ما عاد قادراً على حفظها!

هدأ الآن، عاد قلبه إلى مكانه، وعادت رئتاه إلى العمل، وصفي ذهنه من عواصفه. ارتدى الملابس التي ناولته إياها، كانت أكبر قليلاً من مقاسه، تخيل أنها ملابس (وليد)! قميص قطني أسود قصير الكم، وبنطال قطني طحيني اضطر أن يثني أطرافه ليناسب طوله. لم يفكر في أن يعاود لبس ملابسه الأولى، ربما لأن الأزرار

تخنقه، وربما لأن سلمى ناولته الملابس الأخرى فشعر بلزام ارتدائها!

خرج يبحث عنها، وجدها تجلس على المصطبة خارجا تحمل في يدها كوباً فخارياً يتصاعد منه بخار! يقال إنّ المشروبات الساخنة تساعد في مواساة من هو مضطرب أو حزين. ناولته كوباً آخر كان يجلس على طاولةٍ أمامها، تفوح منه رائحة النعناع.

- *ارتحت؟*

سألته وهي تراقبه يشم رائحة البخار المتصاعد من كوبه، ثم يرتشف منه بحذر.

- *اها شكراً الك، انا غلبتك!*
- *حابب تحكيلي شي؟*
- *...*
- *طيب... انا السبب؟*
- *ممكن!*

بدت عليها ابتسامة خافتة كابتسامة منتصر متنكرة، أتتشفى فيه؟ أتسعد بشقائه؟ ليس ذلك من طبعها!

- *سلمى انتي بتكرهيني؟*
- *لا.*

جاوبته دون تردد ودون استنكار لسؤاله، كأنما كان سؤاله متوقعاً وليس مستغرباً!

- ***شمتانة فيي؟***
- ***لا.***

قالت ذلك مع نصف ضحكة، أثارت غيظه.

- ***بتضحكي علي؟***
- ***ممكن!***

احمر وجهه، وانفجرت ضاحكة، ضحكتها جميلة النغم، كصوت ماء البحر إذا ما حركته نسائم المساء مريح، ضحكتها معدية كضحكات طفل في أشهره الأولى يقهقه على أمه التي أزاحت يديها عن وجهها! ضحكتها تزيد غيظه وتزيله في آن، فلا يعرف أيغضب أم يضحك؟ أيثور أم يهدأ؟

- ***انا بضحك؟***
- ***ممم... بدك سكر عالشاي؟***
- ***اه...***

تجاهلت استجوابه، وحافظت على طيف ابتسامة جميلة يشرق لها وجهها.

# (١٠)
# الحمد مراد!

لا يمكن لأحد أن يعد الجامعة استمراراً للمدرسة، أو بدايةً لعالم العمل، الجامعة في الحقيقة عالمٌ منفصل عما سبقه أو ما سيلحقه، لها قواعد تخالف كل ما هو معروف، تُحكم داخل أسوارها بقوى سحرية من عالم الخيال، فتكون كمن دخل بلاد العجائب: تأكل فطرةً تزيد حجمك، وتلتقي أرنباً مسرعاً يرقب ساعة جيبه مرتبكاً خائفاً من تأخره عن موعد.

للبعض لا يزيد الفطر من الحجم بل ينقصه، والبعض لا يلتقي ملكة القلوب بل يضيع في حفلة الشاي مع صانع القبعات، وبلاد العجائب واسعة تحوي الكثير.

رغم تباين الطبقات والمجتمعات التي تضمها الجامعة، إلا أنه قد يكون من الصحيح اعتبار أن معظم روادها ينتمون للمجتمعات المغلقة نسبياً، قليلة الاختلاط، متوسطة المستوى المعيشي، ورغم أن المجتمع الجامعي مجتمع اختلاط يصدم تلك المجتمعات المنغلقة، إلا أنه صادمٌ أيضاً للمجتمعات المنفتحة! لماذا؟ لأن المجتمعات هي أفرادها، فأولئك المنتمون لمجتمع وردي كمجتمع سلمى مثلاً هم الغرباء والأقلية في مجتمع الجامعة، وإذا قررنا أن الجامعة مجتمع واحد لا مجتمعات، تكون سلمى ورفاقها شواذ عليه غرباء، تختلف النظرات إليهم ممن حولهم، بين من يريد تقليدهم ومن يستهجنهم، ولكن الناظر إليهم لن يحاول

الاختلاط بهم حتى لو كان مقلداً! يخاف المقلد من انكشافه فيهرب من الأصيل، ويبتعد المستهجن عما يستهجنه، فيغدو مجتمع سلمى منغلقاً على نفسه معزولاً عما يحيطه!

سلمى -ذات الشخصية المندفعة المنطلقة المملوءة طاقة كبركان على وشك الانفجار- ستصدم بعالمٍ غريبٍ لا يشبهها يحيط بها، كانت ملفوفةً برداءٍ فروي ناعم دافئ يدافع عنها، ستجد رداءها هذا ممزقاً خشناً ثقيلاً عليها، لا يناسب الواقع الجديد!

أما مراد الذي كان يوماً غريباً على مجتمعهم، لن يواجه تلك الصدمات القاسية، فهو في الأصل ينتمي للمجموعة الكبرى، ومن ثم انتمى للمجموعة الصغرى، فعرف طرفي النقيض، وربما يكون اتزانه في هذا العالم المتخبط أسهل عليه دون غيره!

لن يكون التعامل مع الجنس اللطيف صعباً موتراً، ولن يكون الابتعاد صعباً أيضاً، يعرف أين تقع الحدود، يرى خطوطها مرسومةً بوضوح، لن يتجاوزها حتى لا يلوث نفسه بدهان الحدود الأحمر الفاقع حديث الرسم.

في الجامعة انزوت كلية الهندسة بعيداً عن كل الصخب، تكاد تعتقد سكانها وهماً أو أسطورة من أساطير الأولين، يُذكرون في المجالس ولا يُرون، وذلك لأنهم على ما يبدو يضعون رداءً يختفون تحته عن الأنظار، يشتهرون بذلك الهوس المضحك ويرون العالم من خلال رقمين متكررين: صفر وواحد!

وهم ليسوا كطلاب الطب، فرغم أن طلاب الطب أيضاً ينتمون لقصص الخيال، إلا أنهم يحاولون جهدهم التأكيد على إنسانيتهم، فيهبطون عن عروشهم أحياناً ليختلطوا بالإنسان الطبيعي الساكن في رحاب الجامعة.

أما طلاب الهندسة، رغم مشاركتهم طلاب الجامعة الآخرين في عدة مواد ومحاضرات، لا يعطون قيمة للخروج من قماقمهم، ولا يرون حاجة لإثبات إنسانيتهم، فعدسات أعينهم تكاد ترى العالم عبر مثلثات وجبر ودارات كهربائية ولغات برمجة، فلا ترى شجرة مثلاً بل ترى زاوية وخطاً مائلاً ومعادلة تفاضل.

خرجت كلية العمارة عن ذلك الركب!

في السابق كانت كل كليات الهندسة مدمجة في واحدة، فتقبل في الهندسة العامة أولاً، ثم تتخصص لاحقاً في الفرع المطلوب، وفي هذه الجامعة كان التخصص الفرعي يأتي متأخراً بعض الشيء، وبذلك تشمل صورة الـ(مهووس) كل طلاب تلك الكلية البعيدة، إلا العمارة! فكانت كلية العمارة منفصلة منذ اللحظة الأولى، كأنها لا تنتمي لهذه المجموعة من المهووسين.

في الحقيقة كان لطلاب العمارة، وخاصة الذكور منهم، هالة جميلة في مخيلة باقي طلاب الجامعة، فلهم صورة فنان فرنسي من بضعة قرون خلت، يرتدي قبعة مائلة، يحمل ريشة رسم في فمه وهو يحاول أن يضبط لوحة ما عبر شباك صنعه من إبهاميه وسبابتيه، تلطخ قميصه مفتوح الأزرار بضع بقع من دهان،

ويضاف إلى هذا الخيال سيف يحمله على ظهره من مسطرة (T) كبيرة، ودرع على جنبه من حقيبة تملؤها ألواح الـ(فبريانو) المرسومة.

إذا كان الذكر في كلية الطب أكثر ذكور الجامعة قابلية للاصطياد، فإن ذكر العمارة هو الأكثر اشتهاء، ومراد هنا في كلية العمارة كـ(لوركا) في إسبانيا، فأجمل الكليات العمارة، ومراد "يا صبايا أجمل الفتيان فيها"!

يتعلق الغريب في مجتمع ما بأي أحد قد يكون مصدراً للمساعدة، وفي مرحلةٍ ما قد يكون كفرخ الطير عندما تقشر بيضته، يعتبر أول مخلوق يراه أمه، فيتبعه ويزقزق له ويتعلق بذيله، وفي بحره مجهول المكونات يكون ذلك الشخص كما مرساة يربط قاربه المتلاطم بها، أو كما عملاق بحر يشده إلى أقرب فرصة للنجاة.

كانت سلمى هي مرساة مراد في المدرسة، بل بالأحرى كانت منارته وقبطانه، غيرت فيه وبنت، زادت ثقته بنفسه، وعلمته العوم في مياه العوالم الغريبة دون خوف! وعندما دخلا الجامعة ظلت بجانبه كسند وإلهام، ولكنها سرعان ما وجدت نفسها تتخبط بين تلك الأمواج الغريبة، وربما اعتقدت أن مراداً سيكون سنداً لها ومرساة يثبت قاربها.

كانت سلمى مركز الكون في المدرسة، ويبدو الآن أن مراداً هو مركز الكون في الجامعة، ولكنه ليس كسلمى، فسلمى كانت مركزاً

مسؤولاً عن مركزيته، يمسك الجميع بحبال طرد مركزي دائرة تمنعهم عن الحياد عن المسار أو الانجذاب للمركز، فيحافظون على دورتهم وفصولهم وليلهم ونهارهم.

أما مراد فقد أغراه العرش، ونسي رعيته أو تناساهم، فكان جلوسه مرتفعاً يحجب عنه السمع والأبصار، يسعد بانحناء الرؤوس له وبالتبجيل، وينسى دوره كراعٍ للرعية، فلا يطعم الجائع ولا يطبب المريض، بل يدفعهم ليحاربوا حروبه ويزيدوا من ملكه ورغده.

لم تصدق سلمى أن مراداً المتعلق بذيلها سينمو له جناحان يطير بهما بعيداً عنها، لم تصدق أنها ستحتاجه يوماً كما كان محتاجاً لها، ولم تصدق أنها عندما ستحتاجه سيضرب يدها الممدودة إليه ليطير وحده.

بطبيعتها الاجتماعية راحت تبحث عن صداقات في هذا العالم الغريب، فوجدت نفسها في كل مرة تعود لصداقاتها القديمة التي أصبحت تسكن كليات أخرى غير كليتها، لحسن حظها فالسنة الأولى في الجامعة هي سنة المواد العامة، لا تحتاج فيها أن تبقى حبيسةً لعالم لا يعترف بها، ولكنها إذا ما عادت إلى سجنها وجدته هو مصدراً للنور والهواء ينعش عزلتها.

نجح مراد في بناء صداقات عديدة بين زملائه، وأصبحت له ما يشبه الشلة من الرفاق الذكور، فيبدو أنه كان لزملائه مثالاً محبباً، كان مجتهداً ذكياً واثقاً، يتقن السباحة في بحار المجهول،

لا يخاف كروموسومات الـ(X) المتكررة أمامه، يعرف كيف يكون رقيقاً، وكيف يكون حازماً، ويعرف كيف يعتزلها دون أن يسيل لعابه عليها، إذا كنت تريد أن تتبع ذئباً (ألفا) فمراد هو ذاك الذئب!

شلته الجديدة بدأت بإبعاد سلمى عنه، فلا ترتاح الجماعة لوجود أنثى بينهم، وليست أي أنثى! هي مرعبة لهم، تقدح عيناها قوة وفراسة، ويفيض جسدها الصغير بفرمونات تدعوهم للتذلل عند قدميها، كأنما لبؤة تمر بين القطيع! وإذا ما حُسبت تلك اللبؤة خاصةً للـ(ألفا) منهم، زاد الرعب تجاهها، فيصبح وجودها موتراً وهالتها خانقة.

شعرت سلمى أن تواجدها بالقرب من ذلك القطيع مزعج لها بقدر ما هو مزعج لهم، فحاولت الابتعاد عن تجمعاتهم، ولكن ذلك ما كان ليمنع تواصلها معهم، فكان مراد كمغناطيس يجذبهم أينما ذهب، وإذا ما حاولت الاقتراب منه كانت غالباً ستصطدم بواحد منهم.

كان هناك واحد منهم ثقيلاً عليها فوق العادة، كان اسمه (ناصر)، كان هذا من تلك الفئة المدعية للخبرة والمعرفة، المتعالية رغم جهلها، والتي غالباً ما تنطق ترهات لا تعرف معناها!

كانت يومها قد التقت مراداً سريعاً قبل إحدى المحاضرات، كانت تريد أن تدعوه للم شمل بسيط لمجموعتهم الدراسية، قطع ناصر حديثهم ببلاهة، كان يحاول أن يظهر نفسه معتاداً على

محادثة الفتيات، فرفع التكليف ليدعوها (سوسو)، ومد يده ليسلم عليها!

سلمى ليست حمقاء، تستطيع قراءة من أمامها رغم طيبتها، وانتماؤها لمجتمع منفتح لا يعني أن لا حدود لديها، إن الحدود المرسومة تتغير بتغير من سيخترقها، فإذا لم يكن المخترق للحدود واحداً من مواطنيها، اعتبرته متعدياً يجب قنصه.

ناصر لا ينتمي للفئة التي يدعي انتماءه لها، وسلمى لم تر وثيقةً تسمح له بالعبور، هل يعتقد انه سيمر فقط لأنه مرافق لمراد؟ أيعتقد نفسه دبلوماسياً يعبر مع الوفد؟

لم تمد يدها له وقالت:

- ***الاتيكيت انه البنت هي التي بتمد ايدها للسلام مو الشب! والمفروض ما بصير حدا غريب ينادي بنت باسم دلع الا ازا هي و افقت!***
- ***دخيلك! وقفت علي انا يعني؟***

نفثت دخاناً من أنفها وناراً من عينيها، ولوهلة كادت تظهر أجنح التنين على ظهرها.

- ***اه وقفت عليك!***
- ***بتعرفي اصلاً أنا غلطان بحكي مع أشكالك، طول عمري بقول كل النساء عاهرات إلا أمي!***

- ***اها وكل الرجال قديسين الا انت! وخلال سنوات خبرتك الطويلة عرفت انه بس امك مش عاهرة مش هيك؟***
- ***ما بسمح..***
- ***بتسمح ولا عنك ما سمحت، انت واحد سخيف وبتمنى عمرك بحياتك ما تقرب عمكان انا فيه، ازا شفتني بالشارع اقطع للجهة التانية، اعتبرني وباء واهرب مني بكون احسن!***

كان مراد واقفاً خلال ذلك المشهد كحائط، لم ينطق أية كلمة ولم يحاول الدفاع عن صديقته ولم يحاول صد صديقه! في الحقيقة كان كمن يشاهد مسلسلاً درامياً سخيفاً لا ترتبط شخصياته بواقعه في شيء، لم يشعر أن تلك الفتاة النارية هي سلمى، ولم يصدق أن لصديقه الجرأة على تحقير صاحبته أمامه!

نظرت سلمى إليه بذات النيران في عينيها وقالت له:

- ***مراد موعدنا السبت عل ٥ المسا ازا بدك تيجي، وازا ما بدك...***

لم تكمل جملتها، كان يبدو أن عصبيتها طغت على أعصابها، وجرعة الأدرينالين الفائقة فاقت حمولة الدمع في عينيها، فاغرورقت العينان كأنما جاء طوفان الماء ليطفئ الحرائق فيها، أخفت وجهها بيديها وهربت بعيداً!

كان يجب أن يلكم وجه صديقه الذي تجرأ على إبكائها، كان يجب أن يلحق بها، أن يمسح دموعها ويحتضنها، كان يجب أن يمنعها من الهروب بهذه الحال خوفاً عليها من مفترس آخر يلتقطها عند هبوط دروعها... ولكنه لم يلكم صاحبه ولم يعاتبه حتى، لم يلحق بها، لم يحمها، ولم يمسح دمعها!

لا يعرف ماذا ألم به، كان يرى نفسه فارساً حامياً، ولكنها كانت تنيناً مخيفاً ولم تبد بحاجة لفارس يحميها، هل خنقته هالتها الطاغية؟ هل خاف من نيرانها؟ ولكنه لمح موقع ضعف لها كانت فرصة له ليدخل ملوحاً سيفه، لماذا إذن صدأ سيفه؟ لماذا علق في غمده؟ يا له من جبان أحمق!

يبرر لنفسه صدمته بردود أفعالها، فهي عادة اللطيفة المحبة التي تساعد الجميع، لم يعهدها شرسة، إن الحرب في نفسه الآن تفوق طاقته، هو أكثر من يعرف أن صاحبته ليست سهلة رخيصة كما صورها صاحبه، هو أكثر من يعرف براءتها وعفويتها، كيف يقابلها بعد أن خذلها؟ أيتصل بها ليطمئن عليها؟ أيذهب إلى بيتها يدق أبوابها ليرى وجهها إن كانت مياهه قد جفت أم مازالت أنهاره تسيل؟ أيحرق العالم الذي آذاها حتى لا يؤذيها مرة أخرى؟ ماذا يفعل الآن بعد أن فقد فرصته للتصرف؟

جبان مراد! أحمق مراد! قبيح مراد! لم يفعل شيئاً مراد!

# (١١)
# توقف عن الغباء!

تردد كثيراً قبل عبوره البوابة البيضاء القصيرة المذهبة الحارسة لمنزل سلمى، مرت ثمان وأربعين ساعة على دموعها، لم يتصل بها خلالها، رغم أن نيران عينيها وأنهارها لم تفارق خياله، شعر بخجلٍ غريب وبارتباك أوقفا دارات عقله الكهربائية عن العمل، فلم يعرف كيف يتصرف.

شعر أن دخوله منزلها لحضور لم الشمل الصغير ينم عن وقاحةٍ من طرفه، فكأنه لا يرى فيم شهد أمامه من أحداث أي خطأ أو غرابة، كأن كل شيء ما زال طبيعياً، رغم أن سماءه لم تكن زرقاء، وعصافيره لم تكن تزقزق، وجوّه لم يكن جميلاً، لم يكن لديه أي شيء طبيعياً!

كان مراد آخر الواصلين، طرق الباب المفتوح لكهفها بإصبعين معلناً عن قدومه، فابتسمت له سلمى ابتسامةً كبيرة، وقفزت إلى الباب لتلتقط يده وتجره إلى الداخل:

- *هاي وصل أشطر واحد فينا!*

وسحبت له كرسياً لتجلسه بجانبها، وكأن شيئاً لم يكن، لم تبد عليها أية آثار لأي حدث جلل، كانت طبيعيةً جداً، مرحةً جداً، مليئة بالطاقة جداً، كانت كما هي دائماً، مثلما عرفها دائماً، كانت سلمى!

أنتغير حقاً بتغير الأماكن والرفاق؟ هل تخبئ في كهفها هذا حجارةً للطاقة والسحر تعطيها إيجابيةً تفتقدها في أماكن أخرى؟ هل ألقت تعويذةً على بابها لتسحر العالم من بعد عتبته؟

ألم يكن حدثاً مهماً؟ هل توتر له مراد بما يفوق اللازم؟ أم أنها هي ممثلة بارعة تضع أقنعة تمسح ما خلفها من مشاعر؟ لم يفكر يوماً أن سلمى تملك أقنعة، كان يراها كسطح بركة صافٍ ترى ما فيها من أسماك وطحالب بكل وضوح، هل غطت بركتها؟ هل تكدرت مياهها؟ هل تلوثت بيئتها؟

يفتقر مراد للذكاء الاجتماعي، وإن كانت مواهبه قد تطورت قليلاً خلال الأشهر الماضية بفضل مرشدته، إلا أنه ما زال ضعيفاً في هذا المجال، يشعر الآن أنه غير قادرٍ على قراءة الغرفة بوضوح، فالأحرف المكتوبة تبدو متطايرةً أمامه مشوشة، إنه مرتبك مشوش خجل يشعر بالذنب!

إذا ما عاتبت مذنباً قد يكون من السهل على المذنب استجماع شجاعة كافية للدفاع عن نفسه، ولكنك إذا تركت المذنب دون تقريع وادعيت ألا ذنباً هناك، لن يستطيع صاحب الذنب محوه، إلا إذا كان طبعاً أحمق مصدقاً للادعاء رغم إحساسه!

هل يصدق مراد وجه سلمى الضاحك، هل يصدق الترحيب والمقعد المحفوظ بجانبها، هل يصدق ألا ذنباً عليه؟ لماذا إذن كل هذا القلق الذي يغزوه؟

كانت زينة من ضمن الحضور، ولم يكن أمجد، فأمجد الآن في بلاد الشمال يدرس علوم الطب بلغة سلافية غريبة، أما زينة فلم تدرس الإدارة ولا الاقتصاد، زينة واجهت وحشاً لا يحسب أية أهمية لميولها أو اختياراتها، بل يهتم بالعناوين الكبرى، رفض أبوها فكرة كلية تقع على يسار برج الساعة في الجامعة، وأصر على أن تنتمي لواحدة من تلك الكليات المنعزلة في الجزء الجنوبي منها، لو عرفت أن ذلك مصيرها كانت ستعمد إلى إخفاض معدلها في الثانوية حتى لا تسمح لهذه الكليات رفيعة المستوى اقتحام عالمها.

في معركة العناوين وجدت كلية الصيدلة أقرب ما يمكن لرغباتها، فربما تنتهي بالعمل كإدارية في مستودع للأدوية! كان نظام التعليم الموازي استحدث قريباً، كأنما وجد خصيصاً لوالدها ليزج ابنته في هذه الجامعة بالذات وفي هذه الكلية!

هي ذات الجامعة الكبيرة التي دخلها مراد وسلمى، وكانت كليتها قريبة من كليتهما، ولكن الصيدلة ليست كالهندسة، لأمر ما طلابها دائمو التواجد في كل مكان، لهم حضور واضح، يبدون كجسر يربط العوالم بين وسط الجامعة وجنوبها، فلا تنكر عليهم إنسانيتهم وبذات الوقت لا ينكر عليهم اللمعان! لم يكن قد زال عن الصيدلة ذاك البريق، فالصيدلاني كان مقاماً كما الطبيب لا يقل عنه! أو على الأقل لا يقل كثيراً! ولكن الصيدلاني أقرب للحقيقة منه للخيال، فيجعل له ذلك كرسياً مسحوباً للجلوس على موائد العامة، على رأس المائدة نعم، ولكنه مع الناس ليس

غريباً عنهم، ليس جزءاً من قصص الخيال المروية عن دم أزرق يجلس على العرش كما يروى عن الأطباء، بل دمه أحمر، مقدس قليلاً ولكنه أحمر، يمتصه البعوض، ويسيل ويتخثر، دم إنساني طبيعي ذو لمعان جميل!

زينة ملائمة للصيدلة، جميلة اجتماعية رقيقة، تعرف من أين تؤكل الكتف، دبلوماسية محنكة، تعرف متى تظهر مخالبها، ومتى تسحبها، ليبقى كف قطة رقيق ساحر، تعرف الأدوار المجتمعية، وتعرف كيف تتغير الأدوار ليلاً وخلف الستار! تملك من الذكاء الاجتماعي ما يفوق ما يملكه أصدقاؤها، تستطيع قراءة الأجواء والغرف والوجوه!

زينة صديقة سلمى الصدوقة، صديقة الطفولة التي باختلافها عنها زادت جاذبيتها، هي مرجع العلاقات والصدامات العاطفية، هي بئر الأسرار، ومراد يعرف ذلك حق المعرفة! إن تطور مهاراته الاجتماعية دفعه للبحث عن إجابات في وجه زينة بدلاً من وجه سلمى، لن ترتدي زينة أقنعة تحميه بها، سيكون وجهها أسهل للقراءة من تلك الطلاسم التي غطت وجه الأخرى، فتوجه إليها بالسؤال:

- *سمعت انك دخلتي صيدلة!*
- *طلعت بتسمع؟*

أخرجت مخالبها إذن؟ لكن سلمى التي خافت أن تجرح تلك المخالب صاحبها تدخلت:

- ***زينة عنا بالجامعة! انا بشوفها تقريبا كل يوم، بس انت مراد غالباً مشغول يمكن مشان هيك ما بتشوفها!***

بدا أن في فم زينة كلاماً ابتلعته إرضاءً لصاحبتها التي غمزتها لتسكت، كان الحال واضحاً حتى لأحمق كمراد! أكملت سلمى الحديث لتمدح إنجاز (أشطر واحد فيهم) الاجتماعي:

- ***صراحة مراد عنا بالكلية الو كتير شعبية، الكل بلف حواليه، فازا صحلي انا احكي معه بكون نزلت علي البركات من السما!***

ابتسمت ابتسامةً خجلة بعض الشيء أغاظت صديقتها، انقضت زينة مرة أخرى:

- ***غريب مراد اله كل هالشعبية وسلمى بتقضي كل وقتها معي أنا!***
- ***عشان انا بحب أكون معك!***

ردت سلمى دون تفكير محاولةً إنكار اتهام لم يوجه إليها. فوجهت زينة كلامها إلى مراد ساخرة:

- ***شفت سيد مراد، بتحب تكون معي مو معك!***

يبدو أن زينة تعرف خطة مراد السابقة بالبقاء قريباً من سلمى، يبدو أنها تعرف أن مراداً إنما متطفل على العمارة بتطفله

على سلمى، ويبدو أنها تشعر أن سلمى قد انتقص حقها عندما أخذ مراد الصيت والشعبية، ويبدو أن مراداً نفسه يشعر الآن بتملكه لموقع لم يكن حقه، كأنه سرق مكانة صاحبته دون إدراك، لكن هناك عنداً صبيانياً أحمق يتحكم به، يجعله يرفض الفكرة، ويجعله يغضب إذا ما اعتنق أحد غيره ذات الفكرة، زينة هذه خطيرة، تعرف ما لا يحق لها أن تعرف. استجمع مراد ابتسامة ساخرة كابتسامة زينة وقال:

- ***سلمى قد حالها، وبتعرف شو بدها، فازا بدها تقضي وقتها معك مين انا لامنعها؟***

تحولت ابتسامة زينة لطيف اشمئزاز:

- ***بتعرفي سلمى، لو امجد معانا... الصراحة أتاري امجد كان جنة!***

لا يعرف لماذا ضربت سيرة أمجد أوتاره كلها مرة واحدة، هو يعرف أن أمجد مجرد أخ بالنسبة لسلمى، ولكنه يعرف أيضاً أن ما من أحد بين رفاقهم كان داعماً لسلمى مثله، لو كان أمجد موجوداً وسمع بما حصل... لو كان أمجد واقفاً عندما حصل ما حصل... لم تكن أجنحة التنين لتنبت على ظهرها!

- ***زينة، انا فخورة بمراد، كتير بحب أشوف الناس بدها تضل حواليه وبتحبه وبتحترمه، بحسه عامل زي (البوكيمون) بيتطور وبصير أحسن.***

قالت سلمى ذلك بضحكة صغيرة بريئة تنهي بها معركة أرادت صاحبتها شنها.

محاولاتها في الدفاع عنه مؤلمة، يشعرها صادقةً بفخرها، كأم ترى ابنها يخطو خطواته الأولى، ويشعرها كاذبةً أيضاً، كأنها تتهمه بسرقة أضوائها، هو لم يسرق أضواءها، ما ذنبه إن كانت هي أطفأت أشعتها وقواها المغناطيسية؟ ما ذنبه إن كانت ترددات موجات الجامعة لا تتزامن مع ترددداتها؟ أمسؤول هو عن إعادة ضبط موجاتها؟

سحبت سلمى زينة من يدها وأخذتها معها إلى المطبخ بحجة حاجتها للمساعدة، كان هو عادةً المسحوب في هذه الجلسات، لكنها اليوم ارتأت أن تجعله ضيفاً مرتاحاً في مقعده، لا صاحب دار يقف في مطبخه. ربما كان عليه أن يخترق اليد الساحبة واليد المسحوبة لتقع قوى الشد عليه لا على زينة، ربما كان يجب أن يعرض مساعدته ويرافقها إلى مطبخها، ربما كان يجب عليه أن يرفض عزله ويرفض دوره كضيف... ربما، ربما، ربما... حفظ مراد جلسته ولم يعدلها، قرر أن يترك للصديقتين فرصة للاختلاء، وإن كان المطبخ في الحقيقة جزءاً غير منفصل عن صالة الجلوس، فلم يكن ذلك اختلاءً حقاً.

انتهت سهام زينة، لم تطلق أي سهم آخر عليه، عادت الجلسة إلى سلامها، وعاد الرفاق كما كانوا سابقاً يتمازحون ويستذكرون طرائفهم، ولم تفقد سلمى ابتسامتها ولا حيويتها، لم

يتغير عليها شيء، كان هو فقط من غطته غيمة سوداء بلا أمطار، غيمة لا معنى لها سوى إضفاء كآبة تحجب فيها الشمس.

لا بأس سيحاول إزاحة الغيمة عن رأسه، سينفخ عليها قليلاً، وإن لم يستطع سيجعلها تمطر، يجب أن تزاح الغيمة، سينتظر حتى يرحل الجميع، سيكلمها وحدها بعيداً عن مخالب صاحبتها، وسيزيح الغيمة!

بدأ الرفاق بالرحيل واحداً تلو الآخر، وكانت زينة عنيدةً، كأنها لا تريد أن تترك له مجالاً للإصلاح، وجد نفسه ينظر إليها متوسلاً أن تدعه وشأنه، فهمت نظراته، ودّعت سلمى وطلبت من مراد ملاقاتها لثوان عند الباب.

- ***اسمع مراد انت عزيزعلي، بس مو بمعزة سلمى!***
- ***...***
- ***ما تكون غبي!***
- ***كيف يعني؟***
- ***اتزكر دايماً مين سلمى!***
- ***اتزكر؟***
- ***انت عم تنسى...***
- ***زينة انا ما بعرف انتي شو فاهمة، بس سلمى ...***
- ***سلمى زي النرجس، ازا شفتها مفتحة بتحس الدنيا كلها فتحت، بس بكل سهولة بتذبل وبتختفي...***
- ***ابدا سلمى مو هيك! سلمى تنين!***

- ***مش بقولك لا تكون غبي! دير بالك عليها قبل ما تذبل وتروح منك!***

تركته زينة مغتاظاً تائهاً بهواجسه، هل هو حقاً غبي؟ حسناً لن يكون غبياً، عاد إلى الداخل وعرض على صاحبته مساعدةً في تنظيف ما بقي بعد الرفاق، لملم معها ما بقي من كاسات وصحون هنا وهناك، وضعها في المجلى وجلس إلى الطاولة.

- ***ما حتجلي معي؟***
- ***لا ، ما بدي!***
- ***شو استفدت منك اذن؟***
- ***بسليكي؟***
- ***اه شكرا جزيلا معاليك.***
- ***العفو.***

ألقت عليه بشكيراً صغيراً كان على كتفها مغتاظة، تظاهر بالألم ثم ضحك...

- ***سلمى انتي زعلانة مني؟***
- ***لا ليش ازعل؟***
- ***زينة...***
- ***زينة مجنونة بتحلل لحالها، بس صراحة... انا احياناً بشتاقلك، صرت احسك بعيد!***
- ***انت بتشوفيني كل يوم!***
- ***انت بتشوفني كفاية؟***

- ***انا بقعد مع الشباب بس شكلك ما بتحبهم!***
- ***مراد، الشباب هم اللي ما بحبوني!***
- ***يمكن بشوفوكي unreachable؟***
- ***مهو لما اصير reachable شوي بيطلعلي واحد غبي زي ناصر!***
- ***معك حق، ما تكوني reachable، يحترقوا كلهم! قوليلي شو بدك اعمل وانا تحت امرك!***
- ***ما بدي تعمل شي...***
- ***ما فهمت! مش قلتي انك بتحسيني بعيد؟***
- ***انسى اللي قلته، انا بس صايرة عاطفية شوي! بتقدر تقول كرهانة الجامعة والناس...***

أقنعة جديدة تغطي وجهها، ما يلبث أن ينزلق أحدها حتى تضع قناعاً جديداً، لا يفهمها، لا يقرؤها، لا يعرفها!

لم يدرك مراد حينها أن بعض الأمور لا تطلب، وأن بعض الأسئلة لا تجاوب، وأن بعض المشاعر لا تجتر، أقنع نفسه أنه عمل ما كان عليه عمله رغم إحساسٍ عميق بشيء ناقص، أقنع نفسه أنه أزاح الغيمة ولكن أشعة الشمس لم تصله، أقنع نفسه أن كل شيء تمام، وكل شيء في الحقيقة ناقص!

# (١٢)
# موديل للرسم

أحياناً لا ندرك مقدار الشوق الذي يتملكنا إلا بعد اللقاء، تلتقي بأحدٍ كنت قد تناسيت وجوده أو أنكرته، فتفيض ذاكرتك، ويفيض قلبك، وتغرق في أشواق تقطع الأنفاس، ولا تعرف حقاً كيف كنت جاهلاً أو غافلاً أو ربما أحمق.

تحسد نسختك المراهقة سريعة الانفعال، تذكر كيف كانت مشاعرك غالبةً لا مغلوبة، تذكر كيف كان يطغى الشوق على قلبك بعد غيابٍ قصير، تذكر ذلك الخوف الذي كان يسبق الغياب، تذكر الألم الحقيقي الذي كان يعتصر صدرك لمجرد فكرة البعد، تذكر تعلقك برنة هاتف، بإيميل، برسالة، بأي شيء يخبرك أن البعد لن يطول، وأن الأنفاس قريباً ستعود.

لكنك عندما كبرت سيطرت على قلبك أكثر، صار بإمكانك رمي دثارٍ على تلك المشاعر المزعجة، تغطيها وتدعي أنها ليست موجودة، تلفها وتغلفها وتضعها في صندوق تغلقه باللاصق والأقفال وتلقيه في سرداب معتم في قاع عقلك، وتقول نسيت!

في الحقيقة لم تنس، في الصندوق نبض، إيقاع بعيد من (lub-dub... lub-dub) تتخلله أحياناً أصوات أخرى لنقرة جديدة أو خرخرة، تشعر به يأتيك من بعيد، يقض مضجعك أحياناً، يقلق نومك أحياناً، يؤنس عزلتك أحياناً، ولكنك تصر أنك لا

تسمع ذلك الصوت، أو تنكر مصدره، وتكمل مسيرتك كل يوم كما أنت معتاد دونما قلق ودونما شوق، كامل الأنفاس، مرتاح الصدر!

عند اللقاء يحدث تسريب مفاجئ للضغط في ذلك الصندوق المقفل، فينفجر ويفيض حمماً، ويلقي وابلاً من حجارةٍ بركانيةٍ ودخان على عقل صاحبه، يحجب الشمس، ويعكر الرؤية، وتزحف الحمم لتحرق ما في طريقها وصولاً إلى القلب، تقف أمام بوابته، تطرقها بإيقاعٍ متسارع، تأمرها: أن افتحي! وإذا تأخر الفتح يزيد الطرق سرعة وقوة، إلى أن تنهار البوابات على رؤوس المطارق، ويدخل الغزاة المدينة المحصنة، وتخترق الحمم القلب فتصهره وتحرقه وتعيد تشكيله.

ذلك التعقل الذي تضيفه السنوات إلى مشاعرنا ما هو إلا جريمة سندفع ثمنها يوماً احتراقاً وانصهاراً وفيضانات.

كوب شايٍ في يده تطغى رائحة النعناع عليه، وضحكة معدية، وليل ذو سماء صافية ملآى بالنجوم، وشعور بالراحة بعد سيل العيون، استطاع مراد أن يملأ صدره هواء نقياً أنعش روحه، هدّأ نار قلبه وبراكين عقله، رفع راية الاستسلام، وأوقف المقاومة!

كانت سلمى تراقبه يرتشف من كوبه، ترى البخار يتكاثف قليلاً على عدسات نظارته، تعد أنفاسه وتتأكد من دخولها إلى صدره، وتنتبه لذلك الشهيق الذي يأخذه بين الفينة والأخرى من أنفه يملأ به صدره، فتتحرك عظام ترقوته إلى الأعلى قليلاً، وقالت له حالمة:

- *بتعرف إنك حلو؟*

ضحك مراد لذلك التعليق المفاجئ، خاصة أنه أدرك أنها قالته دون وعي منها، كانت قد بدت عليها علامات ندم تلحق جملة لم يقصد بها أن تخرج للعلن، كان ذلك التساؤل مخططاً ليبقى في عقلها، لكنها قاومت خجلاً سيطغى عليها، وبعناد طفلة قالت:

- *حلو آه، بتنفع موديل نرسمك!*
- *في وضعية بتفضليها اعملها مشان الرسم؟*

شعر مراد نفسه تلح عليه أن يعذب رفيقته قليلاً، أن يغيظها قليلاً، أن يرى بعض الضيق على وجهها، بعض الخجل ربما، بعض التردد، فأكمل:

- *في لبس معين؟ ولا من دون أحسن؟*

تظاهر بمحاولة خلع القميص القطني الذي يغطي جذعه، نظرت إليه سلمى بمكر عنيد، كأنها تريد إحباط محاولته بتلوين وجهها بلون الخجل:

- *من دون.*

ركزت عينيها في عينيه بنظرة يملؤها تحدٍ لا مسوغ له الآن، وترته قليلاً، كركبته، أتعتقده ذات الصبي الخجول؟ كبر الصبي وأصبح رجلاً، ألا تخاف غرائز رجل يجالسها يملؤه الحنين؟

- *مجنونة انتي!*

- ***لا؟ ليش؟ أنا فنانة بس!***

تغيظه، تتحداه، وتثيره جداً! وقف من جلسته واقترب منها، حنى رأسه باتجاهها ونظر في عينيها، وبصوت منخفض عميق قال لها: ***(متأكدة؟)***

أزاحت وجهها سريعاً عن وجهه، كردة فعل لا إرادية، تلعثمت واحمرت وألقت عينيها أرضاً هرباً منه، ورغم لذة ملأته، شعر نفسه غريباً، لم يعرف أنه يملك تلك الجرأة، وربما لم يعرف أيضاً أن جرأته هذه توتره هو أيضاً، فيخاف أن يفقد سيطرته على ما اعتقد أنه كامل السيطرة عليه، فمن أمامه الآن هي سلمى، هي مشاعره المكبوتة الضائعة المراهقة، هي محركة الهرمونات الأولى، هي كاشفة الغرائز، هي قنبلته التي ربطها حول صدره تتكتك معلنة قرب الانفجار، تراجع كمن عاد إلى وعيه:

- ***اسف!***
- ***كان ممكن تنضرب عفكرة!***

قالت ذلك غاضبة غضباً مضحكاً، برمت فمها وعبست بشكل مصطنع، فابتسم لها:

- ***حقك! مرة تانية انا اسف! بس صراحة انتي كمان مجنونة!***
- ***انت اللي بتجاكرني!***
- ***انتي عنيدة ومبطلة تعرفي تقرئي الغرفة!***

- *احنا قاعدين برا مو بالغرفة، كيف اقراها؟*
- *بتستهبلي؟*
- *آه!*
- *ما كبرتي؟*

قطع حديثه كلبها (كوسا) الذي ربما شعر بخطر على سيدته، أو غيرة، قفز على المصطبة بجانبها مبعداً مراداً من مكان وقوفه، تمدد بجانبها، ووضع رأسه على فخذها، وزع بضع نظرات على مراد، شعرها مراد تحذيراً يمنعه الاقتراب، ثم أغمض الوحش عينيه وتظاهر بالنوم.

بان الانزعاج على وجه مراد، كأنه يتذمر من وجود كوسا، كأنه يحسده، أو ربما يغار منه، وزاد من غيظه تربيت سلمى على رأس الكلب ومداعبتها إياه، وكانت كأنها هي تريد إغاظته أكثر فتكلم كلبها بصوت دلال كما الصوت المستخدم لتدليل الأطفال.

- *يعني مبسوطة كتيرانتي بالسيد كوسا حاطط راسه عحضنك؟*
- *اه!*
- *تتهنوا ببعض!*
- *كوسا اله معي خمس سنين، دايماً بلاقيه لما بدي ياه، واقف معي، وبحبني! طبعا نتهنى ببعض! في غيره ما بيتزكرني!*

كأنها تعاتبه، كأنها تقول له أن كلبها أوفى منه، أن كلبها يستحق حبها وهو لا يستحق، لم تقل ذلك، ولكن صاحب الذنب يحسس على ذنبه عند كل ذكر! وهو الآن يشعر بذنب يأكله، تجاهها وتجاه نفسه!

- *سلمى انا ما نسيتك!*

ظهرت علامة تعجب كبيرة على وجهها، كأنها لم تفهم ما قال، لكن تصريحه هذا بعدم نسيانها يفتقد الأدلة، يدفعها لدحضه وإنكاره، لكنها مرة أخرى آثرت الصمت على بث التهم، صمتها مزعج، ادعاؤها ألا مشكلة بينهما مؤلم، إنكارها للخلاف كأنه يؤكد ألا أهمية لمراد لديها، فتتغاضى عما يزعجها لأنه ليس مهماً، كأنه لا أثر له عليها!

- *ليش ما بتعبري؟ ليش ما بتزعلي؟ صرخي علي انا قابل، سبّيني ما رح ازعل، بس عبري، قوليلي اني زعلتك، قوليلي انك متضايقة، قولي انك بتكرهيني، بس ما تعملي انه الأمور تمام وبعدنا متل ما احنا!*

بدت كمن يحضر نفسه لمعركة، أخذت نفساً عميقاً، اختلفت ملامح وجهها، ملأه الأسى والحسرة، أزاحت غرتها عن عينيها كأنها تدعوه للتدقيق فيهما عساه يقرأ ما اختبأ في القعر، وبهدوء وبصوت خالٍ من التردد قالت له:

- *بتعرف متى آخر مرة قعدت تحكي معي؟*
- *لما قلتلك اني بدي اخطب هبه!*
- *من عشرين سنة يا مراد! آخر مرة حكيت معي فيها! يومها سالتك: متاكد؟*
- *قلتلك: اه، هبة هي انسب حدا الي! وقلتيلي اعيد حساباتي، هبة ما بتناسبني!*
- *انت زعلت مني وقمت، وما رجعت حكيت!*
- *ولا انتي حكيتي!*
- *انت ما كنت بدك تسمع!*
- *انتي ما سمّعتيني!*
- *انا الغلطانة؟*
- *لا! انا كنت... انا اللي... انا تيس!*
- *صح انت تيس!*

جلس بجانبها، وتناول يدها في يده، ثم قربها إلى فمه وقبلها:

- *حقك علي!*

سحبت يدها من يده، كأن القبلة لم تكن لها، كأنها قد قررت الآن أن تشن هجومها، كأنها لن تسامح!

- *طيب احكيلي..*
- *شو احكيلك؟*
- *احكيلي ليش ضايع؟*
- *ما بعرف! كانت اموري تمام، بس شفتك...*

- *برضوا انا السبب؟*

أراد أن يقول لها أنها كل الأسباب، هي سبب قلقه وخوفه وتلعثمه، هي سبب ضغطه وألمه وشوقه، هي النبض الذي أرق نومه، هي الطرق على الأبواب قض مضاجعه، هي كل الأسباب.

- *كان معك حق! كنتي بتعرفي اكترمني...*
- *قصدك عن هبة؟*
- *آه...*
- *حبيتها؟*
- *ما اظن! لا ما حبيتها.*
- *طب عمرك حبيت حدا؟*
- *اه! بس اللي حبيتها ما حبتني... هبة كانت بتحبني! كان في غيرها، وكنت دايماً ارفض، ولما تعرفت ع هبة كنت بوقت بقول فيه لحالي: انت مفكر حالك لقطة يعني!*
- *قمت أقنعت حالك انه هي الحل؟ وقررت تثبت لحالك انك بتقدر تفوت بعلاقة تستمر فيها!*
- *اه، وفكرت اني بالاخر رح احبها!*
- *وما حبيتها!*
- *سلمى آخر كم سنة كنت مخنوق، مضغوط، ما بعرف انام!*

- *انت ما بتتحمل ضغط! انت شوية توتر بتمرضك! كيف تحملت؟*
- *لا ما بتحمل، فعلاً بمرض!*
- *كويس انك اخدت القرار مراد!*
- *لما قلتلها انه بدي ننفصل صارت تبكي، كنت رح اتراجع، كنت بفكر اني اناني! شو يعني انضغط شوي؟ شو يعني ما بحبها؟ شو يعني ... بس بعدين سالتها ازا كانت هي مبسوطة معي، لما فكرت شوي قالتلي انها مو مبسوطة، وانها بتعرف اني ما بحبها، وشوفتها الي من دون مشاعر بتخنقها! اظن انها هي اللي اقتنعت انه الانفصال ضروري!*
- *يعني لو ما اقتنعت كنت حتضل بنفس الضغط؟*
- *...*
- *على فكرة مراد، انت غبي!*
- *شكراً!*
- *انت فعلاً لقطة...*

لم تسأله سلمى عن تلك التي أحبها ولم تبادله المشاعر، كأنها عرفتها، أو كأنها أنكرتها، تعرفه هي... سلمى كانت تعرفه أكثر ربما من معرفته لنفسه، تعرف كيف يتعامل مع ضغوطاته، تعرف ماذا يلائمه، تعرف ماذا يحب! ألم تعرف حقاً من تلك التي أحبها؟

أراد أن يسألها، أراد أن يسمع منها، أراد لو قالت له لماذا لم تحبه هي؟

# (١٣)
# رحلة إلى المطار

بدأت سلمى رحلة التطور إلى تنين، تنين جمع أساطير الأرض من شرقها إلى شمالها وغربها، فهي كتنين الصين عظيمة، نسلها أباطرة وعظام مقدسة، تملك الحكمة والسحر والجلالة، وكتنين الشمال والغرب متوحشة وقاسية، تنفث النيران تحرق بها مدناً، تملك أجنحة تطير بها إلى عوالم خفية في أعالي قمم مجهولة، تختفي فيها في كهوفها، تحرس كنوزاً لا حاجة لها بها!

كيف تفقس بيضة تنين في عالم خلا منها؟ عبر الدم والنار ربما! تُسال الدماء وتُحرق على قشور البيضة، فيخرج التنين منها عطشاً للمزيد من الدماء وللمزيد من النيران.

قررت سلمى أن تزيل القشرة الحامية لها، حرقتها وخرجت بأجنحتها، خرجت كائناً ساحراً مقدساً، ذا هالةٍ طاغية، وقوة تُرضخ كل ما حولها، وتعالٍ قاسٍ يبيد من يقف في طريقها! لكنها كما في أساطير الشرق تقف حارسةً وحاميةً لنسلها، تؤكد حقهم في اعتلاء العروش، وتمنع الشرور عنهم.

يبدو أنها قررت ترويض بيئتها الجديدة لتتلاءم معها، بدلاً من أن تروضها البيئة! لتنين سلمى سلطة وجبروت، تُحنى له الرؤوس وتُثنى له الركب! ما عادت سلمى حبيسة العمارة، بل مروضتها، لا تحكمها ولكنها تحدد الحَكَم!

السر في الثقة، تلك الثقة -التي ملأت بها كؤوسها حتى فاضت- جعلت كل ما تفعله قانوناً، فالثقة تحول الفعل الشائن إلى فعل بطولة، تحول الوقاحة إلى قوة، تحول الإقصاء إلى تميز! إن الخوف مما يعتقده الآخرون هو قيد حطمته أجنحتها، والتصادم مع مبادئهم هو جدار أحرقته نيرانها، فباتت خطوتها ثابتة لها إيقاع هادر، وطلتها ساحرة لها جاذبية آسرة، فيتمنى الجميع قربها ويخاف الجميع نيرانها!

أيصير التنين مع أحبائه قطاً؟ ربما، هل يراه الأحباء قطاً؟ غالباً لا!

كان جالساً بين بعضٍ من رفاقه، اقتحمت جلستهم دون ترددها المعتاد أو وعيها الزائد لتلك النظرات والتعليقات، لكز ناصر الشاب بجانبه ***(شوف مين اجا!)***، فما كان من رفيقه إلا أن صفع مؤخرة رأسه ***(غبي!)***، وتوجهت هي مباشرة إلى مراد دونما اهتمام بالصافع والمصفوع:

- ***مراد بدي ياك شوي...***

قفز مراد إليها بين همسات الرفاق وتشجيعاتهم وعبارات الحسد، فخرج من بينهم كفائز بجائزة لا ينالها إلا عظيم. إن وعيه الزائد بهالتها يضيف إلى حماقته المرتبكة حماقة، ويضيف إليه بعض الغرور، وبعض الغيرة، عليها ومنها! أحرف الجر وظروف المكان والزمان ازدادت في علاقتهما، والتعريفات ازدادت إبهاماً.

أخبرته أنها تريده مرافقاً لها برحلة إلى المطار، فأمجد عائد في إجازة، تريد استقباله بعد وعد قطعته لأهله أنها ستكون توصيلته من المطار إلى البيت.

- ***بدك ياني مرافق ولا شوفير؟***
- ***الجهتين؟***
- ***طيب بكون عندك على ٦، بس بدي أجرتي!***
- ***ما بكفيك أجرة اني رح اطلع معك؟***
- ***لا طبعاً! بدي اشي ملموس...***
- ***كاسة قهوة بالمطار؟***
- ***فكري اكتر!***
- ***على فكرة عادي بعرف اروح لحالي...***
- ***يا سلام؟ خلص راحت عليكي، صرتي حاجزة السيارة، ازا لغيتي الحجز بتدفعي برضو غرامة!***

ضحكت للمعة الخبث في عينيه، ووعدته بأجرة تشابه خباثته، ولم تعرف أن وعدها هذا أثار في خياله ما لا تتخيله هي!

في الحقيقة فكرة ذهابه معها في رحلة إلى المطار، في سيارته، وحدهما، تفوق ما يحتاجه من أجرة، فكرة تمثيل مشهد من فيلم رومانسي أخرق، يدعي فيه أنه أصبح الآن رجلاً يقود سيارته لا مجرد صبي معجب، يدعي أنه يقوم معها بمعروف، فكرة أنه سينتظرها أمام باب منزلها لتنزل إليه بعد أن يطلق الزامور، يطلقه وهو واقف بجانب السيارة لا فيها، يمد يده من خلال الشباك

ليضغط على عجلة القيادة بتكبر مصطنع كمن يستعرض أملاكه الثمينة، فيراها تخرج راكضة إليه، تحاول ترتيب شعرها بيدها، وتدخل قدمها في حزام صندلها، كمن تخاف أن تجعله ينتظر لحظات أخرى فاستعجلت لتكمل جاهزيتها على الطريق!

في الواقع كانت تنتظره أمام بيتها، لم يطلق الزامور، ولم يراقبها تكمل ترتيب هيئتها، أراد أن ينزل من السيارة ليفتح لها الباب كرجل مهذب، لكنها فتحت الباب لنفسها قبل أن يتمكن من النزول.

كان واضحاً عليها أنها بذلت مجهوداً زائداً في تجميل نفسها، كان شعرها مسرحاً مفروداً على كتفيها، لونت جفنيها بلون ترابي فيه بعض حمرة، ورسمت خطاً أسود يكمل رسم عينيها، وأحمر الخدود وأحمر الشفاه ورائحة عطر ملأت السيارة ورود وياسمين، وعنق طويلة تكمل انحناء الذقن بانسياب، تظهر فيها خطوط عضلة مائلة تقطعها من أعلى وصلاً إلى عظمة ترقوة تظهر من قبة القميص المفتوحة بلامبالاة، وثنيات ممتلئة تحت القميص الضيق...

ابتلع ريقه وألهى نفسه بمرآته الجانبية يدعي تعديل رؤيتها، كان في خياله أنه سيمد يده من أمامها ليربط لها حزام الأمان، لكنه عرف أن هرموناته تسيطر عليه، فتراجع متعقلاً حاسباً المدة التي سيقضيها يستنشق عطرها، ويستمع إلى أنفاسها تعبر صدرها.

ولكن ما سر محاولة التجمل اليوم؟ أتتجمل للقاء أمجد؟ أتريد أن تبدي له أنوثتها؟ أتريد إعجابه؟ اختنق مراد بأفكاره، وقبل أن يرد سلامها سألها:

- *ليش المكياج؟*
- *موحلو؟*
- *وريحة عطرك قوية، معلش رح افتح الشباك!*
- *كمان العطر موحلو؟*
- *...*
- *أصلا شو فهمك انت؟ انا هيك عاجبني!*
- *بس انا موعاجبني...*
- *ييبي! شو أعملك ازا كانت عينيك خربانة!*
- *مصيبة ازا عيون الناس بتشوف زي عيوني...*
- *في حدا عاقل بالدنيا بيحكي لبنت زي القمر انها مو عاجبته؟*
- *مين اللي زي القمر؟*
- *انا!*
- *ابدا موقمر!*
- *آخر مرة بطلع معك! صحيح انك ...*
- *اني شو؟ كملها؟ اتزكري انك طالعة معي... بالطريق أي شي ممكن يصير!*
- *صحيح انك احسن واحد!*
- *شاطرة!*

مراد مع سلمى مختلف عن مراد مع الآخرين، معها لا يبدو الشاب المثقف النجيب، بل يبدو ألعباناً ماكراً، يستمتع بمناكفتها وإغضابها، ولكنه بين الفينة والأخرى يظهر جانباً رقيقاً منه أيضاً، فتفلت منه بعض التصريحات المادحة اللطيفة، وبعض تلميحات الإعجاب، ويبدو أن سلمى كانت تدرك أن لمراد صورة لا تعرفها إلا هي، ويبدو أنها تدرك أن أطلانطس المختبئة لا تفتح أبوابها إلا لها، فلم تكن تغضب من استفزازاته، ولا كانت تختل موازينها من لطفه ورقته، فإذا ذمها ببساطة ردت إليه الذم، وإذا مدحها وافقته على رأيه!

في المطار وصل أمجد، لوحت له سلمى وركضت إليه كطفلة، أشرق وجه أمجد لرؤيتها، واختنق مراد من ذراع يمنى قوية لفها أمجد حول كتفها، وقبلة طبعها على رأسها وياء ملكية أضافها الى اسم ناداها به (سلومتي!).

أفلت أمجد أسر سلمى ومد يده لمراد فعانق الإبهام الإبهام، وعانقت الأصابع الكف، وشدت عضلات اليد القبضة لتزيد من حرارة السلام، ثم لم يعرف كيف سحبه إليه ليكمل نصف عناق يدل على شوق يشابه شوقه إلى (سلومته)، خفف نصف العناق من اختناق مراد قليلاً، قلل من إحساسه بالتهديد، وأرخى قليلاً توتره.

تناول مراد واحدةً من الحقيبتين الواقفتين بجانب أمجد، ومشى بجانبه، فلفت يمنى أمجد خلف ظهر مراد لتضغط على كتفه الأيمن بحرارة:

- ***بتعرفوا والله اشتقتلكو كتير! كيف سلمى معك؟ مغلبتك متل العادة؟***
- ***هي أصلاً كلها غلبة!***
- ***عم تدير بالك عليها صح؟***

سؤاله كان كتحسيس على ذنب مراد، كاتهام، شعر مراد ببعض الخجل، لم يعرف كيف يجيب، هل يعتني هو بسلمى حقاً؟ ولماذا يعتقد رفاقهم أن عليه الاعتناء بها؟ ألا يعرفونها؟ هي لا تحتاج عناية، وإذا ما طلبت في يوم مساعدة يكون طلبها حجة فقط لتريح نفسها من مهمة أو لتمضية وقت مسل.

أسرعت سلمى تجيب أمجد بدلاً منه:

- ***هيني شغلته عندي شوفير!***
- ***حليانة يا بنت، هيك الجامعة بتسوي؟***

قال لها أمجد مبتسماً. فرمقت مراداً -الذي تظاهر بعدم سماع تعليق أمجد- بشرر عينيها وقالت:

- ***سامع يا سيد مراد الناس الفهمانة؟ سامع قال اني حلوة!***

- ***ما قال حلوة، قال حليانة، يعني ممكن تكوني بشعة بس اقل بشاعة من اول!***

دونما حساب لكمته سلمى على ذراعه، بقوة يستغرب أنها تملكها، آلمته حقاً... نظر إليه أمجد مشفقاً:

- ***بتوجع صح؟ نفسي افهم وحدة بحجمها من وينلها هيك ضربة قوية؟ المصيبة انك بتخاف ازا رديتلها ياها تكسرفيها شي!***

حول مراد نظره إليها، متخيلاً سداد لكمتها، لكنه فعلاً شعر أنها ضئيلة جداً على قبضة يده، فتنازل عن فكرة العنف، واستبدلها بإشارة بيده وعينيه أنه يخطط للانتقام القريب.

لم تبال هي بتحذيره ووعيده، بدت الثقة في عينيها، ثقة أنه لن يقوى على إيذائها، ثقة أنها بأمان معه.

بعض الثقة ثقيلة على كاهله، حملها موجع، عبؤها كبير، وقواه تخور. هي تثق أنه لن يفعل شيئاً سيئاً لها، وأمجد يثق أنه يعتني بها، ورفاقه الجدد يثقون أنه قادر على الاستيلاء على قلبها، ولا يملك هو الثقة بأي مما ذكر، لا يثق بقلبه ولا بقوته ولا بعنايته، لا يثق بنفسه معها!

هي الأمانة رفضت الجبال حملها، وليس هو جهولا! إن مشاعر المراهق تفوق قواه، وإن قلبه لا يتفق مع عقله، وإن عقله مخربط البرامج، وهو ببساطة ضائع بين أطرافه كل تسحب في اتجاه.

يدفعه قلبه ليتعلم رقصة ذكر عصفور استوائي يحاول إغواء أنثاه، وعقله يرفض الرقص على ألحان تطربها، فيرف جناحه الأيمن ليرقص ويرف الأيسر ليهرب، ويفقد الإيقاع!

ما أعظم خوفه من خيبة في الأمل، خيبة أملها وخيبة أمله، فماذا لو لم يكن هو من تريده أن يكون؟ وماذا لو لم تكن هي من يريد؟ ماذا لو كانت كل الإشارات كاذبة، وعلامات الطريق مبهمة، والأفخاخ نصبت لتصطاده يقع فيها على رؤوس سهام مدببة؟

صغير هو، ضعيف، يحتاج وقتاً ليكبر، يحتاج عمراً ليقوى، والثقة ترمى عليه وهو خائف من خذلها! نعم يعرف أنه الآن مغرم، ولكنه لا يعرف ماذا يفعل بالغرام...

صاحبنا ما زال طفلاً، صاحبنا ما زال لا يعرف أن الثقة يحملها طرفاها، عبؤها على الواثق كعبئها على الموثوق، لا يعرف أن الحب يسأل عنه اثنان، يتشاركه اثنان، يقومه اثنان، لا يعرف أن الأمانة ليست عليه وحده...

# (١٤)
# سحور رسالة

تعلم مراد الهروب أحياناً من الرفاق، وجد نفسه محتاجاً لبضع لحظات من عزلة، لكن جامعة ممتلئة بالطلاب ليست مكاناً تسهل فيه العزلة! كان الحل في المكتبة!

لم يجد مكاناً منزوياً في المكتبة يختبئ فيه، ولم تُلق تعويذات على بوابتها تخفي روادها عن الأعين، ولم يستعن برداء أو طاقية سحرية تجعله شفافاً، ولم يكن أيضاً هناك كتاب يحركه فيفتح باباً إلى سردابٍ سري لا يعرفه أحد، ليس في المكتبة أي من ذلك، سحرها الوحيد هو (الرجاء الهدوء)! لما كان يمنع إصدار الضجيج في المكتبة كان بإمكانه بكل بساطة أن يدعي مطالعة كتاب ما، أو حتى دونما ادعاء المطالعة، فقط جلوسه داخل المكتبة يمنع رفاقه من التواصل معه!

اكتشف مراد فيما بعد أن هناك من سبقه إلى هذا الهروب، كانت سلمى تفعل ذلك أيضاً، وكان يراقبها أحياناً، فيعرف أنها لا ترتاد المكتبة للمطالعة، قد تكون المطالعة عرضاً جانبياً فقط ليس ضرورياً لوجودها هناك، كانت تضع سماعات في أذنيها تزيد من عزلتها -كأنها تعلمت خدعة السماعات من نسخته في المدرسة- وتجلس هناك تخربش بقلم رصاص عريض على أوراقها تملأ بها أصابعها لوناً أسود كسخام الحطب.

لم يكن هو متقناً كسلمى للعزلة، فكانت هي فعلاً كمن تطفئ كل حواسها عن العالم الخارجي، فلا تعرف شيئاً مما يحيط بها حتى يرن منبه وضعته على هاتفها يخبرها موعد اقتراب محاضرة، فتصحو من غيبوبتها في عالم عجائب من اختراعها، تلملم أغراضها، وتختفي. أما هو فكانت حواسه دائماً حاضرةً بحضورها، لا يعلم إن كانت تعلم بوجوده، ولكنه كان دائماً عالماً بها، كأن لها رائحةً توقظه، أو كأن لأنفاسها صوتاً يعرفه، أو ربما كانت تبعث إليه أمواجاً من هالتها تقول إنها هنا!

ليس من العدل أن يكون لشخص ما هذا الحضور، ليس من العدل أن تراه ولا يراك، ليس من العدل أن تثقل أنفاسه أنفاسك، ولا تؤثر أنفاسك عليه بشيء.

لم تكن موجاتها تؤثر عليه وحده، فكانت على ما يبدو طاغيةً على محيطها، فكان يشهد أحياناً شاباً يضع كتبه على طاولتها ليجلس قبالتها، كان يلحظ تلك النظرات التي يسترقها، وكان يلحظ بعض قصاصات الورق التي كانت تترك لها، لكنها ما كانت تعيرها أي انتباه، فتغدو القصاصات مهجورةً وحيدةً على طاولتها، تنتهي في سلة قمامة لاحقاً.

في مرة تجرأ واحد من الشبان على طلب الحديث معها، طلب منها هامساً أن تلاقيه أمام المكتبة، وجد مراد نفسه يتبعهما مختلساً السمع متلصصاً، قال الشاب أنه يدرس الماجستير في الحقوق، لم تبد أي اهتمام، قال لها إنه يراقبها عادة تكتب في

أوراقها، لم تبد أي اهتمام، قال لها إنه جاد في علاقته، إنه سيدخل البيوت من أبوابها، إنه شريف الغاية بريء النوايا، ولم تبد أي اهتمام، ناولها ورقةً مطبوعة، لم يكن بإمكانها الآن إنكارها كما تفعل عادة مع القصاصات، أخبرها إنها قصيدة كتبها هو عنها ولها، فتحتها لتقرأها أمامه، تلون وجه المسكين بألوان غريبة ما كانت جزءاً من الطيف، كانت الكلمات ركيكةً بعض الشيء، تملؤها الكليشيهات.

بدأت سلمى تقهقه هازئة من القصيدة ومن المشاعر التي ملأتها، وبدأت تكرر بعض المقاطع فيها بسخرية لئيمة، غضب الشاب، وطلب منها أن تتوقف عن الاستهزاء به، لكنها أعادت إليه ورقته وبكل قسوة قالت له أن يبحث عن غيرها، فهي لا تناسبه.

سحقت المسكين كعقب سيجارة محروقة ألقتها على الأرض وداستها بكعب حذاء رفيع ترتديه، سحقت آخر ذرات كبريائه وأحلامه، سحقت كل الرومانسية في خياله، وأدارت له ظهرها قبل ان تحاول أن تلملم أية بقايا من إنسانية كانت يوماً له.

كان مراد يراقب كل ذلك، ورغم كراهيته للشاب المتقرب منها، لم يملك إلا أن يشفق عليه، تخيل نفسه مكانه، تخيل أنه هو من يصارحها بمشاعره، نعم هو لن يكون مبتذلاً كهذا الغريب، لن يستخدم قصيدة ضعيفة للإيقاع بها، لن يبدأ حديثه بنيته الصافية ودخول البيوت من أبوابها، لكن ماذا لو لم يفعل أياً من ذلك ورغماً من ذلك سحقته؟

انتابه رعب غريب من تلك الضئيلة، فلوهلة بدت له كمن تحمل كسارة بندق تهشم بها أعضاء الرجولة، كانت قاسيةً مؤلمةً في قسوتها! لم يكن هناك داعٍ للسخرية من مشاعر ذاك الأحمق غير المدرك لمكانه، لم يكن هناك داعٍ لقهقهة حرقت قلبه وعقله معاً، لم يكن هناك داعٍ لجملة أنهت بها تهشيم آخر شظايا باقية لكبريائه! كانت هالتها سوداء في أطرافها احمرار، كهالة تطغى في ساحة الحرب عند دخول الوحش المقيد بالسلاسل كآخر ملاذ لجيشه، وحش يصعب السيطرة عليه فيقتل كل من في طريقه دون اهتمام بلون الرداء أو رسوم الأعلام!

كم قناعاً ترتدي سلمى؟ ومن هي سلمى الحقيقية؟ بدأ تعدد شخصياتها يكركب أفكاره، بدأت تختل الصور في عقله، لا يمكن أن يملك إنسان كل هذه الوجوه، حتماً منها ما هو مزيف، ماذا لو كانت سلماه هي المزيفة وهذا الوحش هو الحقيقة؟

في وسط انذهاله يبدو أنها لمحته، فأومأت له بابتسامة بريئة وهزة للرأس، كأن شيئاً ما كان، أو كأنها تتأكد أنه رأى وحشها، كأنه تحذير ربما؟

متى عرفت أنه موجود؟ هل عرفت من البداية؟ لماذا لم تطلب مساعدته إذن؟ كان بإمكانها أن تختبئ في ظله وتستخدمه هو لصد المتطفلين الحمقى عنها!

اقتربت منه بمرح لا يلائم الجريمة التي اقترفتها، وطلبت منه ببساطة أن يوصلها اليوم إلى منزلها بسيارته لأنها لأمرٍ ما لم تحضر سيارتها.

لم تكن رحلة السيارة هذه المرة لذيذة كرحلته معها إلى المطار، فكان مرتبكاً خائفاً لا يعرف بماذا يفكر، يبدو أنها لاحظت ذلك عليه، فسألته ببساطة:

- ***شو شاغل بالك؟***

تردد قليلاً في الإجابة وتلعثم...

- ***ولا شي... لا... ما في شي!***
- ***واضح تماماً انه ما في شي! انت بتعرف انه عندي قدرة على الزن بتخليك تعترف صح؟***

لم يتمالك ضحكة خرجت رغماً عن ارتباكه، يبدو أنها أعادته قليلاً إلى طبيعته:

- ***اه بعرف... انتي زنانة!***
- ***طيب؟ شو مالك؟***
- ***هممم... القصة معقدة شوي!***
- ***بسطها!***
- ***يووه... طيب... كيف بتعرفي الحقيقي من القناع؟***
- ***قصدك بالناس اللي الها اكتر من وجه؟***

لقد فهمت قصده مباشرة دون حاجة للشرح والتوضيح، أتقرأ الأفكار أيضاً؟ ليس هذا عدلاً أبداً! أجابها مغتاظاً قليلاً:

- *آه قصدي الناس اللي معي بوجه ووراي بميت وجه!*
- *بلكي كلها وجوه حقيقية موأقنعة!*
- *كيف يعني؟ الانسان الطبيعي اله وجه واحد بس!*
- *عمرك شفت بسة والدة؟ مع ولادها بتتحمل منهم كل شي، بس مع البسس التانية بتتحول لوحش! مين وجهها الحقيقي ومين القناع؟*
- *انا بحكي عن بشر موبسس؟*
- *البسس أحلى!*
- *يعني بتزني تعرفي شو مالي وبعدين بتبلشي هبل!*
- *لا! والله موهبل! قصدي انه الموا قف بتغير طريقة التعامل، موضروري الشخص يلبس أقنعة، أو مو ضروري يكون وجهه هون حقيقي وهون مزيف! ممكن يكون كله حقيقي، وطبعا ممكن يكون كله مزيف!*
- *وكيف بعرف الحقيقة؟*
- *ما رح تعرف!*
- *اووف! ما الك فايدة!*
- *انا عن حالي بختار اصدق اللي بريحني! ازا كنت بحب صاحب الوجوه بختار منه احلى وجه، وازا بكرهه بختار ابشع واحد!*

يا لها من طريقة طفولية للحكم على الأوجه وعلى الأفراد! طريقة تملؤها المطبات والصدمات وفرص الإصابات، أتترك مشاعرك ترتد إليك عن الناس؟ أتحكم عبر مشاعرك فقط لا عبر الحقائق؟ كيف يمكن أن تقبل التنين تنيناً هنا وقطاً هناك؟ أليس هو ذات التنين هنا وهناك؟ كيف يمكنك إنكار ما رأيت من قسوة فقط لأنها لم تكن موجهةً إليك؟

الرحلة من الجامعة إلى بيتها قصيرة، انتهت بسرعة، وقبل نزولها طلبت منه أن يقلها في الصباح في طريقه...

- ***عنجد صرت شوفير عندك؟***
- ***ما انا بطريقك اصلاً! ما بأثر عليك!***
- ***لا وزنك بالسيارة بزيد مصروف البنزين!***
- ***بضل اقل من مصروف سيارتين!***
- ***يعني بتوفري بنزيناتك عحسابي؟***
- ***اه!***
- ***بديش!***
- ***صراحة أعطيت سيارتي لامجد خلال اجازته هون، ولما ما وافق قلتله انه انت بتوصلني! بدك أقول لامجد انك ما بدك توصلني... عادي بيجيني هوكل يوم بوصلني!***
- ***حدا بيعطي سيارته لحدا؟ هاي سيارة موبلوزة ولا قميص!***

- *ما خصك! بستناك بكرا...*

أتهدده بأمجد؟ أتشعر بغيرته؟ أتستغل حيرته ضده؟ أم هو أخ كبير تهدد به من يقف في طريقها؟ مزعجة سلمى بكل ما يتعلق بها!

إن أكثر ما يثير حنقه هو إحساسه بأنه الوحيد المتعثر في علاقته معها، فلا يبدو أصدقاؤهما في حيرة منها، ولا تبدو علاقاتهم معقدة كعلاقته بها، ولا تبدو على أحد صعوبة في فهم قواعدها وتراكيب لغتها، لماذا هو فقط يشعر بالضياع؟ يشعر كتلميذ يدخل امتحاناً لمادة سهلة جداً، لكنه عند ورقة الامتحان لم يعرف إجابةً لأي سؤال، ينظر حوله فيجد جميع زملائه منهمكين في الكتابة، أقلامهم تسير بسلاسة لترسم إجابات واضحة، وقلمه لا يتحرك، التصق في نقطته الأولى دون نثر للحبر على الورق، فتبقى ورقته خالية بيضاء نظيفة. يشعر بنخزة في معدته، واضطراب وغثيان، تتحرك أقدامه دون أوامره تنقر الأرض مستعجلة، وترتجف يده، ولا يعرف أيسلم ورقته ويهرب أم يكب وجهه عليها آملاً أن تأتيه إجابات في غيبوبة عقله؟

لم تطل إجازة صاحبهما، لكن بضعة الأيام تلك التي عمل خلالها سائقاً يأخذها من بيتها ويعيدها إليه كانت له غريبة في طبيعيّتها! كان يجدها في انتظاره صباحاً، تدخل سيارته كأنها لها ولكنها أعارته إياها، تنهره إذا ما تأخر قليلاً، تحمل له أحياناً معها شطيرة خوفاً من خروجه مبكراً دون إفطار، وتأمره أحياناً أخرى

بتغيير الطرق لتتناول كوبين من قهوة أو فطيرتين من مكان ما ليس على طريقهما تشاركه بها، تخبره مواعيدها كل يوم حتى يعرف متى يقلها، ويستجوبها أحياناً عن بعض هذه المواعيد التي لا يقتنع بضروريتها، ولكنه ينتهي راضخاً لجدولها المبعثر!

تنتهي رحلتهما عند باب بيتها، تدعوه لتناول الغداء، ويرفض هو، فلا تشد عليه، ولكنها أحياناً تعود لتدخل سيارته وتأمره بالذهاب إلى مطعم ما يعزمها هو فيه على الغداء، فيغتاظ ظاهرياً، ويخفق قلبه من سعادة طفولية تغمره.

لم تطل إجازة صاحبهما! انتهت تلك الفترة طبيعية الإحساس بينهما، عادت سيارتها لها، ولم تعد بحاجته سائقاً، وبكل بساطة تخلت عن خدماته وأخبرته أن لا حاجة لها بها!

- ***طيب ومصروف البنزين؟***
- ***ماله؟***
- ***مش انتي قلتيلي انه مصروف سيارة وحدة اقل من تنتين؟ بلاش المصروف ما فكرتي بالعبء البيئي والحفاظ على الكوكب؟***
- ***احنا اللي مرتاحين ماديا ما بنفكر بالكوكب! لما تخرب بمكان بنلاقيلنا مكان تاني نخربه!***
- ***له له! ما فكرتك هيك! طول وقتك بتنظري علينا عشان نقلل البصمة تاعتنا على البيئة، وبالآخر مو فارق معك دخان سيارتك؟***

- *وعد مني لما يخترعو سيارة تمشي من دون بنزين بشتريها! حالياً ما وقفت عسيارتي!*
- *طيب وانا مين حيعوضني عن الأسبوعين الماضيات؟*
- *بدك امر عليك انا اخدك مدة أسبوعين؟*
- *لا ما بطلع مع شوفيرة بنت! بنشل بعدين...*
- *حعديلك إياها! شو بدك يعني هلا؟*
- *بدي تعويض!*
- *اعطيك حق البنزين؟*
- *لا ما بدي فلوس!*
- *شو بدك ازن؟*

خطرت في باله ألف فكرة للتعويض، لم يستطع النطق بأي منها... في الحقيقة كان يريد فقط أن تستمر هي في استغلاله، وأن يستمر هو في تحميلها جمائله! كان يريد أن يحافظ على رائحة سيارته مزيجاً من عطره وعطرها! كان يريد أن ينسى كل الصور الأخرى لها ويحتفظ بتلك الصورة التي يحبها، فيكثف رؤيتها بها دوناً عن غيرها! يريد أن يراها سلمى أليفة معتمدة عليه محتاجة له، لا سلمى متوحشةً لا تحتاج أحداً تسحق من في طريقها!

- *ضلك اطلعي معي!*

# (١٥)
# قصة لم تنته

مواجهة النفس الماضية خطيرة، والتنقل عبر الزمن خطير، ومحاكمة نسخة أصغر عمراً أكثرها خطورة.

إن التنقل عبر الزمن لا يخلو من مضاعفات، وفي تلك الرحلات كثيراً ما تتصادم الأحداث والشخصيات، وهناك اعتقاد أن التقاء شخص بنفسه يخلق اضطراباً في اتزان سيل الزمان والمكان قد يؤدي إلى الدمار.

خلال الساعات القليلة الماضية تنقل مراد عبر الزمن جيئةً وذهاباً ألف مرة، فلا يكاد يستقر في بعد حتى يقفز إلى البعد الآخر، ويبدو أن القفزات تعمل عمل وحش متنكر، تقضم كل مرة شيئاً من روحه وشيئاً من عقله، يبدو أنها تخربط فكره وتعكر حكمه، فتخرج تصرفاته عن سيطرته أو تكاد.

الاعتراف بحماقة النسخة الأصغر عمراً هو تجريم لها، لا يلبث أن يتحول في رحلة الزمن هذه إلى محاكمةٍ صاحبُها قاضيها وجلادها ومجرمها، ولا جهة تدافع عن المتهم، فكثيراً ما يكون الحكم الصادر أكثر قسوة وأشد ضراوة.

في عتاب صغير صاغته سلمى بـ(عشرين سنة يا مراد!) ازداد عنف جلاده مئة مرة، كأن بها تضيف نتوءات حادة إلى سوطه، فيخترق الجلد ويشق اللحم أكثر، وتتناثر بعد كل جلدة دماء

وقطع صغيرة من جسد تلامس وجه الجلاد فتزيده إثارة مرضية وسادية متعطشة لدماء أكثر.

ثم استمعت لقصته وتفاعلت معها، كانت كأنها تدهن جروح جلده بدواء يشفيها، لكن دواءها الشافي يلسع، ويتغلل عميقاً في الجرح كأنه يقيس عمقه، فيعرف صاحب الجرح كم غائرة جراحه، تتعدى جلداً ولحماً وعظماً، تصل لشيء غريب في عمقه لم يشعر بوجوده، يعتقد أن تلك روحه.

إن الجهل نعمة، فما حاجتنا لمعرفة أبعاد الجراح؟ (هناك جرح وهو مؤلم) ألا تكفينا هذه المعلومة لعلاجه، لماذا عرف أن جرحه عرى العظام منه؟ سيترك الجرح ندباً إذن؟ ومن يبالي؟ إن ندوب القلب تقطع سيل الدماء، وندوب الدماغ تشل الجسد، فماذا تفعل ندوب الروح؟

إن الجهل نعمة، فما حاجتنا لمعرفة مسبب الجراح؟ ألننتقم من فاعلها؟ وماذا لو كان المجرم هو الضحية؟ أو الضحية هو مجرم يجلده جلاد هو نفسه؟ أينتقم من المجرم أم الجلاد أم الضحية؟ وكلهم واحد! ما نفع معرفة دون انتقام؟ وما نفع انتقام ناتج عن انتقام عن انتقام؟

- ***ما سألتيني عن البنت اللي حبيتها!***
- ***انت قلت انها ما حبتك، ليش اسال عنها؟***
- ***من باب الفضول مثلا؟***
- ***السؤال: ليش ما حبيت غيرها؟***

- *ما بعرف! يمكن لانه قصتي معها ما خلصت؟*
- *كيف ما خلصت؟ وحدة قلتلها بحبك وقالتلك بلاش، كيف ما خلصت قصتها؟*
- *اه؟ ... انا ما قلتلها... وهي ما ردت!*
- *لا؟!!*

علامات الاستهجان المرسومة على وجهها مُدينة، تتهمه بالغباء والحماقة، وتتعامل مع غبائه على أنه جرم يستحق العقاب، شعر بالخجل من نفسه، ربما لأنه أدرك لتوه بعضاً من حماقاته، لكنه سرعان ما استدرك نفسه ليلعب دور الدفاع.

- *كل تصرفاتي معاها كانت بتقول بحبك!*
- *يعني كان لازم تعرف لحالها؟*
- *اه؟*
- *طيب وكيف عرفت انها ما بتحبك؟*
- *ما قالتلي!*
- *نعم؟ بتحكي من عقلك؟*

يقولون إن الحب فعل لا قول، فما حاجة القول إذن؟

ولكن ألم تكن أفعالها تقول؟ ربما كانت تقول ولم يكن هو يفهم اللغة!

أللأفعال لغات؟ ربما!

ربما إذن هي أيضاً لم تفهم لغة أفعاله... كم أحمق أنت يا مراد!

يتصرف الآن كطفل عنيد يحاول تبرير كسره لمزهرية على أن المزهرية أرادت أن تكسر نفسها! كان يجب على المزهرية أن تبتعد عن مرمى كرته فلا تنكسر، لكن إرادتها الدفينة جعلتها تجمد أمام سقوط الكرة فسقطت معها وانكسرت، هو خطأ المزهرية أو ربما خطأ الكرة، لكنه بالتأكيد ليس خطأه!

ضاقت عيناها كأنها تحاول التركيز فيه، تحاول أن تخترق جمجمة تحمل دماغاً يعمل بطريقة معوجة! أرادت أن ترى أصل الاعوجاج في طرقه علها تصلحه! ولما اعتراه الصمت عادت لاستجوابه:

- ***انت متاكد انك كنت بتحبها؟***
- ***يمكن وقتها ما كنت متاكد، بس هلا لما افكر فيها...***
- ***شو؟***
- ***في أنواع للحب صح؟***
- ***صح!***
- ***واحيانا واحنا صغار بنخربط بين هاي الأنواع صح؟***
- ***برضو صح...***
- ***انا كنت مخربط! كنت أحس انها بتعرف اكتر مني، او انها ما كانت متخربطة متلي، يمكن مشان هيك كنت بستناها هي تقوللي!***

كان يراها منارة، كان يستنبط منها الحكمة، كان يحيطها بكل ما يملك من فضول، لم يكن يراها غريبة بل يراها رسولاً لعالم

غريب يتمنى أن يتعرف عليه أكثر. من المؤكد أنها تعرف، أوليست قارئة الأفكار؟ راسمة الأحلام؟ منبشة الأرض عن الآثار وعن السحر وعن الأساطير؟ كيف تتخربط هي؟ كيف لا تعرف؟

لم يفكر قط أن المشاعر كثيراً ما تغلب عقل حاملها، فربما لا يستطيع تمييزها أو إدراكها، أو ربما يعرفها ولكن لا يعرف ماذا يفعل بها.

- ***طيب هلا بتميز بين أنواع الحب؟***
- ***هلا بعرف شغلة وحدة... انا ما عمري حبيتها كاخت او صديقة! طول عمري كنت بشوفها عشيقة!***
- ***...***
- ***بتعرفي كل الخيالات اللي بتمر بعقل ولد مراهق عن البنات؟ لما كنت اتخيلها ما كنت احس انه هالشي غلط!***

انفجرت سلمى ضاحكة مما اعتقدته مستوىً جديداً من السذاجة.

- ***يعني هاد دليلك؟***
- ***لا تضحكي علي! انا واحد اتربيت انه كل شي عن البنات عيب، كنت اتلون ازا شفت مشهد بفيلم لبوسة! انا وانا متزوج كنت احس حالي بعمل شي غلط! بس ما عمري حسيت أي شي معها غلط!***
- ***مراد جد انك ... مخك مركب غلط!***

دليله على العشق غريب، لكن إذا كان هذا دليله فكيف سيعرف ما يدور في خيالات من يحب؟ وكيف سيعرف إحساسها بالندم أو بالفعل المشين؟ نعم هو يدرك أنه كان أحمق، يدرك أنه أضاع فرصاً من يده، يدرك أنه ادعى النسيان ولم ينسها قط!

ما قاله لها الآن ناتج عن أفكار تولدت في ذات اللحظة، لم يكن كلامه مدروساً أو مخططاً، كان في الحقيقة عفوياً جداً! وربما لذلك السبب لم يعترض على وصف تركيب مخه، بل ربما وافقها قليلاً في وصفه بالغلط.

إنه الآن يجلس معها ويقترب منها ويناقرها ويرغب في المزيد، دونما شعور بإثم مرتكب، دونما تفكير بتبعات، ودونما رغبة حقيقية في ضبط النفس. ضبط النفس الآن يأتي بمشقة كبيرة، لا لأن الأفعال المرتكبة تتنافى وأخلاقه، بل لأنه خائف! هو خائف منها! ما زال تائهاً معها! يشعر أنها وجدته لكنه ليس متأكداً أنه وجدها، وإذا ما أقنع نفسه أنها هنا ماذا سيفعل إن فقدها؟ هو ضائع وموجود في آن.

سلمى الآن تشاركه محاكمة نفسه، فتزيد من ظلم الحاكم، لماذا يحق لها أن تقرعه على حماقاته؟ وماذا عنها؟ هي أيضاً لم تنجح في الحب! كيف تحكم عليه إذن؟

- ***طيب يا ستي انا كنت اهبل وبعرفش! وانتي؟***
- ***انا مالي؟***
- ***انتي كمان موزابطة معك!***

- *لا يا سيد! انا موزابطة معي بمزاجي!*
- *معناته عمرك ما حبيتي حدا عن جد؟ معناته فيكي كمان شي غلط!*
- *مين قالك ما حبيت؟ يمكن كمان حبيت اكتر من مرة! بس غالباً بتنتهي القصة قبل ما تبدا!*
- *غالباً؟ مودايما؟*
- *لا مودايما!*

كان صوتها في جملتها الأخيرة غريباً، كأنه قادم من بعيد، كأنه ليس صوتها! مملوءاً بالشجن أو ربما الحنين، وبدت غارقةً في أفكارها، في ذكريات ربما! آثر الصمت في انتظار عودتها من عالمها، كانت قد بنت جدراناً منعته من استمرار استجوابها، من يا ترى الذي لم تنته قصته معها؟ أم أن القصة انتهت بعدما بدأت؟ وكم مرة أحبت؟ وكيف أحبت؟ ألف سؤال لديه ويعرف أنها لن تجيب على واحد منهم!

عادت تتكلم كمن صحا للتو من غفوة:

- *شكلوالك زمان ما تواصلت مع امجد وزينة؟*
- *اه انشغلت بمشاكلي وبطلت اتواصل مع حدا...*
- *يعني كنت تتواصل معهم قبل مشاكلك؟*
- *اه؟*
- *كنت تعرف اخباري منهم؟*
- *لا... ما كنت اتواصل مع حدا!*

- ***بعرف انك طلبت منهم ما يقولولي... بس بالزات امجد كيف متخيل انه ما رح يحكيلي؟***
- ***اوف امجد! طبعا رح يرجعلك ويحكيلك! انا قلت بعد ما تزوج بيركز وبيسترجل شوي... ما في فايدة بضل من توابعك!***

كانت نبرة صوته غاضبة بعض الشيء، لكنها ليست متعجبة، فكأن به كان يعرف مجرى الأحداث، أو ربما كان قاصداً لها!

لم ينقطع مراد عن صديقهما إلا قرب فترة انفصاله عن هبة، في الحقيقة كان مقرباً من أمجد، وازدادت قوة علاقتهما بعدما ابتعد عن سلمى، فكأن به استبدل هذا بهذه، أو ربما كان يريد أن يحفظ صلة -أية صلة- تربطه بسلمى.

في البداية كانت علاقتهما عبر رسائل الكترونية يتبادلانها، وعندما أنهى أمجد دراسته صارا يلتقيان كل أسبوع أو اثنين. لم يكن مراد يذكر سلمى أمامه، ولكنه كان متلهفاً لسماع أي خبر عنها، وكان أمجد مدركاً لغايات مراد ومشاعره المدفونة، فكان متعمداً مشفقاً كثيراً ما يذكر أخبارها.

- ***أمجد كمان لا يصلح للزواج شكله؟ آخر مرة حكيت معه كان صار مطلق برضه!***
- ***اتزوج مرة تانية... هلا شكله مبسوط!***
- ***حكالي انك ما كنتي راضية عن مرته الاولى!***
- ***لا ، وزيك ما رد علي!***

- ***معناته ممكن انتي السبب في طلاقاتنا؟ لو انك ضليتي ساكتة وما اعترضتي يمكن زبطت الامور!***
- ***اه صح! الحق علي! انا اصلاً كنت غيرانة وعملتلكو سحرمشان ما تزبط معاكم!***

قصة أمجد هي قصة يعرفها مراد كما تعرفها سلمى، بل ربما يعرفها مراد أكثر من سلمى، فكان في فترة ما أقرب لأمجد منها.

لأمجد قصة معقدة في العلاقات، فهو شاب بسيط طيب القلب، كثيراً ما يساء فهمه، فيُفهم تفهمه لحرية الآخر على أنه تقبل للانفلات، وتفهم عفويته في التعامل مع الجنس الآخر على أنها انحلال.

عندما أنهى دراسته في الخارج عاد باحثاً عن علاقة عاطفية مع فتاة من بلده تنطق لغته، وسقط ضحية لأول مؤنثة قالت له كلاماً معسولاً، إن أمجد حسب الورقة والقلم عريس لا يفوت، فهو طبيب وسيم من عائلة ثرية، يبدو بعيداً عن العقد الشرقية في العلاقات، وهو أيضاً ساذج بما يكفي ليقع في شباك فتاة تتربص فرصة للهروب من واقع يحبسها إلى حرية غير مسؤولة تنشدها!

ولما أخبر سلمى نواياه وعرفها على زوجة المستقبل، اعترضت الأولى بشدة على اختياره، فاتهمها أنها دائماً تبالغ في حمايته، وأنها لن ترضى بأية فتاة يعرّفها عليها، وربما لم يكن مخطئاً تماماً في

اتهامه، لأنها فعلاً كانت مفرطة في تقدير من تحب، وببساطة يمكن ألا تجد أية فتاة مستحقة لقلوبهم!

حذرها أمجد يومها من تماديها في رفض علاقاته، مع تهديد مبطن لإمكانية إضعاف علاقتهما، وذكرها بقسوة كيف خسرت مراداً سابقاً، عليها أن تهدأ وتنحني قليلاً فلا تخسر أمجد أيضاً...

تراجعت سلمى، وقبلت واقع علاقات أصحابها على مضض، كانت تعرف أنها تحبهم أكثر مما يسمح لهم بالتنازل عن قلوبهم للغزاة، وربما كانت فعلاً ترى حبيباتهم بصورة الغازيات لا الفاتحات.

الزوجة الأولى أساءت استخدام حريتها الجديدة، وعندما بدأ زوجها بالاعتراض اتهمته بالرجعية والتخلف، وأصرت أن علاقاتها الشخصية وتحركاتها أمر يخصها فقط...

في هذه المرحلة لم يستطع أمجد العودة إلى حضن صديقته يشكو حياته لها، فكانت هي قد أنذرته سابقاً، وما كان يقوى على الاعتراف بأنها محقة. هنا توجه إلى مراد، الذي كان نفسه يعاني من مشاكل غير معلنة مع زوجته، فوجد الأول في الثاني ملجأ، ولكن الثاني لم يسر للأول بمشاكله، بل مع الوقت دفعه للعودة إلى سلمى، فهي ما زالت بالنسبة له المنارة، وهي باتت الآن قارئة الطالع متنبئة المستقبل!

- *استشارك بزواجه الثاني؟*

ابتسمت سلمى ابتسامة منتصر بديهي، فعودة أمجد إليها كانت كعودة آثم قرر التوبة، ولا يلتزم المعابد أحد كآثم تائب!

- ***اكيد...***
- ***وو افقتي؟***
- ***ما كان حيتزوج من دون موافقتي! كنت حاسة حالي امه موصاحبته!***
- ***وافقتي لانه زهقك؟***
- ***لا، الصبية كانت ملاك، كتير ملائمة اله... بس صراحة التنين شوي هبايل... مشان هيك كتير بيشغلوني بقصصهم!***
- ***افهم من هيك انه ازا بدي اتزوج مرة تانية لازم اخد مباركتك مشان تزبط؟***
- ***ومين بدها تقبل فيك اصلاً؟***
- ***لسه قبل شوي قلتي اني لقطة!***
- ***انت كنت لقطة... تلات خطوط تحت كنت!***
- ***ما قلتي (كنت) قلتي (انت فعلا لقطة)! ممنوع تغيري اقوالك!***

ابتسمت راضية، ونظرت إلى ساعتها، قارب الليل أن ينتصف.

- ***انا تاخرت عندك، ازعجتك بما يكفي، اظن لازم اروح هلا..***

قال مراد ذلك متردداً، لم يكن يريد الذهاب، بل لم يعرف كيف سيختلق لاحقاً أعذاراً ليلتقيها، تمنى لو توقف الزمن هنا..

- *لو قلتلك ما تروح بتضل؟*

توقف قلبه عن النبض قليلاً، توقفت أنفاسه في منتصف طريقها إلى صدره، وثارت عاصفة من أفكار وكلمات تراد أن تصاغ في عقله، حاول أن يجد شيئاً يرتكز إليه، فارتكز في عينيها... وكان في عينيها رجاء!

# (١٦)
# رد فعل وفعل

قطة أحياناً وتنين أحياناً!

هكذا كان يصفها، ولكنها لم تكن إلا قطةً معه، بكل ما للقطة من صفات، بكل ظرافتها ونعومتها ونبلها، تأسر قلبه كلما نظر إليها، ولا يستطيع أسرها! هي تملكه ولا يملكها، تأتي إليه متى أرادت: تقفز في حضنه تدفع رأسها على وجهه برقة، تموء بنعومة، تدفع يده ليمسد فروها الناعم، فيظن أنه امتلكها، فتتركه، تدير له ذيلها، وتقفز بعيداً كأنها لا تعرفه، وإذا ما حاول إمساكها أطلقت مخالبها. هي تأتي متى أرادت لا متى ناداها! وإن كان ربما لم يجرب أن يناديها!

لم تقبل سلمى طبعاً عرضه بأن يكون سائقها بشكل دائم، أخذت عرضه على أنه مزحة ولم توليه اهتماماً، وبمزاح بدا له جاداً تحججت بأنها لا تريد أن تفقد حريتها.

كانت بين الفينة والأخرى تهاتفه تطلب منه أن يوصلها إلى مكان ما، أو أن يرافقها في مشوار ما، فيطير من السعادة، وينطلق إليها فاتحاً معابر خيالية وبوابات ليصل في لمحة عين، كان يأتيها كجرو ناداه سيده، يأتي سعيداً لتأدية المهمة، لاهثاً، فاتحاً فاه، مطلقاً لسانه، هازاً ذيله...

كثيراً ما تكون المشاوير متعلقة بشراء مستلزمات للرسم الهندسي فيكون المشوار في الحقيقة لازماً لكليهما لا لها وحدها، ولكنها أحياناً -وإن كانت قليلة- كانت تطلبه رفيقاً لمشوار بعيد عن المكتبات والمراسم، ففي مرة أرادت أن تشتري فستاناً لحفل عائلي بسيط، وأصرت أن يساعدها في الاختيار، ولم يكن ذا فائدة إذ كان كل شيء تضعه على جسدها يذهله، فيرفضه!

مع مرور الوقت قل استدعاؤها له، ومع مرور الوقت بات إحساس أنها القطة وهو الكلب يزداد، ومع مرور الوقت صار في فترات بُعدها يشعر بالغضب، ويقرر إعلان الثورة، ويبحث عن الاستقلال، لن يبقى لها كلباً تستدعيه متى شاءت، ولكنها تعود في أوج عزمه تستدعيه، فيعود لاهثاً إليها.

كان أحياناً يواسي نفسه بأنها طالما قالت إنها تحب الكلاب.

ما لم يدركه مراد، أو ما تناساه مراد، هو أن سلمى قطةً كانت أو تنيناً، أميرةً حسناء أو ساحرةً شريرة، سلمى فتاة ذات كبرياء عالٍ حدوده السماء!

في علاقته معها كان دائماً رد فعل، لم يكن يوماً فعلاً ترد هي عليه، مبادرته الوحيدة كانت رغبته أن تظل تستخدم سيارته واعتبرت هي ذلك مزاحاً، لم يكن يوماً البادئ أو المبادر، لم يكن يوماً الداعي. لربما شعرت سلمى نفسها ثقيلة عليه، لربما شعرت أنها تضغطه، لربما ظنت أنه يخجل منها فقط ولا يحب تواجدها حقاً، فكيف ستعرف أنه يريد لقاءها إن لم يكن هو مبادراً للقاء؟

لم يدرك مراد ذلك، أو تناسى مراد ذلك، وأقنع نفسه أنها ظالمة مستبدة أنانية.

أحياناً كان يراها من نسل دراكيولا، شهية كمصاصة دماء، مثيرة كمصاصة دماء، مغرية قوية خبيثة كمصاصة دماء، لكنها لا تستدعيه إلا لتبث أنفاسها على عنقه، فيذوب عشقاً، ثم تغرز أنيابها في شريانه السباتي، فيظنها تداعبه، فتمتص دماءه، ويشعر بالسيل الدافئ يقطر، ويرى آثاراً حمراء على شفتيها تلعقها ويصبح هو هلاماً، لا يدري أمن فقد الدماء أم من فقد العقل، وتحرص دائماً أن تبقي له بضع قطرات ليعيش ويبني دماء جديدة تمتصها في وجبة تالية. إن بضع القطرات تلك كانت ما تبقيه متعلقاً بها، تمنى لو أنها لم تبق له شيئاً ليتهمها بقتله، لكنها تبقيه حياً لتزيد من تعلقه ومن عذابه.

علاقة مرهقة، وقلبه ما زال غضاً لا يحتمل!

كان لمراد خال شاب، يكبره بأقل من عشرة أعوام، لطالما جمعتهما علاقة أقرب للصداقة منها لعلاقة الدم، كان خاله يعمل خارج البلاد، وكان لم يره مذ كان في الثانوية، عاد الخال في إجازة متلهفاً لسماع أخبار ابن أخته الذي بدأ يُحسب على عالم الكبار الناضجين.

- ***مراد كبرت وصار عندك لحية تحلقها!***
- ***سُنّة الحياة يا خال!***

كان هذا اللقاء في منزل مراد، وكانت أم مراد حاضرة، تذهب وتجيء وتقدم ضيافتها، في وجود أمه مراد لا يستطيع الخروج عن اللباقة، في العادة لا يستخدم الألقاب في الحديث مع خاله، يدعوه باسمه (أحمد) أو (أبو حميد)، في العادة لا يتأدب، لكن لأم مراد رهبة تأديبية، فلا يتنفس أمامها إلا كما تريده أن يتنفس، ولا ترضى أمه بإزالة الحواجز التي رفعتها الدماء، فحتى لو كان الخال أصغر من ابن أخته، على ابن الأخت تقديم الاحترام المستحق!

كان أحمد يستغل وجود أخته ليناكف مرادًا وليرى أثر السلطة عليه، لكنه احياناً كان ينسى طبع أخته الصارم، فيتكلم في أمور لا يجب أن يتكلم فيها أمامها:

- ***كيف الجامعة؟***
- ***الحمد لله جيدة.***
- ***والبنات؟***

سأل سؤاله بابتسامة صفراء وغمزة يكررها كل من يسأل شاباً حديث العهد بالجامعة.

كأن بتلك الكلمة تشغل أجهزة الإنذار لدى أم مراد، كأنها كبسة تحولها من صورة أم تقليدية حنونة طبخها طيب، إلى وحش مفترس مخيف، تدخلت سريعاً:

- ***بنات ايش؟ هو رايح عالجامعة يدرس ولا يقل أدب؟***

- ***يختي ابنك صاركبير، اذا ما حب وهو بالجامعة متى بده يحب؟***
- ***حبه برص! حب شو هاد؟ بنات هالأيام بحبن؟ بنات هالايام قليلات رباي، بعرفوش شو يعني حب، انت مفكرهم زي أيامنا؟***
- ***ايامكم ايش؟ انتي دخلتي جامعة بأواخر الستينات، ايامكم أطول تنورة كانت فوق الركبة بشبر، ليتني انا كنت بايامكم!***

احمر وجه أم مراد، وفار الدم في عينيها، وبدا التهديد واضحاً على وجهها، تذكر أحمد طبع أخته المخيف المشابه لطبع أمه، فتراجع سريعاً:

- ***بمزح معك أنا! أوعى يا مراد تضيع حالك بهالقصص!***

وغمز ابن أخته ليدله أن لحديثهما تتمة بعيداً عن أذني شرطية الآداب المراقبة لهما!

من المضحك كيف تعتقد بعض الأمهات أنهن فارضات سيطرتهن على غرائز أبنائهن، تظن الواحدة منهن أن ابنها بريء ومطيع ولا يخالفها في شيء، وتتفاخر بذلك أمام الجميع، لكنها لا تدرك أن ابنها ليس بلا خطيئة، إنما خطيئته لم تكشف بعد!

رن هاتف مراد، اختفى لثوان ليرد عليه، ثم عاد وأمسك يد خاله طالباً منه مرافقته في مشوار، معتذراً لأمه واعداً إياها أن يعيد أخاها إليها ليتعشى معها.

- ***وين؟***
- ***عند البنات! أو بالأحرى هي بنت وحدة!***

كانت سلمى قد رنت عليه، لم يعطها مجالاً للتحدث سألته: ***(فاضي؟)*** أجابها مباشرة من دون تفكير ***(هلا باجيكي!)***، فلم تعترض، واعتبر ذلك استدعاء فورياً يستوجب الطيران! وتذكر خاله الذي لا يصح أن يتركه لبراثن أمه، فأخذه معه شفقة عليه ورغبة في رأيه!

وقف أمام بيتها دقائق قليلة ريثما تنزل إليه، خرج وخاله خلالها من السيارة ووقفا بجانبها متكئين عليها ومواجهين لمنزل (البنت) كأنما يشاهدان فيلماً.

أحمد أيضاً وسيم بطريقته، هو براق، لكن في بريقه بعض الاصطناع، فإذا ما وقفا أحمد ومراد معاً، ستعجب بكليهما، لكن مراداً يبدو كنسخة أصلية تقليدها أحمد!

رأتهما سلمى من نافذة غرفتها، فكان عندها وقت تخفي فيه تعجبها من رفيق صاحبها، عدلت اختيار ملابسها سريعاً ونزلت إليهما.

جاءت بمرحها المعتاد وبابتسامتها الساحرة:

- ***هاي مراد!***
- ***سلمى ... احمد خالي!***
- ***(خالي؟) بس صغير صح؟***

ضحك احمد بمكر:

- ***قصدك بالعمر صح؟***

فابتسمت بخباثة:

- ***ما بعرف عن الأشياء التانية بس هاد المبين!***

لم يعرف مراد ما قصدت، لكنه ميز الخباثة في وجهها وصوتها، تراجع أحمد قليلاً وبهدوء لطيف قال:

- ***بالعمر اكبر منكم ب ٨ سنين، بالعقل أكبر منكم بكتير...***
- ***تشرفنا... أنا سلمى... اصغر منك ب ٨ سنين على ذمة الراوي.***

يبدو أن سلمى قررت ضم أحمد إلى المجموعة بسهولة طالما جاء بتوصية من مراد، هو أول واحد من عائلته تتعرف عليه، في حين تعرف هو على كل من هو مهم في حياتها.

- ***انا كنت بدي ياك بمهمة، بس طالما أحمد معانا... في قهوة حلوة بعرفها بجبل عمان تروحو؟***

هزا رأسيهما، جلس أحمد في المقعد الخلفي في السيارة بعد أن فتح باب المقعد الأمامي داعياً سلمى للدخول، كان الحوار في السيارة مقتصراً عليهما دون مراد، وجدا الكثير من نقاط الالتقاء بينهما.

عاملت أحمد بأريحية ومودة، مازحته وتقبلت مزاحه، وحفظت له بعض الاحترام، وعاملها أيضاً بلطف، ولما غابت الشمس لكز أحمد مرادا مذكراً إياه بوحش ينتظرهما في المنزل، ويبدو أن سلمى عرفت الوحش المقصود.

أعاداها لمنزلها، وتوقفا قليلاً معها أمام الدار، سلم عليها أحمد بحرارة داعياً لها بالتوفيق ومتمنياً رؤيتها مرة أخرى، وردت عليه بالشكر والابتسام.

ما أن غابت عن نظرهما حتى انفجر مراد:

- ***اخدت راحتك زيادة!***
- ***كمان بتغار؟***
- ***...***
- ***الصراحة البنت... صاروخ!***
- ***اه بعرف!***
- ***كيف زبطتها؟***
- ***ما زبطتها!***
- ***هي زبطتك؟***
- ***اه؟ لا!***

- *مهو اما انك غبي او غبي...*
- *اه برضه بعرف!*

وضع مراد يديه على رأسه في يأس محاولاً تفسير وضع لا يعرف تفسيره...

- *سلمى موزينا...*
- *اكيد موزيكم! ايش جاب ل جاب؟!!!*
- *بالله يا احمد فكك من زناختك!*
- *بدك الصحيح... لولا انه انت اللي عرفتني عليها... البنت ما بتتفوت... لا تضيع وقت!*
- *بعرفها من سنين وما عملت شي... كيف اعمل هلا؟*
- *يعني جد بتحبها؟*
- *اظن!*
- *امك ما بتعرفها صح؟*
- *اعوذ بالله... تخيل أعرف ام مراد ع سلمى!*
- *لا حبيبي، ما بدي اتخيل... فيلم رعب صراحة! امك ما عمرها بتعجبها بنت زي صاحبتك هاي!*

في علاقاتنا لماذا لا نقتصر على الحاضر؟ لماذا نقحم المستقبل في المعادلات؟ لماذا لا نسعد بما نملك اليوم دون خوف من خسارة قادمة؟ هل يجب حقاً التخطيط؟ هل يجب حقاً إجابة سؤال (ماذا بعد؟)؟ أيجب أن يكون (بعد) ل (ماذا)؟

لن ترضى أمه! ولكنها في الوقت الحالي ترفض كل الفكرة لا ترفض سلمى فقط! هل سترضى لاحقاً؟ ربما إذا ما نجح في مهنته يستقل قراره عن أمه؟ لا! لن ترضى أمه!

مراد المراهق إذا ما قفز في فكره إلى المستقبل لا يستطيع أن يرى سلمى، هو يراها في صورة خيالية كطيف، لا كحقيقة، يرى أثراً يشبه آثارها لكن لا يراها.

مراد المراهق إذا ما عاد إلى حاضره لا يرى إلا سلمى!

# (١٧)
# نرجسة الاحتاج عناية

إذا ما قررنا قياس العلاقات بناء على معادلات، نجد أن القواعد المتبعة تختلف مع اختلاف أصحاب العلاقات، فهناك عوامل تجب إضافتها لكل معادلة تتوافق مع مجتمعها. مثلاً لا تنطبق قواعدنا على الأجانب: فما هو مستنكر على عربي مقبول جداً على أجنبي، ومثلاً لا تنطبق قواعدنا بين الأغنياء والفقراء: فلربما يقبل الفقير على الغني سلوكيات لا يقبلها على أبناء جلدته.

في حال سلمى ومراد، هما ينتميان لمجتمعين مختلفين تماماً دون اختلاف حقيقي في الجنسية والتاريخ واللغة والوضع المادي، فالمتغيرات المطروحة ها هنا لا مكان لها، والقاعدة الموضوعة بناء على أساسيات مجتمعها دون أخذ أية متغيرات أخرى في عين الاعتبار، ستجعل هذه المعادلة غير قابلة للحل. ببساطة شديدة علاقة كتلك في حسابات مراد لا مستقبل لها!

مراد شاب ذكي ومجتهد وعقلاني، مراد ليس ثورياً ولا حالماً ولا شاعراً راسماً للمستقبل، هو يدعي أنه واقعي مدرك، ومن واقعيته برزت مشاكل قلبه، فلا يؤمن هو بالحب من أجل الحب، ولا يؤمن بترك المستقبل لزمنه، هو يؤمن بخطة طريق مثالية يؤول فيها الخطأ إلى الصفر، ويؤمن أن النزوات نفسها يجب أن تكون مدروسة، وحان الآن أوان إيقاف نزوة لا مستقبل لها.

في إطار علاقة حكم عليها بالفشل قبل أن تبدأ ابتعد مراد، صار يلقاها أحياناً ويتجاهل اتصالها أحياناً، فقلت اتصالاتها أكثر، وباتت تكتفي من فترة لأخرى بإرسال رسالة نصية، أو بلقاء صدفة -لربما مصطنعة- في أروقة الجامعة.

وكان قلبه كلما لمحها يقفز من مكانه، كأنه يصر على خيانة صاحبه والذهاب إليها، فيقبض عليه بكلتا يديه ليمنعه من هجران جسده، صار يخاف لقاءها، وصار خوفه يغضبه.

هو غاضب من قلب لا يأتمر بأمره، هو غاضب من خوف لا يستطيع تبريره، هو غاضب من قوى تجذبه وهو النافر. وغضبه بات دافعه للابتعاد أكثر، وكلما ابتعد زاد غضبه من حنين يزداد قوة. وكلما ابتعد هو ابتعدت هي!

ولما ابتعدت هي غضب منها، بل غضبه منها وعليها أكبر ألف مرة من غضبه على قلبه، فكيف تستطيع هي البعد بدلاً من منعه منه؟ لماذا لم تضع قيوداً في يديه كالتي وضعتها على قلبه تأسره قربها؟ لماذا لم تصدر بياناً يمنعه من الرحيل؟ لماذا لم تفرض عليه علاقة بها تمكنه من الادعاء أنه مغلوب على أمره؟

غاضب منها، وكلما غضب يتخيل ماذا يريد أن يفعل بها، يريد أن يوقع كل سخطه عليها، ولكن خيالاته سرعان ما تتحول لرومانسية ملتوية يضيع فيها، فيصفع نفسه ليستيقظ من أحلام غاضبة تحولت لشيء آخر!

هي علاقة مريضة بها وبنفسه، علاقة مرهقة متعبة ملتوية، وهو يعي ما فيها من مرض والتواء، ومراد بطبعه راديكالي، يلتزم الكل أو العدم، فيبتر عضوه المصاب بدلا من الحفاظ عليه مشوهاً، فبتر علاقته بسلمى!

لم يعطها مبرراً لبترها، لم يعطها مخدراً، ولم يحاول كيّ الجرح بعدها، تركه ينزف، واكتفى بلف قطعة قماش عليه تخفيه لا تلئمه. وسلمى بكبريائها لم تسأله عن المبرر، ولم تطلب المخدر، ولا تأوهت من جرح ينزف!

بتلك البساطة انتهت القصة بلا نهاية، بلا حبكة، بلا تشابك، بلا حلحلة، انتهت القصة بلا عنوان!

بحماقة مراهق يعتقد أنه يعرف وهو لا يعرف، هدم أطلانطس المكتشفة، أعاد طمر ركامها، وادعى أنها لم تكن موجودة.

بحماقة مراهق يعتقد أن قلبه ناضج، أغلق صندوقاً حديدياً بشيفرة سرية على قلب غض، ومنعه من النبض، وادعى أنه لم ينبض قط!

مسح الذاكرة، وأطفأ برامج التشغيل، وغير ولاءه لبرنامج جديد، أو ربما أعاد الولاء للبرنامج القديم!

ومضت أيام وأسابيع وأشهر، يراها وتراه ولا يتحدثان، وإذا ما سألتهما عن السبب لا يعرفان إجابة، أو يعرفان ولا يعترفان،

فيبدوان كعلاقة وسمت بكلمة (كان)، دونما نقطة نهاية تبرر جملة الفعل الماضي الناقص، كأن العلاقة ناقصة بطبعها وكلمة (كان) جوهرها لا وسمها.

لم يقطع علاقته بأصدقائهما المشتركين، بل لأمر ما زاد تقربه منهم، والتقرب الغريب كان منه لزينة، فهو عادة يتجنبها، لكنه فجأة قرر الاقتراب، ولم تصده بئر الأسرار، بل ادعت أن لا علاقة لها بما بينه وبين صاحبتها، ادعت أن الأمور طبيعية، وأن القصة الأولى لم تكن قصة أصلاً تستدعي الاستكمال.

لم تكن زينة تذكر سلمى أمامه، وكان يشعرها متعمدة لذلك، كأن بينها وبين صاحبتها ميثاق سرية، كأنها أجبرت على إخفاء معرفتها بشيء يجب أن يعرفه هو، كانت تقفز على أطراف أصابعها عند كل موضوع قد يقترب لذكر سلمى، فيبدو جهدها في تخطي ذكرها واضحاً، ويبدو أن مراداً يفهم ذلك ويقدره، فرغم عطش يخفيه لسكرة بأخبارها، كان يرى فعل زينة ترياقاً يساعده على الإقلاع.

باتت زينة بالنسبة له صديقة مقربة بعد أن كانت شرطية مرعبة، وباتت زينة معه ليّنة، لا تمطره وعظاً وأحكاماً، بل بدت ربما مشفقة على حاله رغم بعض اللوم. وكان مؤمناً أن لين زينة كان مدفوعاً بأوامر من صاحبتها، ولكنه كان كما الشيطان متمرداً لا يريد الإيمان بما هو موقن له، لا يريد الاعتراف أن سلمى ما زالت تحيطه بحمايتها، لأن أمراً كذلك سيزيد من غضبه ومن غله، ويزيد

من اتهامه لها بالسلبية واللامبالاة، فلا يحتاج هو حمايتها، بل -إن كان محتاجاً- هو محتاج لها تأخذ القرار بدلاً عنه لا أن تسايره في قراره.

إنها لو اعترضت أو قاومت أو أبدت ولو بعضاً من استياء وغضب، لكان ربما شعر أن في قلبها مكان له ولو صغير، لكن أن تنسحب بهذا الهدوء دونما اعتراض على قراراته هو جبن وضعف وانقياد لم يعتده منها، وتزيد ذلك بوصاية حماية عليه؟ ماذا تظن نفسها وماذا تظنه؟ أتراه طفلاً أخرق تسايره خوفاً من نوبات غضبه وبكائه؟

في سنتهما الثالثة أشغلت سلمى نفسها بأعمال تطوعية ومجتمعية مع مكتب خدمة المجتمع في الجامعة، ويبدو أنها انضمت لفئة شبابية يسارية الاتجاه لم تلتزم بها كثيراً، لكنها كانت كثيراً ما تنشغل باجتماعاتها وأحداثها، ومع انشغالاتها هذه عادت إليها حيويتها، بل في الحقيقة ازدادت عما كانت في أي يوم عليه، كانت تبدو كشعلة منيرة من طاقة إيجابية، كانت جادة وشغوفة، وازدادت جاذبية!

يبدو أنه مع مرور السنوات في الجامعة يتأقلم الطلاب مع عالمهم الجديد، فيصبحون أكثر اجتماعية وتسامحاً، وفي مجتمع صغير كمجتمع العمارة لا بد لنجم كسلمى أن يشع ويظهر.

لم يؤثر نجم سلمى على إشعاع نجمه، ولكنه أعاد طرح التساؤلات حول ابتعادهما، خاصة من قبل أصحابه الشباب

المقربين، الذين ربما كانوا يحاولون أخذ إذنه في التقرب ممن كانوا يعتقدونها حبيبته! هناك قانون غير معلن بين الأصحاب ينص على الابتعاد عن نساء أصحابهم، ولكن جاذبيتها آسرة تدفعهم أحياناً لمحاولة خرق القانون أو التحايل عليه بدفع صاحبهم لإعطاء موافقة وإن كانوا موقنين أن موافقته ليست حقيقية، هي كموافقة أب على تصرف غير موافق عليه من ابنه الشاب، فيقول له (افعل ما شئت ولكنك إن فعلت كذا لن تكون ابني!).

ربما كان مراد يطمح لتصادم معها، كان يريد سبباً ليعلن عليها حرباً، عل بعد الحرب سلم، أو عل الحرب بإشعال نيرانها تطفئ نيرانه، أو ربما تنهي الحرب على أحد الطرفين فتنتهي القضية. ولكن سلمى كانت باردة لا تثور، هي بركان خامد لا أمل في إيقاظه، ربما سيأتي زلزال في زمن ما يحرك حممها، لكن الآن هي في حال سبات يسمح للطيور ببناء أعشاشها على فوهتها، هي الآن تبتعد عن مواجهته، فتتجنبه ورفاقه.

تبتعد عن مواجهته، لكن لمعانها يعمي بصره، يغمض عينيه عنها فيرى النور تحت الأجفان المغلقة، يشد على عينيه عل النور ينطفئ أو يخفت، فتبقى صورتها عالقة على شبكيته، يضع عصبة لعينيه، لكنه تأخر فكانت قد اخترقت كل حواجزه لتستقر في مخيلته وفكره.

أتلك ضريبة القصص التي لم تنته؟ أذاك مصيرها؟ أن تبقى عالقة في الخيال والذاكرة؟ هو الآن مغمور بمزيج من مشاعر غريب، بين غضب وكراهية وحمم بركانية تحاول الثوران لكنها مكبوتة دون فتحة لتفريغ الضغط، مع رشة من شوق وحنين، ومع جنون!

سأل زينة ذات مرة:

- ***كيف النرجسة بعد ما تذبل ونفكرها ماتت بترجع تاني سنة أكبر وأحلى؟***

ابتسمت زينة كأنها فهمت مقصده:

- ***النرجسة أصلها بصلة تحت التراب، بتموت وردتها بس بصلتها بتتكاثر وبتنمو وبتقوى من دون ما تشوفها!***
- ***ومن دون حاجتها الي لأرعاها؟***
- ***ما بتحتاج حدا! ازا التراب كويس وأجا مطر بالشتا، رح ترجع تطلع كل ربيع! ناوي تزرع نرجس؟***
- ***لا! ما بدي نبتة ما بهمها ازا انا موجود او لا! بدي زهرة بدها عناية وبتحتاجني وازا غبت أو أهملت تتوجع لبعدي!***
- ***بتحب تعب البال انت!***
- ***ممكن!***

هناك تشابه بين النرجس والتنين! هي تنين نرجسي إذن! تنين لا يحتاج أحداً ويدور العالم حوله! ثم ينظر على من حوله بشفقة متكبرة، فيرش عليهم بعضاً من إحسانه ليحميهم من نيرانه، لكنه كاذب! فنيرانه حارقة حتى بعد توزيعه للدروع على أصحابه! هو كاذب نرجسي مدمر حارق!

لا يعلم إن كان كارهاً لها حاقداً عليها حقاً، أم كان كل ذلك مجرد حجة يخلقها ليبرر البعد عنها! لكنه الآن بات موقناً أن البعد فرض، وأنه إن طال وقت تأثيرها أكثر سيكون انشقاق عقله لا رجعة عنه، إن لم يستطع إنهاء القصة عليه أن يبدأ قصة جديدة!

حسناً! كيف نبدأ قصة جديدة؟ نضع معادلة! ندخل الاحتمالات للإجابات عليها، فإذا تطابق طرفا المعادلة نعتبر المدخل جيداً! بدأ مراد بوضع القواعد للمتغيرات في قصته القادمة، أول قاعدة: (ليست تنيناً ولا نرجساً)!

ظهر خاله في حياته مرة أخرى، ليسأله هذه المرة عن (البنت) لا (البنات)، وكان توقيته أسوء ما يكون، كان مراد بدأ برسم مخطط جديد، مخطط لبناء علاقة تهدم ما لم يخطط هو لبنائه، كان قد حصل على مخطط لأرضه وتضاريسها، وفحص تربتها، وحدد خطوطه العريضة للمبنى، وحسب بشكل تقريبي ما يحتاجه من أساسات للبناء، فجاء خاله ليذكره بمشروع بنائه الفاشل الذي لم يرسمه هو!

- *خلصت القصة!*

أجاب مراد ببرود مصطنع، قابله خاله بصمت، كأنه يحاول خلال صمته سماع ما لم يقله ابن أخته، أو قراءة ما لم يكتبه من أفكار، ولما لم يسمع ولم يقرأ بانت الخيبة على وجهه وسأل:

- *كيف؟*
- *كيف ايش؟*
- *كيف خلصت القصة؟*

لم يجب مراد، فأدرك الخال ما ألم بابن أخته، لم يعرف أيشعر بالشفقة عليه أم يقرعه لغبائه، هو مشفق عليه لأنه في لقاء صغير للاثنين أدرك ما يدور في قلب الأحمق مراد، هو مشفق عليه لأنه يعرف أن قرار إنهاء قصة كتلك سيترك جرحاً في القلب الغض، يأمل أنه لغضاضته سيلتئم الجرح، ولكنه أيضاً يعرف أن الجرح الباقي عميق، حتى لو التأم سيترك ندباً.

- *طيب! انت كيفك؟*
- *انا منيح!*

كان مراد يكذب ملء فمه، لا شيء فيه (منيح)، لكن أحمد قرر التغاضي، ومد ذراعيه حول مراد يعانقه!

هناك عناق بضغطه مؤلم، الألم ليس من شد العناق، بل هو من تحرير ألم مكبوت، كأن ضغط العناق فتح دملاً تجمع فيه القيح، فأسال القيح ليخفف بعد ذلك الألم، عناق الخال حرر آلاماً خبأها مراد طويلاً فتعفنت، يجب تفريغها بالكامل حتى لا

تلتهم الدمامل جلده ولحمه وعظمه! حاول مراد التحرر من ضمة خاله، لكن الثاني أصر على ضمه بقوة أكبر عله يخرج كل ما في الأول من صديد!

استسلم مراد لأحمد، وعرف أن أحمد يفهم ما يدور في خلده، من المريح أن تجد من يفهم ما فيك وإن كنت أنت نفسك لا تفهمه، من المخجل أيضاً أن تجد من يفهم ذلك!

- ***خالي أنا غلطان؟***
- ***ما حدا بعرف ازا انت ما عرفت! بس ما تخاف الأيام بتدلك!***

# (١٨)
# الأثر في العناق

الزمن نسبي، يعتمد على قوى الجاذبية، أو هكذا قيل، إذا اعتمد الزمن على انجذابه إليها لم تكن لتتحرك عقارب الساعة! توقف الزمن عندما اقترحت عليه البقاء، لو كانت تعرف كم كان مفروضاً عليه البقاء! كانت شمساً تجذبه إليها، ولا عوامل أخرى حوله توازن قوة جذبها، بقاؤه في مداره صعب، سرعة دورانه لا تكفي، سينتهي به المطاف محترقاً، أو ربما مندمجاً بها كجزء منها لا ينفصل عنها!

تريده أن يبقى، ويريد أن يبقى، وفُرض عليه بقاؤه، ولكن إحساساً مزعجاً ألم به... إحساس غريب يقول له: (تريث!)

لعبت الصدفة دوراً في لقاء تجنبه عشرين سنه، فأبى الكون عليه إلا أن يعود ليلقاها، ولقاؤها كان صعباً، مشحوناً، عاصفاً، وقلبه الذي اعتقده صدئاً تحرر من قشرة باهتة علته، وعاد ينبض على إيقاع يعرفه ويشتاق إليه.

(تريث!) فلم العجلة؟ دع قلبك يتشرب ألحانه، فلتنتش برقصات طيرك الأمازوني، ودع الأيام تحكم لا اجتماع الليل والضياع وسلمى!

ماذا لو أخطأت الحكم الآن وأضعت فرصةَ صدفةٍ ما كانت لتحصل في عالم حقيقي؟ ماذا لو فقدت سيطرتك على ما تعرف

أنك لا تملك سيطرة عليه؟ ماذا لو ارتكبت خطيئة لا تؤمن بخطئها؟ هل ستحتمل ضياعاً آخر بعد ضياعك؟ أما حان الآن الأوان لتجد نفسك؟

(تريث!) أعط نفسك وأعطها فرصةً لبعض الحساب! ولكن ماذا لو في حساباتها اختارت ضياعك عن وجودك؟ لا بأس! يكون ذلك خيارها وتكون مغلوباً على أمرك!

ألا يجب أن يطرق حديداً ساخناً ليشكله كيفما يشاء؟ ماذا لو برد الحديد؟ فليبرد الحديد، من قال إنه محتاج لتشكيله؟ هو هكذا كما يجب أن يكون! فليبرد الحديد وإذا احتاج سيوقد نيرانه أسفله ليُحميه مرة أخرى!

لن يكون ردة فعل، سيفعل ما لا يريد فعله، لكنه سيكون فعلاً مسؤولاً يتحمل العواقب! هذه معادلة سيضع هو قوانينها، وسيغير القوانين كيفما شاء لتناسبها في معادلته، سيغش وسيتحايل وسيطغى في الميزان، سيضع معادلة خصيصاً لها، فإذا لم تكن هي الجواب لا نفع للمعادلة.

وسيضع خطة! سيرسم خريطة تنتهي كل طرقها بها، ستكون مكان الكنز في المتاهة، وسيحفظ كل طرق المتاهة فلا يتوه عنها، ولن يسمح لأحد بإنهاء المتاهة قبله، بل لن يسمح لأحد أن يعرف أن هناك متاهة تحوي كنزاً! سيجد كنزه سراً فلا يقاسمه فيه أحد، وسيرضى الكنز به واجداً وحافظاً!

يجب أن ترضى، يجب أن تدخل معه مؤمنة حالمة بجنانه، لا مجرد مجربة لدين جديد! لا مجال للردة هنا، لا مجال للعودة، هو إيمان جذري لا تزحزح عنه، فإن لم تكن به مؤمنة خالصة الإيمان لا داعي لاتباع دينه!

أخذ نفساً عميقاً ملأ به صدره، وأخرجه ببطء، كمن يمارس اليوغا، كان يهدئ نبض قلبه قليلاً ليسمح له أن يسمع نفسه يتكلم، فيكون نبض القلب أحياناً صامّاً للآذان:

- ***لوقلتيلي ما أروح؟ حتقوليلي ما تروح؟***
- ***يمكن!***
- ***ما تقولي! لانك هلا لوقلتيلي أي شي رح اعمله، وانا خايف من اللي بعمله!***

كان قد وقف مستعداً للذهاب، فوقفت لوقفته، تناولت هاتفه من يده وسجلت عليه رقماً:

- ***براحتك، هاد رقمي...***
- ***ما رنيتي عحالك؟ مابدك رقمي؟***
- ***لا! ما رح احفظ رقمك! بس رح استنى تلفونك!***

تُجرعه بعضاً مما جرعها، لن تبادر، لن تكون هي الفعل، ستنتظر فعله، أتلك سلبية أم تلك ثورة؟ لا بأس فلتكن سلبية، فلتكن ثائرة، فلتكن ما تريد أن تكون، سيتحمل هو العواقب.

ابتسم راضياً وهو يتناول هاتفه من يدها، مدت يدها له مصافحة، تناولها بشغف وشد عليها، وسرت في جسده رعشة لذيذة، عيناه في عينيها تتساءلان: هل شاركته رعشته؟ لا يهم إن لم تشاركه إحساسه، سيجعلها تشاركه في قادم الأيام، سحب يدها الممدودة إليه ليقرب جسدها من جسده، وأفلت يدها ليلف كلتا ذراعيه حول كتفيها، وضمها إلى صدره ضاغطاً جسدها على جسده كأنه يعصرها، وطبع قبلة على جبينها قبل أن يحررها، ولم يكن يريد تحريرها، ولم يبد أنها مانعت اجتياحه مساحتها، بل كانت هادئة كأنها رأت العناق قادماً واستسلمت له كطوفان لا مهرب منه، كانت طبيعية كأنها اعتادت عناقه، ولم يكن عانقها من قبل!

لا تخف، لا إثم في العناق! فالعناق فرغ شحنات زائدة كانت ستؤلمك! فلترتح الآن، واسترخ، واستمتع بشحنات ستتولد مرة أخرى تنخزك متصاعدة حتى تفرض عليك تفريغها مرة أخرى!

- *لو تعرفي كم انا سعيد بلقائك!*

لم تجبه، بل رافقته في صمت إلى باب سيارته، وانتظرته وحيدةً تراقب أضواء سيارته حتى اختفت.

لا يعرف كيف وصل بيته، فكانت سيارته كأنها تسير وحدها كما سارت به أول مرة إليها، دخل بيته وابتسامة بلهاء مطبوعة على فمه، ووقف أمام المرآة الكبيرة في مدخل البيت، ليجد نفسه

مرتدياً ملابس ليست ملابسه، ضرب جبينه بيده وضحك، ضحكة صدرت من قلبه، لم يستطع إيقافها فسايرها.

أخرج هاتفه ليبحث عن اسمها، سجلته (سلمى) كأن لا سلمى غيرها، لا حاجة لاسم عائلة أو لقب أو رمز، فقط هي (سلمى)، وبعث لها رسالة:

***(تركت أواعي عندك! بتغسليلي ياهم؟***
***اه صح، وصلت البيت ازا كنتي قلقانة!)***

لم يجد هناك من داع ليوقع باسمه، ثم تخيل أن تكون خدعته وسجلت رقماً ليس رقمها، لو قرأ رسالته غريب سيعتقد أنه في علاقة مشبوهة يخون فيها زوجته!

ابتسم من أفكاره ساخراً! إذا كانت تلك خيانة، أو كان فعله مشبوهاً، فالخيانة جميلة، والأفعال المشبوهة لذيذة!

ردت عليه بصورة وجه غاضب، فبعث لها قبلة وجملة ***(تصبحي على خير!)***

تغير مراد، كأنه مراهق، ولكنه ليس المراهق الذي كانه، مراهقه الأول كان جاداً وحذراً، مراهقه الحاضر مندفع ولا مسؤول، مراهقه الأول ممل، ومراهقه الحاضر مفعم بالطاقة والخطيئة!

لم ينم تلك الليلة، أو كان في حال بين النوم والصحيان، نوم لا يشبع، قضى الليل حاضنا وسادته مبتسماً، يعيد مشهد عناقها كلما أغلق عينيه، فتتسع ابتسامته، طلعت الشمس وعضلات وجهه متشنجة من طول الابتسام، قفز إلى هاتفه يبحث عن رسالة ما أتت دون أن يشعر بها، ليست هناك رسائل!

فكتب لها: ***(سلمى انا جوعان!)*** ظهرت إشارة (صحين زرق) بجانب الرسالة، قرأتها؟ هي مستيقظة إذن؟ لم يفكر كثيراً، كبس إشارة الهاتف بجانب اسمها، ورن (توت) لم يكمل رنته، وجاءه صوتها ناعساً متذمراً:

- ***مراد اليوم عطلة!***

لا أحلى من صوت حبيبة نائمة، ولا أحلى من تذمر حبيبة تريد أن تكمل نومها!

- ***شو يعني لو عطلة؟***
- ***الناس بتنام بالعطلة!***
- ***بس انا ما نمت!***
- ***بس انا نمت!***
- ***انتي قريتي رسالتي اول ما وصلتك... يعني كنت صاحية!***
- ***لاني هبلة وما طفيت تلفوني!***
- ***لانك كنتي بتستنيني!***
- ***روح نام!***

- بس انا جوعان ما بقدرانام!
- وانا مالي؟
- هلا اتزكرت! انا ما كملت سندويشتي مبارح!
- كملها كوسا!
- مين سمحله؟ هاي الي!
- يووه! شو بدك هلا؟
- تتغدي معي.
- عاساس انت هلا جوعان!
- يعني بتفطري معي؟
- لا!
- ازن بمرعليكي عل٢ باخدك!
- تمرعلي؟ انا باخرالدنيا!
- كلها نص ساعة! ولو كنتي باخر الدنيا برضه بمر اخدك!
- ...
- اه وما تجيبي اواعي معك!
- ليش لا؟
- لانه ما بتكوني لحقتي تغسلي وتنشفي وتكوي!
- انت عارف انه عندي شغالة بتيجي الصبح!
- انا بعرف انه الاشياء اللي بتحبيها ما بتخلي حدا يصيبها غيرك!
- غبي!

- *موغبي، خلص باي بدي انام، عم تزعجيني!*
- *رح اعطي اواعيك لكوسا! باي!*

قفز من سريره مسرعاً يحضر نفسه، مع أن المعاد المنتظر يبعد ثمان ساعات، كان يراقص قطع الأثاث في طريقه، ويدندن ألحاناً مرحة، ويسرح في خياله، ثم يعود ليرقص، فيذكر شيئاً، فيضحك ببلاهة، ثم يغني، ويعود للسرحان... وهكذا مرت الساعات.

وصل أمام بوابة مزرعتها الضخمة، مستنكراً حجبها لما خلفها، بوابة بيتها البيضاء الصغيرة كانت تشبع فضوله، هذه تقتله ببطء!

وصل مبكراً، بقي للمعاد نصف ساعة، أينتظر صامتاً أم يستعجلها؟ لم يفكر طويلاً، رن عليها يخبرها بقدومه، ولكنها كانت كأنها متعمدة ألا تلقاه إلا في الموعد المحدد، ففتحت البوابة في الساعة الثانية تماماً كأنها موقتة بحاسوب ونظام حماية.

لم يكن واقفاً خارج السيارة كما عهدت منه إذا انتظرها، كان جالساً مرتاحاً خلف المقود منشغلاً بهاتفه، فتحت باب السيارة ودخلت، حيته تحية بسيطة ومدت يدها إلى حزام الأمان، لكنه باغتها بقبلة على خدها، فملأت علامة استفهام وجهها، ورد على سؤالها الذي لم تسأله:

- *اشتقتلك!*

تغيرت علامة الاستفهام إلى علامة تعجب مستنكرة.

- ***يعني انتي ما اشتقتيلي؟***
- ***لسه مبارح شفتك، ما لحقت اشتاق!***
- ***غريب مع اني كنت متخيل انك اكيد اشتقتيلي... مو مهم انا اشتقت عنا التنين!***

يبدو أن الرجال إذا ما كبروا في العمر يزدادون ليناً وطفولة، وتزداد النساء حزماً وقسوة، لا يمانع حزمها وقسوتها، فهو سيجعلها تلين، ستذوب كقطعة سكر في مائه، هو عاقد عزمه، ولن تثنيه بعندها عنه.

أخذها إلى مطعم قريب من اللامكان الذي تسكنه، وكعادة هذه المطاعم كلما ازدادت عزلة ازدادت الأسعار في قوائمها.

لم تنزل من السيارة، انتظرته ليفتح لها الباب، وسمحت له بتناول يدها ليساعدها في الخروج، لم تكن تلك من عاداتها، فلطالما كانت مستقلة ترفض المساعدة.

جلسا قرب الشرفة المطلة على غابة من الأشجار، كان الجو لطيفاً رغم فصل الصيف، ركز في ملامحها وهيئتها تحت ضوء الشمس، كأنه يريد أن يتأكد أنها في الشمس كما هي تحت النجوم، ما زالت جميلة جداً، لكنها مع العمر نضحت أنوثة، تبدو ناضجة شهية، كاد يلعق لعابه عندما باغتته:

- ***مع انك قلت انك ما نمت مبارح، موباين انك تعبان!***

- لا ما نمت وموتعبان، انا مبسوط!
- اللي شافك مبارح ما بعرفك اليوم!
- انتي بس اللي شفتيني مبارح، وهيك عرفتيني، ومبارح كمان عرفتيني!
- انا شاطرة وزاكرتي قوية!
- مع انه موبكل شي... بس اه انتي شاطرة...
- انا على الاقل اشطر منك!
- مش صحيح... ولا اقولك صحيح! انتي اشطر مني! على السيرة ع شو بتشتغلي هاي الايام؟
- عندي مشروع صغير بس حلو...
- قولي...
- دكتورة بالجامعة، مو متزوجة، عندها قطعة ارض صغيرة بالغور، بدها تعمل بيت صغير للعطلة.
- ازا بدك بساعدك... لا تنسي اني دكتور جامعة برضه، يعني ممكن اعرف شو بدها!
- لا انت فهمت غلط، القصة مو بمهنتها، القصة انها female, single, and strong، بدها مكان تنعزل فيه لحالها... يعني لازم يبقى مريح، وفيه مرافق للاستجمام والاسترخاء، وبنفس الوقت صغير وcozy! دافي ما يحسسها بالوحدة!
- female, single, and strong! اختصاصك هاد، انا بنسحب!

- *بس نروّح بورجيك شو عملت!*
- *لا ما بدي!*
- *بعرف انك ما حتسرق شغلي...*
- *سلمى انا ازا دخلت بيتك مرة تانية ما رح اطلع!*

لم ينتبها للوقت يمر، ألم يكن بالأمس بطيئاً؟ لماذا ركضت عقارب الساعة الآن، لا يلتزم الوقت بقوانين الجاذبية إذن! تحدثا عن أشياء كثيرة ولم يتحدثا حقاً عن شيء.

أعادها إلى بيتها ظمآناً، كأن لم يرتو من لقائها، كان يتمنى أن تبتعد نقطة الوصول أكثر، ولكنه في النهاية كان سيصل، ودعها وكانت على وشك دعوته للدخول لكنها تراجعت كرامة له.

رن عليها ليلاً:

- *سلمى بكرا دوام ولازم أنام!*
- *طيب؟*
- *احكيلي قصة!*
- *شو صرت ولد صغير؟*
- *احكيلي قصة عنك!*
- *ما عندي قصص!*
- *اكيد في عندك قصص... احكيلي قصة عنك ما خلصت!*

بعد قليل من الصمت أجابته بصوت حالم:

- *لما كنت بنت صغيرة حبيت ولد...*
- *بالزبط هاي القصة بحب اسمعها!*
- *كنا صغار والولد ما كان قد الحب...*
- *طيب؟*
- *قررت استناه يكبر ويصير قده...*
- *كبر؟*
- *اتزوج وحدة تانية!*
- *غبي!!! بس انا قلتلك قصة ما خلصت.*
- *اه هو غبي... وهاي القصة الي ما خلصت...*
- *يعني بتنزلي ضرة؟*
- *انت غبي جداً!*

ضحك من ردها الغاضب:

- *قررت ابطل غبي... بس احيانا معك بحب اكون غبي!*

لم يجرؤ على سؤالها عمن ذلك (الولد)، خاف أن تقول أن الغبي لم يكن هو، خاف أن يعرف أن قصتها غير المنتهية مع غيره، هو عازم على إنهاء كل قصصها الأخرى وإبقاء قصته فقط مستمرة بلا نهاية.

# (١٩)
# القصة الجديدة

نبحث عن قصة جديدة قد تنسينا القصص القديمة، ولكن للذاكرة طرقاً ملتوية في الفك والربط، فقد تكون القصص الجديدة مفاتيح تفتح ذاكرة قصص ظننا أنا نسيناها، وندرك التواء طرق الذاكرة، لكن لا طريقاً أمامنا إلا تلك المتجهة إلى الأمام، سنبحث ونبحث ونبحث، حتى نجد القصة الأخيرة، وإن لم نجدها علّنا خلال البحث نتصالح مع القديم فيكفّ عن مطاردتنا.

أعلن مراد قائمة أهدافه القادمة لزينة، كأنه يأخذ إذنها، وأدركت الأخيرة أن إعلانه ليس حقاً طلباً للإذن، فمن وضع خطة محكمة وقواعد وأساسات تجاوز مرحلة الأذونات إلى التطبيق.

أشفقت عليه إيماناً منها أن خطته غير قابلة للتطبيق، فمن مثل مراد قد انتهى أمره، وطبعة سلمى عليه لا تمحى إلا بنار تحرق قلبه بالكامل، فتحول الوشم إلى ندب قد يقتله قبل أن يمسح ذاكرته.

كان قد شغل راداراته لالتقاط أية موجة تشكل احتمالاً، ورغم كثرة الموجات إلا أن الترددات لم تكن يوماً ملائمة لأجهزة استقباله، في الحقيقة كان يجد نفسه كل مرة يقارن الموجة الجديدة بتلك الموجات القديمة التي كان يتلقاها، فيجد قوة البث للقديمة أكبر وأنقى.

هذه ليست مناسبة، الأولى أجمل، ولا هذه أيضاً، الأولى أكثر مرحاً، ولا تلك فالأولى أذكى، الأولى أكثر حكمة، أكثر شغفاً، أكثر إيجابية... الأولى... الأولى... لم يكن يجرؤ على تسميتها، كأنه إذا ما نطق اسمها ستتجلى له مشعلة نيراناً يحاول جاهداً إخمادها.

كانت زينة تراقبه، وكانت تشفق عليه، وكانت تعرف أن طرقه الجديدة لن توصله لمكان، سيبقى عالقاً في دائرة تلتف حول سلمى، ولن تصل حتى إليها. كانت قد قررت عدم التدخل، ففي قلبها كانت تشجع صديقتها، وفي قلبها أيضاً كانت تشجعه، ولكنها لما رأته تائهاً يدور في فراغ، ساعدته قليلاً بالإشارة إلى بعض الاحتمالات، واحتمالاتها أيضاً لم تلق قبولاً!

ربما لم تكن صادقة في إشاراتها، ربما كانت خبيثة تعرف أن مؤشرها لا يناسب ما في رأس مراد، ربما كانت أيضاً تؤشر عالمةً أن التأشير لن يفيد من لا يستطيع أن يرى إلا شمساً واحدة تجذبه كلما ابتعد، والشمس هذه موجودة أينما لف وجهه، شمس استواء لا فصول لها، ثابتة قوية متمركزة في المنتصف لا تتزحزح! تختفي قليلاً خلف بعض الغيوم الماطرة وتعود بعدها تشع مشكلةً أقواساً من قزح.

لم يخض مراد التجارب، كان يحلل التجربة قبل البدء فيها، ويحكم عليها بالفشل قبل دخول المختبر، لم يكن يؤمن بالخيمياء، فلا يتحول الحديد إلى ذهب، وحدها شمسه قادرة على دمج وشق ذرات العناصر لتحولها إلى عناصر أخرى، أما هو... فيعرف أن

العناصر تتحول إلى مركبات لا إلى عناصر جديدة! ويعرف أن عنصره خامل لا يدخل في تراكيب الجزيئات، ألا يقولون إن العلاقات كيمياء؟ هو من العناصر غاز الهيليوم، تفاعله يحتاج لقوى ضغط عجيبة.

سألته زينة ذات مرة:

- *لو قلتلك اني معجبة فيك شو بتعمل؟*

زينة جسورة لا تمانع خربطة من أمامها بجسارتها، رغم نعومتها المفرطة إلا أنها أحياناً تكون صريحة بطريقة قاسية مخيفة، ومع مراد لطالما كانت من ذلك النوع قبل أن يبتعد هو عن سلمى، فكانت كأنها تأخذ دور حوائط الصد عن صاحبتها، أو دور حماة لا يعجبها صهرها. نعم كانت قد تغيرت معه بعد انفصاله عن صديقتها، فأصبحت أكثر ليناً وطوعاً، إلا أنه ما زال يعرف صورتها الأولى، كانت ربما أكثر من يخاف صدامه، لأنها وحدها كانت من لا تمانع حرقه ولا تخاف على مشاعره ولا يهمها غضبه.

رغم جفلته من سؤالها إلا أنه أدرك أنه سؤال وليس اعترافاً، ورغم بعض التردد في الإجابة قال:

- *رح اعتذرمنك!*
- *ليش؟ لو بتحسب صفاتي بتلاقيني ممتازة جدا! ليش ما تعجب فيي؟*

تلون وجهه، ليس معتاداً على حوار كهذا! أكملت كلامها بلا مبالاة لألوان وجهه:

- ***انا حلوة، وذكية، وغنية! ما الي علاقات غيرواضحة أو مشبوهة، بدرس اختصاص ممتاز، وانت بترتاح للحكي معي، ليش ما تعجب فيي؟***
- ***ما عمري فكرت فيكي هيك!***
- ***ليش ما تفكر؟***
- ***زينة عم بتخوفيني... خايف انك بتحكي جد؟***
- ***وليش تخاف من اني بحكي جد؟***
- ***لانك...***
- ***لاني صاحبة سلمى!***

لم تواجهه زينة أبداً بأصل علاقته بسلمى، لم تصفعه يوماً بمعرفتها لمشاعره التي يدعي إخفاءها، لم تكن يوماً واضحة كذلك اليوم، حتى في أوج قسوتها عليه سابقاً لم تكن يوماً بهذه القسوة. لم يعرف كيف يجيب، ولم تكن هي لتتراجع عن هجومها:

- ***انت ما بدك حدا يشبه سلمى؟***
- ***انتي ما بتشبهيها!***
- ***بالزبط انا ما بشبهها! انا بزكرك فيها... انت بدك تنساها!***
- ***...***
- ***ازا بدك تنساها ليش بعدك بتدور عليها في كل حدا؟***

- ***لا ما بدور عليها!***
- ***بدك وحدة عكسها؟***
- ***يمكن؟***
- ***مهو برضه معناها إنك ما زلت بتدور عليها... المعكوس هو صورة مراية يا مراد! ارجع عيد حساباتك، واعرف جد شو بدك!***

اعتقد أنه يعرف حقاً ماذا يريد! لديه قائمة في الصفات... لديه معادلة، لديه خطة! كيف تتهمه أنه لا يعرف؟ هو ليس تائهاً كما تظن، هو فقط لم يجد من تلائم الصفات المكتوبة، لماذا تعتقد الصديقات أنهن يعرفن الكثير؟ لماذا تعتقد زينة أنها تعرفه؟ كيف تحكم الفتيات على الأمور بمجرد النظر إليها من بعيد؟ تعتقد الواحدة منهن أنها رأت كل شيء، وتبدأ بتفصيل القصص والسيناريوهات لتلائم مخيلتها! لا تختلف زينة عن الفتيات المغرمات بقصص الرومانسية وأفلام الحب! هي فتاة كغيرها تعتقد أنها تملك قوى خارقة!

كان يريد أن يغضب من زينة، لكنه لم يجد لديه قوة للغضب، ولم يجد لديه قوة ليعاديها، دعها تقول ما تريد، أحياناً هي تقول أشياء مفيدة، فلا بأس من بعض الهرطقة إذن.

- ***مراد ما تخاف، انا ما بدور عقلب مستعمل!***

قلبه ليس مستعملاً، قلبه يكاد يكون مهترئاً، كيف يهترئ قلب شاب في أول العشرين؟ يا لحماقة المراهقين، يمنحون كل ما لديهم

في أول تجربة يخوضونها، يستنزفون كل المشاعر والشغف، يستهلكون كل الطاقة، ويقدمون قلوبهم قرابين لعلاقات مجهولة المصير. لا يرى المراهق أبعد من أنفه، يعتقد أن مصيره معلق بقصة واحدة تستهلكه حتى آخر رمق، ويعتقد أن قلبه سيتوقف عن النبض عند انتهاء تلك القصة.

ليس مراد المراهق الأحمق، أو هكذا يظن، هو ذكي وعقلاني وواقعي! هو يعرف أن انتهاء قصة (وإن كانت لم تنته) ليست نهاية كل القصص! هو يعرف أن قلبه لن يتوقف عن النبض فقط لأن نبضاته لا ترقص على إيقاع نبضاتها، هو يعرف أنه أقوى من مجرد أحلام طفولة وطيش هرمونات وتفاهة خيالات! حياته ليست قصة مكتوبة للمراهقات، حياته يجب أن تكون قصة كمال!

فلتصمت إذن تلك الأصوات التي تتهم قلبه بالفشل، ولتذهب خرافات العشق الأول إلى الجحيم! بل من قال أصلاً إن ذاك كان عشقاً؟ هو مجرد افتتان لقلب أحمق لم يعرف قبل كيف يصد الافتتان!

يصنف أطباء الأطفال المراهقة إلى ثلاث مراحل، آخرها تنتهي في السنة الأولى بعد العشرين من العمر، وفي سنته الجامعية الرابعة كان تجاوز الواحدة والعشرين!

يصنف الأطباء المراهقة بناء على العمر! كأن العقل والقلب يلتزمان خطة وضعها طبيب! لكن مراداً في الواقع مؤمن بالعلم،

وإيمانه هذا فرض عليه إنهاء مراهقته المتأخرة كما قالت الكتب! تنتهي مراهقته بانتهاء السنة الواحدة والعشرين! هو الآن بالغ راشد مكتمل النمو!

أكمل مراد إصلاحات قلبه، أعاد بناء جدرانه، ورتب حجراته. أكمل مراد برمجة عقله، نفى البرامج معيبة الكتابة، ووضع برامج متقنة لا خلل فيها! أقر برامج حماية من الفيروسات والخلل، ووضع عقود صيانة مع نفسه يتابع من خلالها عمل برامجه خوفاً من حيادها عن الطريق! لا ذكاء اصطناعي هنا، لا مجال لآلاته أن تنتج قرارات خارجة عن الكود المكتوب، لن تفكر آلاته دون إذنه، ستسير وفق برامجها دون حاجة لقوانين روبوتات ثلاث تنظم عملها!

برؤيته الجديدة تلك تجاوز سلمى، ما عادت تهزه كما كانت، ما عادت رؤيتها تكركبه، ولا عادت أشعتها تعمي بصره، لقد تجاوزها وتجاوز آثارها، أو هكذا أقنع نفسه.

في سنته الخامسة تقربت منه فتاة في سنتها الثالثة تحتاج مساعدته في إحدى المواد. كانت جميلة رقيقة هادئة، تبدو كعصفورة قصت ريشات جناحيها لا تعرف الطيران، هذه كانت هبة!

في سنته الأخيرة لم يملك الكثير من الوقت ليصرفه على تعليم فتاة جميلة، لكن ضعفها ربما كان محركاً لغرائزه، فوجد نفسه

ينقاد إليها، ومع غياب مؤثرات أخرى كانت لسلمى عليه، ومع غياب جمعاتها الدراسية ولقاءاتها، كانت هذه فرصة لتجربة جديدة!

خلال سنوات دراسته مع سلمى لم تكن يوماً بحاجته ليأخذ دور المعلم، كانت دائماً الشريك ولم تكن يوماً الطالبة، كانت تناقشه لا تسأله، وكانت تضيف إليه، قليلاً ما تأخذ منه، لم تكن يوماً العلاقة المرجوة بين رجل وامرأة، لم يشعر يوماً أنها تحتاجه، بل ربما كان يشعر أنه هو المحتاج لا هي! لا اتزان في علاقة لا يكون للرجل فيها قوة، لا اتزان في علاقة لا تكون المرأة فيها ضعيفة!

هبة أعطته فرصة لعلاقة كما الخيال، هو معلم وهي طالبة مطيعة، ليست ذكية بما يكفي لتتجاوز معلمها، وليست غبية تنفره منها، ليست قوية لتتخلى عنه، وليست ضعيفة جداً لحوحة يمل منها، جميلة بما يكفي، بريئة بما يكفي، رقيقة بما يكفي. خجولة شكورة! طموحها لا ينتمي لهندسة العمارة، لا تؤمن كثيراً بذكائها الهندسي، ولا تمانع الاعتراف بضعفها.

هبة كانت القصة التي أراد كتابتها، ليست تنيناً، وليست نرجسة! هي زهيرة رقيقة تحتاج الرعاية، لن تنبت من دونه، وبمساعدته تزداد جمالاً وتتألق وبغيابه تذبل!

لم تكن علاقته بهبة معقدة، لا عواصف فيها ولا براكين، لا ثورات ولا حمماً ولا تانجو! علاقة هادئة بسيطة واضحة المعالم والأدوار، علاقة مريحة!

ومن بعيد كانت زينة تراقب، ومن بعيد كانت سلمى تراقب!

مع ظهور القصة الجديدة زاد شعور مراد بالقوة، وربما بدأ يغتر قليلاً، وقرر أن يتوقف عن الاختباء من قصته الأولى عله يثبت لقلبه أن لا آثاراً باقية لها عليه، ما عاد يتجنب سلمى كما كان، لا يسعى إليها ولكنه لا يتجنبها، ربما لا يحاول الكلام معها ولكنه إذا صدف أن اضطر سيكلمها دونما وجل. لم تهرب منه سلمى أيضاً، لم تتجنبه، بل كانت تعامله كما يعاملها، لا تبدو عليها خربطة في المشاعر، لا متلهفة ولا غاضبة، كانت تبدو مرتاحة كأن علاقتهما علاقة زمالة عادية لم تحمل يوماً أي معنى.

ربما أزعجه ذلك منها، هي كما المطاط تشتد إذا ما شد وترتخي إذا ما ارتخى، سلبية جداً وبلا موقف! وربما أزعجه أكثر أنه أدرك أنها لا تبالي حقاً وجوده أو عدمه، كلاهما سيان، إن أراد رؤيتها رأته وإن لم يرد تركته! ليست تلك طاعة، بل هو استغناء!

لما اشتدت علاقته بهبة، وصارت أكثر وضوحاً، لجأ إلى زينة يأخذ رأيها، وكما عادته لم يكن آخذاً للرأي أو الإذن بل كان مبلغاً.

لم تؤمن زينة بقصته الجديدة ولم تعجبها تفاصيلها، لكنها شعرت أن رأيها ليس موضوعياً كما يجب للرأي أن يكون، شعرت أن في إعطائها للرأي خيانة لصاحبتها وخيانة لصاحبها، وبعد بعض التفكير قالت:

- *مراد بدك رايي ولا بس بتخبرني؟*

رغم أنه كان قد اتخذ قراره ولم يكن حقاً منتظراً رأيها، لكنه شعر بالحياء قليلاً منها:

- *بدي رأيك.*
- *رأيي انك تحكي لسلمى!*

أطرق رأسه موافقاً دون عند! كان ذلك بالنسبة له منطقياً جداً دون معرفة حقيقية للمنطق وراءه! لو فكر قليلاً كان يجب عليه الاعتراض، فما دخل سلمى بقصته الجديدة؟ ولماذا عليه أن يخبرها؟ أيأخذ إذنها؟ أم مباركتها؟

لم يفكر كثيراً لكنه كان يعتقد أن عليه حقاً إخبار سلمى، كأنه بذلك يوقف لعنة قد تصيبه إن هو أكمل دربه دون معرفتها، وربما اعتقد أن تاريخهما معاً يعطيها حقاً بمعرفة خطوة مهمة في حياته سيتخذها، وهو اليوم لم يعد يخاف لقاءها، ولم يعد طفلاً يتأثر بكلامها، فما المانع إذن من إخبارها؟

لم يخطط للقاء، بل قرر أن يتركه للصدفة والظروف، فإذا ما التقاها يطلب إذناً بالحديث، ويخبرها وتنتهي الحكاية.

ليس من عادته عدم التخطيط، ومن الخطأ عدم التخطيط، خاصة إذا ما كانت الخطة تدور حول سلمى! لا يستطيع هو مقابلة سلمى دون خطة! أخطأ مراد!

كان الجميع مشغولاً بما قبل التخرج من دراسة ومشاريع، وسلمى كعادتها لا يبدو عليها أثر لسباق المسافات الدراسي، كانت

كما كانت أيام المدرسة مرتاحة متنزهة متأرجحة. لم يكن لقاؤها صعباً، فكانت مواقعها -رغم انشغالاتها- معروفة، طلب محادثتها ووافقته على الفور كأنها تعرف ما سيقول.

ابتاع كأس قهوة وقدمه لها، لامست يدها يده وجفل، رأى وجهها وسرت في جسده رعشة، كأنه لم يكن نفسه الجديدة المدربة على تجاوزها، كأن مراهقه القديم طفا على السطح مرة أخرى، لملم أفكاره وجلس بجانبها متجنباً مقابلة وجهها، ركز عينيه بين يديه وقدميه عل أفكاره ترتكز في عقله، وبدأ يحدثها عن تلك القصة الجديدة، وكانت تستمع له بهدوء، لم يجرؤ على رفع بصره إليها، لم يرد أن يعرف حقاً ما يقول جسدها، ربما لأنه كان خائفاً من رؤية لامبالاة لطالما أحرقت مشاعره، وربما كان خائفاً من مبالاة ستغير موقفه، كان الآن فاقداً للثقة في بلوغه ورشده، كأن نظرة منها ستعيده لما كان عليه من سنوات مضت.

أنهى إعلانه، وصمت منتظراً كلامها، لم يكن يعرف ماذا ينتظر، كيف يكون الاقتراب منها لعنة؟ كأنها ترمي عليه تعويذات تخربط ذراته، تعيد تركيبه من جديد كعنصر أبعد ما يكون عن الخمول، لماذا تغلي إلكتروناته في مداراتها مهتاجة لا تستطيع البقاء في موقعها، تهرب منه باحثة عنها، ألم تكن مستقرة خاملة هادئة تدور كيفما يجب أن تدور، ليست الإلكترونات وحدها هائجة، نواته ذاتها ملتهبة تتخبط جدرانها تكاد تنفجر، وسلمى كانت تبدو هادئة...

- *قلتلي هبة اتعرفت عليك مشان احتاجت تساعدها بالدراسة؟*
- *بالزبط!*
- *غريب مع انا بنعرف بعض عمرها ما طلبت مني مساعدة.*
- *يمكن خافت تصديها!*
- *انا؟ خافت انا اصدها بس ما خافت مراد يصدها؟*
- *يمكن انا ما بخوف زيك!*
- *ممكن... بس بنت خجولة بتلجأ لشاب يساعدها؟ كاني شفت هالمسلسل قبل هيك!*
- *سلمى ليش بدك تخربي...*
- *انا ما عم خرب، انا عم اسال!*
- *ما تسالي ازن!*
- *انت مفكر حالك عم تاخد قرار، والقرار ارتسملك وانحط في بالك!*
- *ما حدا اخد قراري! انا موغبي!*
- *اقولك؟ انا مو موافقة على قصتك!*
- *مين قالك انه بدي موافقتك؟*
- *انت اجيت تحكيلي... ليش ازا ما بتستنى موافقتي؟*
- *انا بس بخبرك!*
- *مراد اصحى، انا بعرف البنت قبل ما انت تعرفها... موهي المناسبة الك!*

- *كيف بتعرفي شو بناسبني وما بناسبني؟*

كان قد احتد وعلا صوته، وكانت قد بدأت تحتد أيضاً، لكنها فجأة تراجعت، خففت حدة نبرتها، وحاولت العودة لصوت أكثر حناناً، بل لصوت أكثر رجاء:

- *مراد انا سلمى... نسيت؟*

كيف ينسى؟ لم ينس! ولكنه يريد أن ينسى، فلماذا لا تتركه ينسى؟

- *ليش متخيلة انه الك مكانة بتسمحلك تقرري عني؟*
- *اكيد الي مكانة يا مراد، لو مالي مكانة ما جيت تحكيلي... حتى لو كنت بس بدك تخبرني وما بدك رايي، لو مالي مكانة ما كان خبرتني!*
- *انا غلطان... الي كم سنة ما حكيت معك، ما كان لازم ارجع احكي معك... سلمى ما بهمني رايك! انا قررت امشي بعلاقتي مع هبة، حتى لو موعاجبك!*
- *ليش بتحاربني؟ انا مو ضدك... انا ضد قصتك! القصة مو راكبة عليك! على الاقل اسالني ليش؟ بدل ما تهجم علي!*

قام من مكانه مهتاجاً، كان يخاف مما ستقول بعد ذلك، كان خائفاً من اعتراف قد يدمر كل شيء بناه، وكان خائفاً ألا يكون ما ستقوله اعترافاً!

كان يظن نفسه شفي من آثارها السامة عليه، لكنها مرض لا شفاء منها، لماذا قرر وصلها بعد بترها؟ لماذا سمح لها بغزوه من جديد؟ لن تغزوه هذه المرة! سيصدها... سيقطع كل إمداداتها وطرقها، ستخسر الحرب معه وسينهي وجودها في حياته!

- ***كنت بتمنى تتمنيلي التوفيق... بس زي ما بدك!***
- ***انا مو موافقة!***

كانت جملتها الأخيرة ترن في أذنيه بعدما لف ظهره راحلاً، كانت حازمة راكزة عنيدة مصرة، لم يلتفت إليها بعدها، أكمل مسيره غاضباً منها، عازماً على ألا يعود لمحادثتها... ولكنه ربما، فقط ربما، لو كان رفع بصره إلى وجهها لحظتها، لكان وجدها كقطعة جليد سوحتها دموعها، تنقط جسدها بين خشبات المقعد، لا تستطيع لملمة أشلائها عديمة الشكل!

# (٢٠)
# خطبة وزواج والأكهرباء

كثيراً ما تتشوه الذاكرة بفعل عقل يحاول حماية صاحبه، فيضيف صبغة لأحداث مرت قد تمحو بعض ملامحها أو تغير بعضها الآخر، وغالباً ما تحتفظ الذاكرة بالمشاعر لا الأحداث، فيذكر المرء مثلاً شعوره بالغضب عند حدوث موقف ما ولا يذكر تماماً ما دفعه للغضب، وعند محاولته لاسترجاع الحدث يصبغ غضبه المشهد فيغيره ليلائم الصبغة الجديدة.

هو حدث واحد مر به اثنان، يمر في ذاكرة كل منهما بشكل مختلف، الأول يتذكر غضبه والثاني يتذكر حزنه، وكلاهما يلقي اللوم على الآخر، وحقيقة الحدث مخفية نتمنى لو كانت هناك طريقة لاسترجاعها.

في أحيان نادرة يحصل شيء يزيح الصبغة عن الذاكرة فيعيد تصفيتها، ونجد أنفسنا فجأة نسترجع ما كنا نعرف أنه حصل ونجده لم يحصل، أو على الأقل لم يحصل كما نذكر.

عندما يتذكر مراد جملة سلمى له ***(مراد أنا سلمى... نسيت؟)*** لا يذكر حناناً ورجاء يملأ صوتها، بل يتذكر سخرية متكبرة لمن تعتقد أنها تملك سلطة عليه، لا يذكر اسمه ينطق على لسانها مخلوطاً بالألم، بل يذكره مستخَفاً به مستصغَراً مهزَّءاً.

مع مرور الأيام ستزيد الذاكرة من غضبه لتحوله إلى حقد، حقد عليها وعلى نفسه المنقادة والمنجذبة لمعذبتها، سيندفع إلى إقصاء كل ما يذكر عنها إلى أبعد ركن من ذاكرته عل ذلك يخفف غضبه، ويستخدم علاقته الجديدة ليمحو آثاراها.

يساعده في ذلك انتهاء آخر سنة لهم في الجامعة معاً، فلا يعود يراها في أماكن تواجده، ورغم إبقائه لعلاقات مع زينة، إلا أنها أيضاً تخرجت من الجامعة فبات لقاؤها أصعب وأندر، خصوصاً مع وجود هبة التي لا تتسامح مع وجود صداقات بين مراد وفتيات أخريات.

يخطب مراد هبة خلال سنوات دراسته للماجستير، يتأجل الزواج حتى تنهي دراستها الجامعية، مدة خطوبة تتجاوز المتعارف عليه في مجتمعه، ولكن حجة طولها موجودة فلا مانع منها، على الأقل هناك ما يبرر لقاءهما أمام المجتمع وأمام العائلة.

خلال تلك الفترة بدأ مراد يتعرف أكثر على بعض صفات زوجته المستقبلية، لم يكن يمانع غيرتها أو حبها للاستحواذ، بل كان يشعر ذلك جزءاً طبيعياً من أية علاقة ستنتهي بالزواج، ولم يكن يمانع حاجتها الدائمة لمساعدته في إتمام مهماتها، سواء دراسية أو غيرها، فأيضاً تلك الحاجة أساسية في علاقتهما، لكنه كان يجفل أحياناً من طريقة كلام تستخدمها معه، كانت كثيراً ما تضيف بعض الدلال المصطنع إلى صوتها، ولم يمر وقت حتى باتت مرتاحة في استخدام ألقاب التحبب معه، وما كانت تمانع التقارب

الجسدي، بل أحياناً تصر هي عليه بما يبدو له استعراضاً أمام صديقاتها أو بنات عمومتها، توضح من خلاله أن مراداً ملكها وأنه يحبها.

ما كان مستغرباً له حقاً أنه رغم تقربها منه، وكثرة ملامستها لجسده، لم يشعر يوماً سريان الكهرباء في جسده كما كان يشعر في قصته الأولى إذا ما أخطأت يد بلمس الأخرى... لم يتغير إيقاع نبضه لقبلة يسرقها من خطيبته، ولم يبتلع ريقه لرؤية شيء من لحم يغطى عادة بقماش الفساتين! ولم تكن رؤيتها حاجة لإبقاء أنفاسه بل كانت محض واجب! لم يطل استغرابه، بل اعتقد أن كل هذا هو الطبيعي وما كان سابقاً كان مدفوعاً فقط بهرمونات مراهقة حمقاء.

كانت هبة وعائلتها ملائمة جداً لعائلته، ربما كانت من طبقة متوسطة الحال أقل ثراء من طبقته، لكنها لم تختلف في عاداتها وتقاليدها عن مجتمعه. ربما لاحظ عليها أحياناً تبذيراً واستغلالاً لمال أبيه، لكنه ما كان يرى في ذلك بأساً، فمن حقها أن تطلب من خطيبها وزوجها المستقبلي ما تعتقد أنه يستطيع توفيره. وربما كانت تبالغ بعض الشيء في مدح مهاراتها المنزلية ولكن من من الفتيات لا تبالغ في ذلك؟

في فترة الخطوبة كان دماغه يعمل ليبرر علاقته الجديدة، وكان كل جرس إنذار يطرق يطفأ مباشرة بمبرر جديد، كان كمن يحشر مربعاً في إطار دائري، فلا يدخل معه، ولكنه يلجأ لبعض

النحت هنا وبعض القص هناك وربما بعض من الصهر أيضاً حتى يدخل مربعه وسط دائرته متغاضياً عن كل الفراغات الباقية خلفه!

تزوج مراد، وكان كل شيء مثالياً، حفل زفاف فخم، عروس جميلة، ضيوف ذوي مقامات، وشهر عسل في جزر آسيوية استوائية، ثم عودة إلى شقة واسعة مجهزة بالكامل. كان كل شيء جميلاً براقاً يليق بدراما خليجية، ولكنه كان يشعر بنكهة غريبة في فمه!

كانت الصورة في حياته جميلة شهية، كمائدة منسقة مليئة بما لذ وطاب، لكنه عاجز عن التذوق، فيدخل الطعام جميل المنظر إلى فمه ويتحول هناك إلى تراب! حياته روضة من زهور جميلة، لكنها بلاستيكية لا حياة فيها ولا رائحة لها.

تعطلت أعضاء حسه، اتهم نفسه بالبرود، وأشفق على شريكته، فحاول التمثيل... يمثل أن التراب في فمه لذيذ، وأن البلاستيك في روضته منعش زكي، وأنه هائم في جمال زوجته! ولكنه فشل في إقناع نفسه أن تمثيليته حقيقية!

يعود كل يوم إلى منزله، يحرص قبل فتح بابه على لبس الأقنعة ووضع مساحيق التجميل، يرسم ابتسامة وشوقاً وحنيناً لا يتجاوز أيها قشرة سميكة تغطي جلده.

مراد في الحقيقة مخلص، مخلص لخطة رسمها، ومخلص لقصة اعتقد أنه كتبها، وهو بذلك مخلص لدور عليه القيام به، إخلاصه هذا أهم بالنسبة إليه من مشاعر بات يعتقد أنها وهم، ولو سألته عن الحب سيكذب إن قال إنه مؤمن به! هو يعتقد أن الحب صورة اخترعتها الأدبيات على مر العصور، وأكدتها شاشات التلفاز والسينما، فباتت كذبة فُرضت على الرجال حتى ينهوا أيامهم الزوجية بسلام!

وسط ذلك التناقض عاد أمجد من غربته الدراسية، كان أمجد يعرف عن الانفصال الحاصل في شلته، لكنه كان مصراً على إعادة ربط علاقاته مع الجميع، فبحث عن مراد!

مراد الذي يصارع واقعه وجد في أمجد مهرباً صادقاً من بين كذباته، لا تمثيل مع أمجد، فقط بعض التجاوز عن الحقائق!

عودة أمجد أعادت إليه بعضاً من ذاكرته المدفونة، فلم يكن يرى أمجد دون تذكر صديقته العزيزة، فمهما تغيرت عوالمهما كانت سلمى الأعز لأمجد، لا ينافسها مراد على موقعها في قلب الأول.

أحياناً يرافق عودة الذاكرة حنين، وأحياناً حزن وغضب، ولكنه غالباً ما يكون حنيناً، وأحياناً يدفع الحنين صاحبه للمقارنة بين ما كان وما هو كائن، وأحياناً تصيب المقارنة صاحبها في مقتل.

كان يسمع أخبارها من أمجد، سافرت بعد تخرجها في رحلات حول العالم مستكشفة عوالم جديدة من الفنون والعمارة، تكتب عن رحلاتها على صفحات تواصلها الاجتماعي، وكعادتها لا تصف أماكن بل تملأ كلماتها شغفاً وسحراً كأن المباني ليست حجارة إنما قطع من نور، وكان متابعاً لها، متابعاً صامتاً يبحث عن كل ما يصدر منها، دون القدرة على إبداء الإعجاب أو التعليق.

وعندما أكمل دراسة الدكتوراة في أوروبا، كان يسعى جاهداً لزيارة تلك الأماكن التي كانت تذكرها، فكان يستخدمها كمرشد رحلات يمشي على خطواتها!

بين رحلاتها افتتحت مكتباً مع مجموعة من رفاق الدراسة، كانت هي صاحبة المكتب، وهي صاحبة الإبداع، لكنها كانت دائماً تقول (مكتبنا) تأكيداً للشراكة لا الملكية الخاصة. كانت تنشر أحياناً إنجازات مكتبها، كان واضحاً أن لها أسلوباً مميزاً لا يناسب طرائق الإسكانات المتكاثرة في العاصمة...

يتذكر كيف كانت تصف عمان بال(قبيحة)، كانت تستخدم ذلك الوصف كلما مرت من المناطق السكنية الجديدة. في أوائل القرن الحادي والعشرين كانت هناك قفزة عمرانية هائلة تمتد في العاصمة، فظهرت أسماء مناطق جديدة في الساحة لم يكن لها وجود سابقاً، وهذه المناطق كانت في الحقيقة مرتعاً لأصحاب الإسكانات الذين يعرفون عن فنون العمارة ما يعرفه طفل يركب قطع ليجو ليبني بيتاً فيه شباك في كل حائط! أو هكذا كانت تقول!

كانت في مشاويرها التي جرته إليها تشبعه تذمراً من قبح المدينة الجديدة، فيجد نفسه دائماً في نهاية المشوار يسير معها في شارع من شوارع جبال عمان القديمة! كانت مغرمة بجبلين منهما، عاشقة هائمة! أن تصف عاشقة معشوقها بالقبح أمر مؤلم، وكان يشعر ألمها في كل التذمر والذم الذي أشبعته به، وكان يعرف أنها ثورية... لن تهدأ ثورتها حتى تؤتي أكلها!

ولما عاد للعمل مع أبيه على إسكاناته، كان كثيراً ما يفكر برأيها، ويشعر أحياناً بالخجل لأنه ربما يزيد قبح عمانها، وكان كلما رأى منشوراً لها عن مشروع جديد، يزداد خجله من نفسه، يشعرها فنانة مؤمنة بفنها لا تتزحزح عن ثورتها، ويشعر نفسه خائناً لها، يوظف ما تعلمه من عمارة ليزيد أموال من لا يحتاج إلى مال، ويلقي فنونه وشغفه في عرض بحر من مياه آسنة.

ربما كان ظالماً نفسه، ففنونه في الحقيقة لم تكن حقاً خيانة للعمارة، كان يحاول جاهداً إبقاء بعض من بصمتها في رسوماته، لكنه كحال كل تابع لقديس، لا يملك إلا إحساساً بالتقصير تجاه قديسه.

لحسن حظه لم تكن لقاءاته بأمجد متكررة، ولم تكن منشوراتها كثيرة، فلم تعلق ذكراها ببباله، كانت تطفو أمامه بين فترة وأخرى، لكنها لم تكن مطاردة له خانقة. إلا أن هذه الذاكرة الطافية كان لها أثر في تذكيره أنه ليس سعيداً، وباتت أقنعته ثقيلة، ينسى أحياناً وضعها أو يتناسى، كان يعتقد أنه إذا ما صدق

كذبته ستصبح حقيقة، لكنه لم يستطع التصديق، بل بات يرى أقنعة زوجته أيضاً، وما كان يراه طبيعياً سابقاً أصبح مع الوقت مزعجاً، صار دلالها بغيضاً، وتحببها سيء المذاق، واهتمامها نقاً مضايقاً. صار سؤالها تحقيقاً، وطلباتها مهما خفت ثقيلة.

مراد المخلص يدري ما يمر به، فيشعر أنه يخون قصته، والخيانة ليست طبعه، ولا سهلة على قلبه، فيجلس مع نفسه يقنعها بإعادة ضبط البرامج ليعيد الأقنعة وأزياء التنكر! لكن هذه الجلسات صارت متكررة متقاربة، وصارت سيطرته عليها أقل، وصار يخرج عن دوره المرسوم كثيراً...

يحاول فتح موضوع جديد مع زوجته، عله يجد شيئاً يتمسك به كقاسم يتشاركه معها، يسألها عن رأيها في أحد مشاريعه مثلاً، فتبدي الملل، يحاول مشاهدة فيلم أو مسلسل معها، فلا تبدي اهتماماً، يسمعها لحناً أو أغنية شدت اهتمامه، فتتهم ذوقه الفني بالقدم والخروج عن السائد، فيتقوقع داخل نفسه يائساً من إصلاح!

يخاف من ظلم زوجته، ويخاف من قسوته، ويشعر أنها لن تحتمل اعترافه بأنه ممثل، أو ستطالبه بالاستمرار في التمثيل، فقرر أن يهرب قليلاً!

يغرق نفسه في العمل، نهاراً في الجامعة، مساء في المكتب، ليلاً في القراءة، وفي أيام العطل يجد أية مناسبة ليخرج فيها من البيت فيلتقي بعضاً من الأصدقاء، وإذا ما ندر وتواجد في المنزل يقضي

كل وقته مع طفليه، يلاعبهما أو يقرأ لهما أو يشاركهما في متابعة برنامج كرتوني ما على التلفاز!

في الحقيقة ربما كان طفلاه مهربه في بيته، ووجودهما غالباً ما يهذب طباعه، فيجد حنانه ينطلق دونما تمثيل، وقد يعم الحنان أمهما أيضاً، ويجد أحياناً أن سعادته معهما تنعكس على تعامله مع هبة، فيبتسم لها أحياناً صادقاً، ولكن بمجرد غياب الطفلين، ينتهي الحنان وينتهي الاهتمام وتنتهي السعادة!

باتت غرفة نومه مقبرة، ومشاركة السرير واجباً مقرفاً، فيتذمر من شعرها المفرود على الوسادة، ومن برودة قدمها إذا ما لامست قدمه، ومن تقلبها أحياناً إذا ما نامت، ويجد نفسه كثيراً ما يهرب ليلاً من سريره ينام على أريكة في الصالة محتجاً بسيجارة يريد إشعالها!

لم يعد يحسن إخفاء تعاسته، بل صار مجهوده في التستر واضحاً يدل بشدة على التعاسة، وهبة لم تر الأقنعة السابقة، بل اعتقدت أن التعاسة جديدة، وأنها مجرد مرحلة يمر بها الزوج ستنتهي غالباً عندما تذكره بسعادته الأولى، أرادت أن تعيد إيقاعه في حبها ولم تعرف أنه في الحقيقة لم يحبها قط.

حاولت المسكينة جاهدة البحث عما يزعج زوجها، وزادت اهتمامها به، زادت دلالها، وزادت رعايتها، وكل زيادة منها كانت تقابل نفوراً أكبر من طرفه.

قررت ربما لم يعد يعجبه شكلها، فلجأت لعيادات التجميل ومراكز الرياضة ومحال الملابس، لكنه كان فاقداً تماماً للاهتمام، فلا يلاحظ شفاهاً منتفخة ولا شعراً ملوناً ولا جسداً ينقص وزنه.

اعتقدت أن هناك مؤنثة جديدة في حياته، فعملت دور المفتش تبحث في أشيائه وهاتفه وجيوبه، وبات كل تغيير صغير عليه دليل إدانة، وكل اتهام توجهه له كان يتحول إلى بركان ينفجر في وجهها، ورغم أن البركان في البداية كان يهدأ فيستخطئ مراد نفسه ويصالح زوجته، مع الوقت لم يعد يصالح!

اتهمها بالجنون والريبة، وطالبته بتفسير لخروجه من حبها، فلم يستطع الاعتراف أنه لم يقع في الحب حتى يخرج منه، لم يجد ما يقول، فأكد على نفسه تهمة النساء! أتصدقه إن قال إنه بات يكره النساء؟

يخرج غاضباً من البيت، يعيد حساباته ويجد نفسه ظالماً، يعصر على أنفه الليمون، لكن الليمون لم يعد ينفع، يعرف أن لا ذنباً لهبة فيما يمر به، ولكن طاقته ضعيفة وهو مرهق! هو جسد بلا روح قليل المشاعر بلا رغبات! أكثر ما يشعر به هو الغضب، لم يعد للألوان في دماغه المسؤول عن العواطف وجود، هو لون واحد أحمر مائل للسواد يطغى على كل شيء، وحتى هذا اللون بات خافتاً باهتاً قليل الوجود... مع الوقت بقي لون الرماد مكان كل الألوان!

كان يسائل نفسه أحياناً إن كان ما زال على قيد الحياة، فكيف يكون من بلا حواس حياً؟ كيف يكون من بلا مشاعر حياً؟ هو ميت إذن؟ كيف تهرب من الموت إن كنت ميتاً؟ هو في حالة من العدم اللانهائي، لكنه مطالب بالتصرف كواحد من الأحياء...

لا يريد الموت، يريد أن يهرب من موته، يتسارع نفسه قليلاً، يتخيل نفسه على سرير في طوارئ مستشفى قذر، مغمض العينين عاري الصدر تطن في أذنيه أصوات آلات أعدت للتنبيه على الموت، صوت طبيب عند رأسه يطلب من الجميع الابتعاد بعد شحن كفي جهاز الإنعاش، يتوقف القلب ويتوقف النفس ويشعر روحه تخرج من جسده، تضرب قلبه شحنة كقوة رفسة حصان في صدره، يشهق بكل قوته ليسحب نفساً يعيد النبض إلى قلبه... هو حي! هو ميت! هو بين الحياة والموت!

تلك كانت أولى نوبات ذعره!

# (٢١)
# فرصة عمل

كيف تختلف مراهقة العقد الثاني عن مراهقة العقد الخامس؟ مراهقة الخامس أكثر جنوناً وقوة!

عندما يبدأ عد سنين عمره يتجاوز الأربعين، يصفع المرء نفسه ليخرجها من أوهام اقتراب النهاية، ويطمئنها أن ما زال هناك وقت، ولكن الوقت الآن ثمين لا مجال لإضاعته، الوقت الآن من ماس ليس من ذهب! وإذا كان هذا المرء محظوظاً تنجح صفعته بتحرير نفسه، فتفك قيودها، وتحل ضفائرها، وترخي الأحزمة المعيقة لحركة جسمها، فتعود النفس مراهقة لكن أكثر جرأة، مراهقة دون خوف من سلاسل تقيدها بما هو ملائم، دون خوف من أعين عاذلة، ودون خوف من نتائج غير محمودة.

هي مراهَقة قوية، متكئة على أساسات احتاجت عقوداً أربعاً لإنشائها، مراهقة رغم جنونها لا يمكن النظر إلى قراراتها على أنها طائشة، فتبدو تلك الشعرات البيضاء في وجه ورأس صاحبها شهادة للنضوج تفتح له أبواباً ما كان سهلاً فتحها.

مراد في الثالثة والأربعين الآن، تجاوز ذلك الحد الذي يحتاج فيه الموافقة على أفكاره، هو الآن نسبياً حر من آراء من حوله، هو الآن قوي بما يكفي ليصد كل متطفل على قراراته.

إذا أعطيت مراهقاً حرية وقوة، ربما تكون قراراته أكثر إبداعاً رغم جنونها، جنون ناضج، جنون يتحمل مسؤولية جنونه، جنون مبدع ناضج مسؤول... وربما خطير!

رآها ليلة، ورآها ظهيرة، وانتهت عطلة نهاية الأسبوع، هل يحتمل الانتظار حتى تأتيه عطلة جديدة؟ وقته من ماس، ونواة عنصره تغلي، ووخزات الشحنات المتراكمة تحتد، ويحتاج جداً تفريغ ضغطه! يحتاج ذريعة، يحتاج خطة!

كم يحن لوقت كانت فيه هي صاحبة الذرائع والخطط، لكنها وعدته أنها لن تبدأ أبداً بالاتصال بل ستنتظره، رمت العبء كاملاً عليه، كأنها تعاقبه... هو مستحق للعقاب، ربما هو منتظر للعقاب، بل هو يحترق شوقاً إليه! أليس العقاب اهتماماً؟ أليس بعد العقاب عفو؟ وبعد العفو... ماذا بعد العفو؟ أتعود ساعتهما إلى الوراء عشرين عاماً تمحو ما حدث؟

وقته من ماس، لن تعود ساعته إلى الوراء، ربما تتوقف، ربما تقفز مسرعة إلى الأمام، لكنها لن تعود أبداً إلى الوراء! لا يهم الوراء فلينظر الآن فقط إلى الأمام وتحت قدميه، ولينتش بكل لحظة تمر!

اتصل بسلمى يسألها عن موعد ستزور فيه مكتبها في عمان خلال الأسبوع، وطلب منها أن تدرج في مواعيدها زيارة لمكتبه مساء ذاك اليوم، هو محتاج لمشورتها الفنية!

سخرت قليلاً من فكرة حاجة عظيم العمارة إلى مشورتها، وأوضحت أنها تعرف أن هناك شيئاً وراء طلب زيارتها، فحلف أيمانه أنه صادق ونيته كلها تدور حول العمل!

لو تذكر قليلاً كان سيجد مشاهد كثيرة في ذاكرته الجامعية تمدح فيه سلمى أعماله، كانت دائماً حاضرة عند كل تسليم لمشروع له، وكانت عيناها دائماً متلهفتين لرؤية إنجازه، ربما كان إذا ما أخذ رأيها تعطيه ملاحظة هنا وهناك، لكنها كانت دائماً كريمة في مدح أعماله. ربما عندما سخرت الآن من طلبه مشورتها وعندما وصفته بالعظمة لم تكن حقاً ساخرة، ربما كانت فعلاً مؤمنة أنه (أشطر) منها غير محتاج لها!

ولو تذكر قليلاً أيضاً لم يكن ليجد في ذاكرته أي مشاهد يمدح هو فيها أعمالها، نعم كان حاضراً أيضاً لرؤية مشاريعها، لكنه كان بخيلاً جداً في التعليق!

حضرت إلى مكتبه قبيل انتهاء دوامه بقليل، كأنها كانت متعمدة تقصير اللقاء، لكنه في الحقيقة أكثر خبثاً منها، فما أن قدمتها موظفة استقباله شكر الموظفة وأذن لها بالانصراف إلى منزلها قائلاً إنه سيتكفل بإبلاغ الحارس ليقفل الأبواب عند خروجه...

ربما لم يكن من الصحيح إطلاق اسم مكتب على مكتبه الهندسي، هو في الحقيقة شركة تضم عدداً لا بأس به من

المهندسين والموظفين، معظمهم كانوا أنهوا دوامهم المكتبي، لكن بقي اثنان أو ثلاثة متأخرين بحاجة لإكمال أعمالهم.

كان مكتبه منفصلاً عما بقي من مكاتب بحوائط زجاجية، تبقيه بين موظفيه مراقباً، ولكنها تعزله أيضاً عند الحاجة بستائر مكتبية يغلقها.

غرفته واسعة المساحة، خشبية الديكورات، لها نافذة كبيرة ذات إطلالة عالية تزداد جمالاً في الليل بعد إضاءة الشوارع والعمارات المحيطة. مكتبه ضخم الحجم مزخرف يليق بوزير، تقابله مكتبة من خشب كرز يميل إلى الحمرة سميك، تمتلئ المكتبة بكتب تصلح لمعرض كتاب، بعضها في الاختصاص وكثيرها لا. هناك رف صغير خلف مكتبه يحمل إطارات صور، وعلى يسار المكتب أمام النافذة طاولة رسم هندسي قديمة، وعلى يمينه أمام القاطع الزجاجي أريكة جلدية مريحة يبدو أنها كثيراً ما كانت تعمل عمل السرير لصاحبها.

عندما دخلت الغرفة كان واضح الانشغال بالتدقيق في شاشة حاسوبه، كانت أصابع يده اليسرى غائصة بين شعرات رأسه، ونظاراته معوجة قليلاً على أنفه، أكمام قميصه ملفوفة إلى مرفقيه، وقبة القميص مفتوحة الأزرار بإهمال، محاطة بكرافتة محلولة! كان حقاً واضح الانشغال منهمكاً غير مدرك لمرور الوقت، فعندما دخلت عليه نظر في ساعته مستغرباً كيف تمر ساعات نهاره بسهولة.

رآها فأضاء وجهه، رتب هندامه ونظارته وشعيراته قليلاً، ووقف ليسلم عليها من وراء مكتبه، ثم أشار إلى الكرسي أمام المكتب داعياً إياها للجلوس، لم يحاول إخفاء سعادته برؤيتها، ولم يخف نظراته الفاحصة المتوجهة إلى كل ما فيها.

كانت ترتدي بنطالاً قماشياً أسود، وقميصاً فاتح الزهرة كبير القبة قصير الأكمام، تلف منديلاً حريرياً مزخرفاً يغلب الزهري فيه على رقبتها. شعرها طويل أملس مفرود على كتفيها، أطراف الشعر ملتفة تزيده كثافة، ووجهها بلا مساحيق، على خديها بضعة نقاط نمش لم تر حاجة لإخفائها، فوق عينيها خط أسود يرافق رموشاً طويلة توسع حجمهما، وشفاهها لامعة دون إضافة لألوان زائدة عليها.

دخل في موضوع العمل سريعاً، كأنه يصر على نفي التهمة الموجهة إلى نواياه الدفينة، لف شاشة حاسوبه إليها قليلاً ليريها المشروع الذي يحتاجها فيه: مجموعة من فلل أو شاليهات منفصلة متصلة، ذات مساحات محدودة، مخصصة للعطلة. موقعها يشابه مكان سكن سلمى الحالي، في وسط لامكان بعيد عن المدينة محاط بالأشجار، للمباني المرجوة شروط: يجب أن تحافظ على إحساس العزلة دون انعزال حقيقي عن المحيط، ويجب أن تعطي إحساساً بالمساحة رغم صغر المساحة المخصصة، ويجب أن تكون فخمة تغني عن زيارة الفنادق والمنتجعات...

كانت واضحة في عينيها لمعة الاهتمام، وفي عينيه واضحة لمعة من خباثة، خباثة صياد يعرف انتقاء طعم يلقي به لفريسته يجذبها إلى شباكه. نظرت إليه كأنها فهمت أنها التقطت الطعم:

- ***تمام، وانا شو مطلوب مني؟***
- ***هاد مشروع مكتوب عليه سلمى بكل مكان... مطلوب لمستك!***
- ***أظن انه عندك شركة مليانة مهندسين... غير طبعاً وجودك انت!***
- ***قلتلك بتنقصنا لمستك!***

نظرت إليه مستنكرة، لم تقتنع بحجته، فرسمت ابتسامة ساخرة تقول له (***العب غيرها***)! ضحك ورسم ابتسامة مشابهة على وجهه تقول (***قبلت التحدي***)، أركى مرفقيه على مكتبه وأركى ذقنه على يديه المتعانقتين، وركز نظره من خلف نظارة سحلت إلى أسفل أنفه على عينيها، ومبتسماً خبيثاً قال لها:

- ***سلمى بدي تشتغلي عندي!***

فلتت منها ضحكة سخرية صغيرة، وعلت على ملامح وجهها دعوة له بإتمام حديثه. أما هو ازدادت ملامحه وقاحة وخبثاً:

- ***عم أعرض عليكي فرصة ما بتتعوض...***
- ***ليش ما بتتعوض؟***
- ***بصير يصحلك تشوفيني كل يوم!***

- ***لا؟***

استنكارها كان لذيذاً...

- ***مع انه شوفتي اكيد bonus كبير لاي صبية، بس برضه الموظفين عندي مرتاحين جداً، انا مديركتير منيح!***

رفعت حاجبيها لتزيد على استنكارها تعجباً وتكذيباً، زادت لذة ملامحها، قام من وراء مكتبه واتجه إلى الكرسي المقابل لها، سحبه قليلاً للأمام ليقترب في جلسته منها، تكاد تلامس ركبه ركبها، ثنى جذعه باتجاهها وأخفض صوته قليلاً كأنه يهمس:

- ***بس معك ما رح أكون منيح! رح أغرقك بالشغل ورح أزعجك طول الوقت... ورح استناكي تغلطي عشان...***

قطعت كلامه سريعاً تريده التوقف عن التوجه إلى ما يلمح إليه وجهه من خيال خبيث، قالت حازمة قاطعة:

- ***مراد أنا ما بشتغل عن حدا، وأنا ما بغلط!***

ضحك كمن كان يستدرج ردها هذا، أرخى ظهره على الكرسي وابتعد قليلاً عنها، وفي صوت ما زالت الضحكة عالقة فيه قال:

- ***طيب بتحبي انا اشتغل عندك؟***
- ***لا بعتذرمنك ما في شواغر عنا!***

- ***مع اني شاطر... انا موظف لقطة!***

بدأ ينفد صبرها، كان يبدو عليها أنها مستعدة للرحيل إذا ما استمر في أسلوب استفزازها، فتراجع قليلاً وحاول إعادة الجدية إلى ملامحه:

- ***انا بدي اشتغل معك! مو عندي ولا عندك، معك! طول عمري نفسي اشتغل معك...***

تغيرت ملامح الضيق في وجهها إلى فضول، كانت نظرتها إليه كنظرة محقق يحاول كشف ما يخبئه المتهم أمامه، لم تكن مستغربة ولا كانت مصدقة! أخرج زفيراً طويلاً عالي الصوت من صدره كأنه يستحضر قوى الإقناع لديه:

- ***يمكن لانه الدنيا صارت ليل، ويمكن أنا بالليل بتحول، بس انا عندي اعتراف...***

كانت صامتة هادئة، لكنه اكتشف أنها لا تحاول إخفاء لغة جسدها، فكان واضحاً عليها الترقب، فاستطرد:

- ***طول عمرك بالنسبة إلي بالعمارة منارة، كل ما اشتغل شي بتخيل انك بتحكيلي رايك، بكون عم اسمع ملاحظاتك بمخي، وبعيد الشغل مشان أرضي انتقاداتك... سلمى أنا جد طول عمري نفسي أكون شريك الك!***

أن يكون (شريكاً)، ربما انتبه بعد إنهاء كلامه لتبعات كلمة شريك التي نطقها، لكنه لم يبال حقاً... أدرك لتوه أنها بالنسبة له شريك، هو يريدها شريكاً، هو محتاج حقاً لشريك!

ردت عليه بصوت هادئ فيه عتب:

- ***ما عمرك مدحت شغلي!***
- ***مش قلتلك اني كنت تيس...***
- ***انت ما جربت تشتغل معي... انا مو سهلة أبدا بالشغل!***
- ***رح نتطاوش؟***
- ***كتيييير!***
- ***انا مو افق!***
- ***انا عنيدة وما بيعجبني شي!***
- ***انا مو افق!***
- ***انا شغلي غالي!***
- ***انا مو افق!***
- ***طيب انا جعت...***
- ***سلمى انتي دايماً جوعانة؟***
- ***اه صح انا دايما جوعانة، وازا اشتغلت معك برضه انت مسؤول عن الأكل!***

ضحك بحنان، واعتبر كلامها موافقة على عرضه بالشراكة، تناول سترته عن ظهر كرسيه وتناول مفاتيح سيارته عن مكتبه ثم مد يده إليها:

- ***قومي.***
- ***وين؟***
- ***مش جوعانة؟ قومي ناكل... sea food؟***
- ***Sea food.***

أخذها إلى مطعم قريب، في طابق مرتفع نسبياً، على شرفة ذات سقف متحرك يفتح ليلاً، وإطلالة لطيفة على المنطقة.

سحب لها كرسياً كرجل مهذب وجلس قبالتها، قال كمن يقول في الحلم:

- ***انا مشتاق!***
- ***مشتاق لشو؟***
- ***لكل شي فيكي!***

مراهق في عقده الخامس، مراهق وقح جريء، يعتقد أنه يملك كل الحقوق للتعبير عن نفسه بحرية...

- ***مراد... وقف!***

لم تكن غاضبة، لكنها حتماً كانت تعطي أمراً حازماً لا يستطيع تجنبه أو معارضته، لكنه لم يفهم أمرها:

- *ليش اوقف؟ عن شو اوقف؟*
- *ما بيطلعلك تحكي معي هيك!*
- *بس انا جد اشتقتلك!*
- *ما بيطلعلك بعد عشرين سنة تقوللي مشتاق! ما بيطلعلك بعد عشرين سنة تحاول تسحبني لالك! ما بيطلعلك بعد عشرين سنة تقوللي تعالي وتتوقع اني اجيك!*
- *ما بيطلعلي؟ متاكدة؟ لا ستي بيطلعلي... بيطلعلي بعد عشرين سنة اكتشف انه قصتك ما انتهت، بيطلعلي بعد عشرين سنة ما ارضى اضيعك من ايدي مرة تانية، بيطلعلي بعد عشرين سنة ارد ولو مرة ع مشاعري اللي طول عمري بكبتها!*
- *شو هالجرأة اللي عندك؟ تضيعني من ايدك؟ انا مو بايدك مشان تضيعني...*
- *رح تصيري بايدي سلمى... ازا بدك انا بصير بايدك، مو مهم مين بايد التاني، المهم ما تضيعي عني!*
- *انا ما عمري ضعت يا مراد!*
- *انا اللي طول عمري ضايع، بس انتي لقيتيني...*
- *مو انا اللي ضيعتك!*
- *سلمى لا تتعالي علي كتير... القصة كان فيها اتنين... نعم انا غلطت بس انتي مو بريئة، عليكي حق زي اللي علي!*

- *انو قصة هاي؟ متى كان في قصة؟*
- *من اول يوم شفتك فيه بالمدرسة.*
- *انا كنت بهاي القصة؟ ما عمري عرفت انه في قصص كنت فيها معك!*
- *سلمى... معقول ما بتعرفي انك كنتي بالقصة؟ انتي موجودة بكل القصص...*

هناك غضب حارق مخيف في عينيها، غضب لم يعرفه عنها، غضب أعاد إليها ملامح التنين، شعر بطاقة هائلة لها ثقيلة عليه، شعر نفسه ضئيلاً مسحوقاً، وشعرها تنسل بين يديه.

لا خوفاً أكبر من خوف من رفض جاء بعد اعتراف مخمر عشرين سنة، لماذا استعجل؟ ألم تكن في نيته طهوها قليلاً على نيرانه الهادئة؟ لماذا شعر فجأة بالجوع ليمد يده إلى طعام لم يكمُل استواؤه، هي ثمرة مدارية إذا تناولتها قبل نضجها تسممت ومت! لماذا استعجل إذن بإلقاء اعتراف لم يحن أوانه؟

تناولت حقيبتها ولملمت نفسها وقامت عن الكرسي قبل أن تطلب شيئاً من قائمة كانت في يدها:

- *انا اسفة الوقت تاخر ولازم اروح!*

أسرعت خطاها كأنها تهرب ولا تريد منه اللحاق بها، لكنه دون وعي، بقرار قلب ارتعب من فقدان جديد، رمى على الطاولة ورقة نقد، اعتذر من النادل، وركض خلفها، لحقها إلى الأرض الترابية بجانب مبنى المطعم حيث صفت السيارات، تبعها لاهثاً راجياً:

- *سلمى استني شوي... الدنيا ليل وين رايحة لحالك؟ عالاقل اوصلك!*
- *سيارتي موبعيدة...*

كان صوتها متحشرجاً، وكان ظهرها له فلم ير وجهها، أمسك ساعدها ولفها إليه، فتأكد مما ظن أنه سمع، كانت عيناها غارقتان، رغم عتمة المكان إلا أن الدموع تتلألأ كما النجوم فتبين... أراد لو شدها إلى صدره يهدئها ويمسح دموعها، لكنه مدرك للمكان والواقع، أخرج من جيبه منديلاً ناولها إياه دون أن يترك ساعدها:

- *انا اسف!*

صدرت منها شهقة خافتة تؤكد فعل البكاء، كأنها ما عادت تريد إخفاءه، شعر هو ببعض الرضى، كيف يرضيه بكاؤها؟ ليست دموعها ما ترضيه، بل يرضيه أن نار عينيها ما كانت غضباً منه، ودموعها دليل على أثر له عليها، ملأه حنان غريب:

- *سلمى ما تسامحيني... بس خليني عالاقل احاول اصالحك، انا اناني بعرف، وبفكر باللي بدي ياه من دون ما اسالك شو بدك! ازعلي مني... بس اسمحيلي اعبر عن اللي عندي! سلمى ما تحبيني... ازا بدك اكرهيني... بس ارجوكي خليني احبك!*

# (٢٢)
# عالم الرماد

عالمه مرسوم بقلم رصاص، درجات بين الأبيض والأسود، وليس الأبيض نوراً ينكسر ويتحلل لألوان سبعة، وليس الأسود اندماج ألوان الدهان، هما لونان مجردان دمجهما يشكل الرماد!

في منتصف عقده الرابع، يدرك فجأة أن سنوات عمره تمر، يشعر بالهرم، هرِم في عالم رماد، قلبه متوقف إلا عندما ينتابه الذعر من موت قريب، يرفسه في صدره فيذكر أن الصدر قفص يحبس قلباً، طاقته متسربة من جسده غير قادر على شحنها، وحواسه معطلة!

بيت الرماد تهدمه النسائم، تأكله رويداً رويداً حتى يبقى مكانه كُثيّب، ولا حرائق تصنع له رماداً جديداً، كأن النار حلم بعيد لم يبق منها إلا ما تفحم وراءها! هواء عالمه ملوث، يدخل صدره مغبراً أسود، فيختنق، يحاول أن يسحب نفساً أقوى فيتراكم الرماد في صدره ويزيد اختناقه، جائع للهواء ولا هواء منعش، يلجأ لسيجارة تحترق أمام عينيه، تذكره زهرتها البرتقالية في آخرها أنه كان في ماضيه نار، يدخل جوفه هواء ساخن يسمط قصباته، فيذكر أن هناك بعض إحساس متبق لديه، ينفخ دخانها الأبيض فيشعر لون الرماد تضاءل قليلاً، ويشعر أن بعض الثقل في صدره انزاح.

مثير هو للشفقة! رفيقته الآن سيجارة يعاتبه كل من يراه على رفقتها، يتهمونه أنه يقتل نفسه ولا يعرف أثراً للحياة دونها، متى تعلق بها؟ لم يعد يذكر... ربما عندما اختفت الألوان من عالمه!

ماذا يهم لو كان مكتئباً قليلاً؟ ومن في البلاد غير مكتئب؟ ماذا يهم لو كان فاقداً للإحساس؟ ماذا تفيد الأحاسيس أصحابها؟ ماذا يهم لو كان قشرة فارغة؟ لا يهم! هو الآن صاحب مسؤولية، هو رب لأسرة، هو أب لطفلين، وزوج لسيدة جميلة محتاجة إليه! أيلقي كل ذلك خلفه لأنه يشعر ببعض الثقل في صدره؟ كم أناني هو إن فعل!

استسلم لواقعه، وأصبح دمية جوفاء من خشب، تحركها خيطان تصل أطرافها بأصابع حياة يرضاها المجتمع، ويحترف الصمود!

لا ترضى الزوجة بدمية مكان زوجها! لا تشبعها ولا تملأ فراغها، باردة قاسية جافة، تتحرك وفق تعليمات خيوط خفية، بلا مرونة ولا سلاسة، منحنية الرأس والكتفين، قفزاتها الراقصة مصطنعة واضحة في اصطناعها، ولا صوتاً لقلب في جوفها ينبض إذا ما أرخت رأسها عليها!

بدأت هبة تدخل عالم الرماد الذي خلقه زوجها، بدأت تشعر بالغيوم السوداء المحيطة به، صار قربه وباء، نفسه بارد، قلبه صامت، عناقه -إذا ما مد ذراعيه لها- متيبس رخو لا يشبه ما

يجب أن يكون العناق، قبلاته النادرة لا دفء لها ولا طعم، وكلمات التحبب الصادرة منه آلية لا لحن فيها.

لا ترضى الزوجة بدمية مكان زوجها! الزوج المتحول أناني لا يشعر بمن حوله، الزوج الخشبي ظالم، الزوج الأجوف سيء! لم تعد هبة تحتمل عادات زوجها، لم تعد تطيق برود وقلة عاطفته، لم تعد تتفهم ساعات عمله الطويلة...

هو الآن لا يسيء معاملتها، هو لا يغضب ولا يرفع صوته ولا يعنف، هو يؤمن لبيته كل ما يلزم، يغدق في المصروف على زوجته، ويتذكر المناسبات! لا يعطيها حتى فرصة للشجار... كانت المشاجرات تضفي بعضاً من النكهة للعلاقة الباردة، لكنه الآن حرمها حتى من هذا! لا يجادلها لا يرفض كلامها، يطرق رأسه لكل ما تقول دون نقاش وغالباً دون استجابة!

تثور هبة، تطالب بالمزيد، فيهديها قطعة من ذهب، تغضب فالذهب بارد، فيهديها خاتماً من ألماس، تكرهه فلا شكل له، فيعطيها بطاقته الائتمانية البلاتينية لتفعل ما تشاء! لا تعرف كيف تشتري الدفء بالبطاقة! ترى صديقاتها البذخ في حياتها فتحسدنها، وتمثل هي السعادة، لكنها بدأت تبني لنفسها أيضاً عالماً من رماد!

اعتاد مراد عالمه، لكنه أشفق على زوجته منه، لم يعدها بهذا العالم! لم يرسم لها هذه الصورة عن مستقبلها، هو يقدم لها كل ما يستطيع تقديمه، كيف يحميها إذن من مصير كمصيره؟

ولكنه أحياناً يتساءل هل يذنب من يشتري عصفورة جميلة في قفص؟ هل يذنب إن كرهت عصفورته القفص؟ أإذا فتح لها الباب لتخرج هل ستعيش خارجه؟ أولم تعتد القضبان؟ ألم يرحها توفر غذائها ومأواها؟ هل وقوع ريشاتها ذنب صاحبها؟ وإن كان ذنبه، فماذا يملك لتصحيح ذنبه سوى إعطائها بعض المقويات والأدوية؟

هل يكون تحرير العصفورة حلاً؟ ماذا تفعل عصفورة - ترعرعت بين القضبان- خارج القفص؟ ربما يفتح باب القفص ويترك لها الخيار في الخروج أو العودة؟ لكنها غالباً نسيت الطيران، أإذا خرجت إذن ستعرف كيف تعود؟ أيملأ الغرفة أقفاصاً لها؟ تختار منها ما تريد؟

ما ذنب العصفورة التي اشتريتها يا مراد؟ يحتمل مراد رماده طالما بقيت أسرته بين الألوان، لم يعرف أن الرماد معدا! يعرف أن احتراف الصمود منهك، أيطلب ممن عداهم الصمود أيضاً؟

في نهاية عقده الرابع ضاعت ألوان زوجته رغم كل مساحيق التجميل، ذبلت زهراتها حتى البلاستيكية منها، وخيم على بيته الضبخن! هو بات معتاداً لموته لكنه الآن مذعور من موت بيته، يجب أن يوقف الضبخن عن الامتداد، يجب أن يوقف التلوث بالرماد! إن كان هو سبب العدوى فهل بإزالته تزول عدواه؟ ربما لا حل لإزالة المرض بعد انتشاره، ربما ليس الحل في (المريض صفر)، ربما كان متأخراً!

ماذا لو لم يكن مرضاً بل لعنة؟ أإذا أبعدت الملعون اختفت اللعنة؟ علها لعنة إذن!

كيف يخبر زوجته إنه لعنة؟ كيف يخبرها إنها إذا ما ابتعدت عنه تزول لعنتها؟ كيف يقول لها إنه بتركها يحميها؟

في نهاية عقده الرابع قرر إنهاء عقده مع زوجته، جلس معها ذات ليلة، استجمع كل طيف عاطفة باق لديه، وقال لها إنها تعيسة!

هي تدرك أنها تعيسة، لكنه وقح بالإشارة إليها... أتبع وقاحته باعتراف أنه السبب... اعترافه أكثر وقاحة من إشارته، فإن أدرك التشخيص لِمَ لم يجد العلاج؟ استدرك باقتراح العلاج... الانفصال!

بدأت هبة بالبكاء، وبكت أنهاراً، حاولت بين شهقاتها ودمعاتها إقناعه أن حله خاطئ، حملت نفسها المسؤولية ووعدت أن تتكفل هي بالإصلاح، وعدت أن تعيد الألوان إلى نفسها، وعدت أن تعيد السعادة إلى منزلها! اعتذرت عن ضعفها وقلة حيلتها وتعهدت أن تتغير...

لم تفهمه المسكينة، أشفق عليها أكثر، تتحمل ذنباً هو ذنبه لا ذنبها، لكن ثوب الحمل الذي ارتداه هو طيلة السنوات الماضية كان خادعاً حتى لها، فأقنعت نفسها أنها هي الذئب لا هو، مراد في

معايير الأزواج ملاك تحسد زوجته عليه، لا يمكن أن يكون انفصالهما بسببه.

حاول إقناعها أنها بريئة من دمائه، أكد لها أن لا خطأ عليها، حمل نفسه مسؤولية كل الرماد في بيتها، لكنها لم تصدقه، وباتت أنهار دموعها طوفاناً، وكان يضعف أمام عندها فيكاد يتراجع، لكنه سرعان ما يستنشق الضبخن في داره، فيزيد إصراراً على موقفه!

مرت سبعة أيام بلياليها يسبح في دموعها، حتى توقفت الدموع وهدأ الطوفان! لم يكن عراكاً، لم يوجه أحدهما أصابع الاتهام للآخر، لم تكن هناك شتائم ولا صراخ ولا نزاع! لم يكن هناك سوى دموع هبة! لم يعطها فرصة لتكرهه، حتى في طلاقه بارد!

تعهد مراد بالوقوف معها في كل المراحل، تعهد بالتكفل بكل احتياجاتها، تعهد أن يظل سنداً لها، لكنه فقط لن يكون زوجها!

هل حقاً تحتاج ورقة طلاق؟ لم لا تبقى العلاقة كما تريد دونما إشهار للانفصال؟

مراد راديكالي، لا يرضى أنصاف الحلول، يريد حرية من عقد ربطهما معاً، عل الحرية لها تعيد جمال ريشاتها، عل حريتها تزيل الظلام! لم يفكر أن الحرية ستفيده هو لكنه كان مؤمناً أن الحرية علاجها هي!

وافقت هبة على مضض ووجل! فتدخل الأهل والأقارب والأصدقاء، يفترضون الحلول، ويذكرون أن ما يبغاه أبغض حلال الله، يعيدون عليه الأسطوانات ذات نفس الألحان، كل يلومه على قراره، ولا أحداً يفهم حقاً شكواه وأعراضه وعلاجه!

أمه كانت أصعب مواجهاته، فمثلما هو في أعين الناس زوج مثالي، هبة تقدر وزنها ذهباً، ماذا فعلت المسكينة لتستحق الطلاق؟ كأن الطلاق عقاب يوقعه مراد بها، كيف يفهم أمه أنه هو السم يقتل هبة إن بقي معها؟ كيف يقنعها أن طلاقها ليس عقاباً إنما إنقاذ؟

تعتقد العائلة أنها مصلحة ذات البين، لكنها في الحقيقة تغوص بأيديها في جروحه تلوثها وتزيد تقيحها ونزيفها! تعتقد العائلة أنها فاعلة الخير وهي في الحقيقة شر لا يفوقه شر!

احترف الصمود! صمد في وجه نهر الدموع وطوفانه، صمد في وجه أمه، صمد في وجه عائلته، واتخذ قراره! لكن صموده كان منهكاً مستهلكاً لكل ما يملك من طاقة ضئيلة باقية لديه، صموده أزال ما بقي من لون أبيض في عالمه الرصاصي، صموده كان قاتله!

شعر نفسه وحيداً موحش الوحدة، لم يجد ولو واحداً فاهماً لما يسير في عقله أو قلبه أو عالمه، من الغريب حقاً أن سلمى بعد عدة سنوات فهمت تماماً ما مر به من مرض وعلاج!

انتهت معركة النهاية، وخرج من منزله إلى منزل جديد قريب حتى يستطيع إتمام ما توعد به لطليقته وأطفاله، انتهت معركة النهاية ليدخل عالماً بارداً من العدم، لكن عالمه العدمي كان هادئاً خالياً من الإثم والندم، ليس مسؤولاً بعد اليوم عما تبنيه هبة من عالم رمادي، فهو اللعنة استأصل نفسه، وما عاد الذنب ذنبه!

في الحقيقة لم يكن مخطئاً في استئصال نفسه، فبات يرى هبة أكثر ارتياحاً وتفتحاً ببعده عنها، بات لقاؤهما لقاء مريحاً خالياً من التوتر، وبات للوجبات القليلة التي يتشاركها معهم طعم ولو خفيف في فمه.

أدرك مراد أنه كان محقاً، وتعلم شيئاً قيماً لا يستطيع تعليمه لغيره، هو أن العلاقات على الورق ليست حقاً مطابقة لعلاقات الروح والجسد، وأدرك أن الطلاق ليس مشكلة إنما هو حل للمشكلة، وربما أدركت هبة ذلك أيضاً، فعلاقتها بمراد كطليقها ألطف ألف مرة من علاقتها به كزوج، وربما كانت محظوظة بالبرود الذي أصاب زوجها فدفعه لبناء سفينة في طوفانها بدلاً من لعن حظه الذي جاء بالطوفان إليه، وكانت محظوظة بفقدانه للأحاسيس الذي نبذ عنه الغضب المرافق للانفصال، فكان كآلة مبرمجة تأخذ قراراتها الحكيمة بعيداً عن المؤثرات الخارجية.

بعد الانفصال صار مراد أكثر مراعاة لهبة، فربما كان في طبعنا مراعاة الغرباء أكثر من الأقرباء، وهي أصبحت الآن غريبة. لم تر هبة في تعامله الجديد معها أنها غريبة، إنما اعتقدت أن مراداً بعد الانفصال عنها أصبح أكثر رقة، وربما في قلبها كانت تأمل أنه يحن، فيعود إليها -بعد وقت يشفى فيه قلبه- طالباً القرب والزواج مرة أخرى، فكم من طليق عاد ليكون زوجاً!

لكن مراداً في الحقيقة كان يقطع أية طريق يشعر أنها تجره إليه ليعيدها زوجة، كأنه صار يعرفها ويعرف أقنعتها وسبلها، غير أنه ببساطة يعاملها كما يعامل أطفاله، يتجاوز عن حماقاتها ويثني على فضائلها! دونما أية مشاعر يوجهها لها سوى بعض الشفقة!

كان يعرف أنه سبب في تخريب مستقبلها العملي، وأنه سبب لتصبح شهادتها الجامعية مجرد ورقة بلا قيمة، حتى أنه عرض عليها لاحقاً إذا أحبت أن يوظفها عنده في المكتب وفق ساعات دوام مريحة، لكنها كانت مقصوصة الأجنحة لا تعرف الطيران، فرفضت عرضه متأملة أن يبقى هو مسؤولاً عن حاجاتها! ولم يمانع هو ذلك طبعاً!

لكن التناقض في مجتمعاتنا مزعج ومؤلم ولا ينفك يبث سمومه بين أفراده المتصالحين، فمثلاً لا يمكن لطليقة أن تكون بريئة مع طليقها، فتُتهم هبة برسم المكائد وتبذير الأموال واستغلال طيبة مراد، وتُتهم أمومتها بالنقص والإهمال، وأشد من

حاربها لم يكن سوى أم مراد التي كانت أكبر مدافع عنها! لكنها الآن ما عادت ترى هبة كنة بل باتت غريبة عدوة ماصة لدم ابنها!

وجد مراد نفسه في حرب جديدة مع تدخلات أمه، قرر بعدها أن ينهي كل ما لأمه من قوة تحاول التأثير فيها على قراراته، تعلم كيف يقف حازماً أمامها بعد أن كان أرنباً خوافاً، معلقاً ضعفه على شماعة بر الوالدين! ثبت أقدامه هذه المرة في الأرض، ووقف كشجرة سنديان صامدة شامخة ترفض الاهتزاز أمام موجات أمه، وكان واضحاً أكثر ما يمكن للوضوح أن يكون، هو وحده صاحب قراراته، ولا تملك أمه عليه سوى النصيحة اللينة التي يحق له تجاوزها! لن يعيش بعد اليوم بناء على رؤياها، بل سيحاول إيجاد رؤيا له في عالم الرماد الذي يطوفه.

مع بداية عقده الخامس أصبح حراً مراد! تحرر من النساء! ويختلف الحر عن العبد، فالحر صنيعه قراره، وخيره خير وشره شر، أما العبد لا خير له ولا شر! تحرر مراد وصار صنيعه قراره! وصار مسؤولاً حقاً عن قراره، صار واثقاً مؤمناً مدركاً لما يريد! أو هكذا ظن!

بدأ مراد يعتقد أن هناك ألواناً باهتة في عالمه، وهناك نكهات طفيفة، وهناك بعض نور، خفت نوبات ذعره وأصبح قادراً على تنفس هواء خال من الرماد أحياناً!

كثرت اللحظات التي يشعر فيها أنه حي، رغم دوام الموت في عالمه، إلا أن هذه اللحظات القليلة أعطته وهماً أنه بخير، أقنع

نفسه أنه بخير، آمن أنه بخير... إلى أن التقى صدفة بخطيئة عمرها عشرون عاماً، بمجرد لقياها أدرك أنه لم يكن يوماً دونها بخير، وأنه ما عاد للحياة حقاً إلا عند نهاية تلك الليلة بطيئة الدقائق كثيرة الأحداث!

عادت خطيئته العزيزة إليه، عادت وهو حر صاحب قرار، عادت إليه وهو قوي يتحمل الخطيئة!

# (٢٣)
# عشاء عمل

اعتراف بالحب أمام سيدة هاربة في وسط أرض ترابية استخدمت كمصف سيارات! ما أسوء هذا الاعتراف! لو راجع نفسه قليلاً لاكتشف أن حماقته لم تمر على رجل من قبل، لكنه لأمر غريب لم يندم.

ربما بعد أربعين سنة من الحماقة يكتشف المرء أن الحياة لا تسير وفق خطة ولا وفق خارطة طريق، هناك حوادث تقع تجبرك على أخذ التفافة أو قفزة أو قرار مفاجئ، ولا يمكن لغير صاحب هذه الحياة الحكم بدقة على القرار المتخذ حينها...

نعم هو مدرك لاستعجاله، واع لخربطة مسيره، لكنه مؤمن أن التاريخ لو أعاد نفسه سيعود هو ليفعل ما فعل!

أحداث متوالية مذ التقاها أول مرة في المدرسة في الخامسة عشرة من عمره، ثمان وعشرون سنة مرت على بداية قصته، تحالفت السنة تلو السنة لتدفعه اليوم لاعترافه البائس قليل التخطيط.

يمناه قابضة على ساعدها الأيسر، ويقاوم يسراه من التقدم نحو وجهها لتمسح تلك الدموع عن وجنتيها، ويقاوم كلتا ذراعيه من تطويقها وعصرها في صدره، ثمان وعشرون سنة من تقلب الإحباط والأمل والتوتر، بنت درجاتها في نفسه حتى كادت تفيض،

وهي الآن بين يديه في حالة قد تكون ضعفاً، في موقف أسقطت فيه دروعها وحماياتها وأفضت مشاعرها واضحة على وجهها، وهو الضعيف أمامها، وهو المراهق الوقح الجريء، وهو الخبيث الأناني... أية قوة يحتاج لضبط نفسه!

لم يملك إلا أن يرفع تلك اليد المقبوضة في يمناه إلى شفتيه ليقبلها، وسحبها بعدها ليوصلها إلى بيت أهلها القريب.

خلال رحلته معها إلى بيتها اعتذر ألف مرة عن فعل ليس نادماً عليه، اعتذر وأقر أنه سيعيد فعل ما فعل... إن كان شوقه سبباً لبكائها، سيبكيها ألف مرة، إن كان حبه لها سبباً فلن تجف دموعها، وإن كان يأسه واستعجاله السبب فلن توقف دموعها إلحاحه ونوازعه!

اعتذار يؤكد فيه أنه سيكرر خطأه المعتذر عنه، اعتذار بلا معنى ولا فائدة، لكنه اعتذار صادق، فليس مراده دموعها، إنما هو يريد الحرية لإطلاق مشاعره، يريد الحرية لما انكبت على مر السنين، يريد تكسير السلاسل والقيود، يريد تحطيم قضبان سجونه، ولا يريد أن يراعي أمن سجانه!

هو معترف بأنانيته، مصر عليها! هو متخذ قراراً أنه سيضع قلبه اليوم على رأس الأولويات مهما تكن النتائج! يريد أن يتبع وسواسه القهري وإلحاحات قلبه، فيكفي قلبه المسكين سنوات أسره!

وإن لم يعجبها؟ وإن صدت قلبه؟ وإن منعته؟ هو أعلن الآن أهداف معركته! لا دبلوماسية اليوم، لا مفاوضات للسلام، هي معركة يحتل بعدها قلبها أو يموت! لا حلاً متوسطاً هنا، ولا تنازلاً عن الأهداف!

قال كل ذلك لها صراحة! أخبرها أنه الطوفان آت إليها، ولا سفينة لديها تحميها! هو البركان سيبتلعها ولن تجد من حممه مهرباً! هو الإمبراطور الذي سيروض تنينها ويعتليه في رحلاته! هو الغازي الوقح الذي سيعتذر عن الدمار الذي سببه لكنه سيستمر في حملات دماره!

كانت صامتة طول الرحلة تستمع لما لديه من قول، ودموعها بلا وعي منها تحفر خديها مسار سيل، ولما وصلا أمام باب البيت القديم، نظر إليها، إلى عينيها الحمراوين المنتفختين، وقال:

- ***انتي حرة، استسلمي أو قاومي، بس ما رح تهربي ولا تسالمي!***

قبل وجنتها الملتهبة قبل خروجها من السيارة، وبكل الوقاحة القادر على استجماعها قال:

- ***حتيجيني بكرا عالمكتب صح؟ عنا شغل... وإلك سيارة صافة بكراجنا!***

لم تعطه رداً، اكتفت بطرق باب سيارته مغلقة إياه بغل من يريد كسر أطراف صاحب السيارة بين بابها وجسمها! وكانت تعلم كم يحب مراد سيارته!

أيعد مراد استفزازها نصراً؟ ربما هو نصر! دفعها من مواقع قوتها إلى مواقع ضعف، استدرجها إلى مصائده، ونفخ عليها غباراً ساحراً سيطر على حواسها! لأول مرة يهاجم فيها مراد غريمته بكل قوته! لأول مرة يدخل معها في معركة، يستخدم كل عنفه وقوته يبغي اجتياحها، ولأول مرة يشعر أنه قادر على الاجتياح!

عواصف العواطف الدائرة في صدره أنهكته! في سريره تتصارع فيه المشاعر والأفكار وذكريات الحدث القريب، إثارة تختلط بالخوف، وسعادة وإصرار وروح معنوية عالية تليق بجنرال سيدخل حرباً موقنًا الانتصار بها! ثم يعود الشك ليزعزع الإقدام، لكن الأمل يطغى قليلاً!

أدرك أن هناك ألواناً في دماغ العواطف لديه! خلطة من الألوان كخيوط متشابكة ستبرقع كل أفكاره، ألوان كان مشتاقاً لها، وكانت بعيدة المنال! قرر أن يتلذذ بتلك الألوان، وفكر أنه ربما يتمنى مقاومة سلمى له، عله يتمتع أكثر بهذه الخربطة في دقات قلبه!

كأنه عاد لأول الحب، وأول الحب أجمله، كم مرة يمكن له أن يقع في حبها؟ أيمكن أن يستمر في الوقوع؟ أيمكن أن يكون حبها بئراً بلا قرار؟ لا نهاية لوقوعه إنما سيستمر في هبوط سريع متسارع،

يشعر خلاله قلبه معلقاً بين السماء وأرض لا وجود لها، وكلما استمر وقوعه زادت سرعته فيزداد خفقان قلبه، وتتنازعه تلك اللذة التي تتأتى من ركوب القطار السريع في الملاهي، مع شعور بالخوف الذي يطمئن الدماغ صاحبه أن لا داعي له فهو مؤَمَّن في مكانه بأحزمة وقضبان ونظم حماية، وأسوء ما يمكن ان يحدث هو دوخة بطبعها مسلية!

أمسك هاتفه وبعث لها ***(نمتي؟)***، يظهر صحين زرق بلا رد، فيبعث ***(عم فكرفيكي)***، صحين زرق ولا رد، ***(وقفتي بكا؟)***، لا رد، ***(تخيليني حاضنك، ظهرك على صدري، وايدي بتعصرك، ممكن توقفي بكا)***، لا رد، لكن كل الصحوح زرقاء.

لم تأت إليه في اليوم التالي، كأنها استغنت عن سيارتها لا تريدها، فذهب هو إلى منزل والديها وبعث لها:

***(قررتي تقاومي؟ أنا قدام بيت اهلك، انزليلي)***

يعرف غرفتها في بيتها القديم، كانت مضاءة، وبدا خيال يفتح الستارة قليلاً يستكشف من في الشارع، لم ترد عليه، فبعث لها: ***(في بالسيارة زمور، ممكن استعمله!)***، فردت هذه المرة بوجه غاضب وكلمة ***(غبي!)***، فضحك وأرسل:

- ***(مش غبي، مجنون... معك ٣ دقايق عم استنى... صبري موطويل!)***
- ***(زمرشويعني، مونازلة!)***

- *(برن عجرس البيت!)*
- *(ما بفتحلك!)*
- *(في غيرك بالبيت بيفتحلي... وازا ما انفتحلي بلاقي تلفون ابوك بطلب منه موعد!)*
- *(موعد شو؟)*
- *(راح دقيقتين... انزلي)*
- *(مونازلة)*
- *(اوك تمام، انا بنزل!)*

فتح باب سيارته عالماً أنها تراقبه، ونزل من السيارة، فرن هاتفه:

- *بلا جنان! استنى شوي بنزلك!*

انتظرها واقفاً أمام سيارته متكئاً عليها كما كان ينتظرها أيام الجامعة، جاءت إليه مستعجلة الخطوات، وما أن رأته حتى لكمته بقبضتها الصغيرة على ذراعه، لكمة يذكر قوتها، وقالت له غاضبة:

- *أم غباءك!*
- *آي! لئيمة! بتوجعي!*
- *بتستاهل!*

لم يتمالك ابتسامة على وجهه، فرك ذراعه المصابة وقال:

- *ليش ما اجيتي اليوم؟*
- *ما بدي اجي!*

- ***كيف يعني ما بدك؟ والشغل؟***
- ***ما بدي أشتغل!***
- ***ولاد صغار احنا؟ مش اتفقنا؟***
- ***ما وقعت معك عقد!***
- ***بس انتي و افقتي!***
- ***غيرت رايي! Sue me!***

ضحك وفتح لها باب سيارته داعياً إياها للدخول...

- ***اه رح اقاضيكي! عشانك ضربتيني!***
- ***وين بدنا نروح؟ انا مولابسة لطلعة!***

انتبه إليها، كانت ترتدي قميصاً قطنياً واسعاً، وبنطالاً مريحاً من قماش يشبه الكتان، ذكرته بسلمى السادسة عشرة، فابتسم لها مصراً:

- ***لو علي بلبسك خيش! انتي شو ما لبستي حلوة... اركبي! نروح عشي قهوة...***

ركبت السيارة دون مقاومة حقيقية، وشعر هو بنصره، دخل السيارة بعدها وتناول يدها اليسرى القريبة منه يقبلها، فسحبت يدها بسرعة مدعية الغضب، فقبل الوجنة عوضاً عن اليد!

- ***شو صايرلك؟ بتزكرك خجول ومؤدب!***
- ***لساتني خجول ومؤدب! بس معك لا! وعد اني ما رح ابدا اكون معك مؤدب!***

- ***يا سلام؟ مريض انت؟***
- ***انتي مرضي!***
- ***يخ!***

قلدت هيئة من يريد التقيء، فضحك لسخريتها من محاولته الرومانسية، ثم قال:

- ***بس عن جد سوس، الشغل ما اله دخل! ما تقطعيني!***
- ***ما بشتغل مع حدا قليل ادب!***
- ***طيب بالشغل بصير مؤدب! مع اني ما بوعدك!***
- ***لا ما بدي!***

وبرمت وجهها كطفلة عنيدة، فأوقف السيارة على حافة الطريق، ووضع عينيه في عينيها، وقال حازماً:

- ***بكرا بتمري تاخدي مخططات الارض عشان تبدي شغل، لو بدك تشتغلي من بيتك ما في مانع، بس بدك تبدي وتسلمي بالموعد، قلتلك معك انا ما رح اكون منيح!***
- ***يي... قلتلك ما رح اشتغل معك!***
- ***سلمى!***
- ***نعم؟***
- ***انا ماسك حالي بصعوبة، خليكي شطورة واسمعي الكلام، والا...***

- ***والا شو؟***
- ***والا ببوسك!***

احمر وجهها قليلاً وأفلتت عينيها من قبضة عينيه بإزاحة وجهها عنه، وتمتمت (***غبي***!)...

- ***قلتلك موغبي، مجنون! وانتي بتجنيني بزيادة! كل ما خرمشتي اكتركل ما صرت بدي اثبتك بحضني اكتر!***

حافظت على واجهتها الهادئة رغم هزة في قدمها لاحظها، ولم تقل شيئاً. فقال:

- ***بكرا بتيجي؟***

لم تجبه.

- ***جاوبني هلا! بتيجي؟***

لم تجبه، فازداد حزم صوته منادياً اسمها (***سلمى***!)، فجفلت... وهزت رأسها... فابتسم وقال (***شاطرة***!).

كان مراد غريباً حتى على نفسه، كان فعلاً في حالة من الجنون، ولكنه بدأ يشعر جنونه مفتاحاً لعلاقته مع سلمى، وبدأ يشعر نفسه مروضاً للتنين! كم مثير ترويض التنانين! كم مثير أن تملك السيطرة على كائن بقوة التنين، لا متعة في مداعبة أرنب إن كنت قادراً على مداعبة تنين...

لم يطل مشوارهما، أعادها إلى بيت أهلها وأخبرها أنه سيأخذها معه في الغد عند ذهابه إلى مكتبه، ليضمن بذلك ألا تقطع وعدها الذي وعدته... لم يعرف في الحقيقة كيف وافقت مع أنه كان بإمكانها أن تطلب منه أن يبعث كل الوثائق اللازمة عبر بريد إلكتروني أو وسيلة تواصل أخرى! ربما كانت سيارتها هي سبب موافقتها؟ لكنه أراد أن يصدق أنه السبب لموافقتها وليست قطعة الحديد تلك!

في اليوم التالي كان اللقاء قصيراً جداً، مقتصراً فعلاً على المسافة من البيت إلى المكتب، وعدة دقائق لزمت ليبعث لها الوثائق الرقمية ويعطيها الوثائق الورقية، وأخذت سيارتها واختفت مجيبة عن سؤاله عن وجهتها أنها ذاهبة إلى لامكانها المريح!

كانت أيامهما التالية هادئة، مقتصرة على بضع رسائل ومكالمات قصيرة يتبادلانها، كانت انشغالاته كثيرة لا تتيح له الوقت إلا متأخراً، وكان -رغم إصراره على ألا يكون (مؤدباً)- غير قادر على إزعاجها ليلاً، عالماً أنها أيضاً ذات انشغالات تحتاج للراحة والنوم ساعات كافية.

جاءت نهاية الأسبوع، فبعث لها عند الظهيرة: (*طابخة* ؟)، رغم أنه كان متخوفاً من زيارتها، إلا أنه وجد تلك الطريقة الوحيدة ليراها.

لما لم تجبه رن عليها:

- *ما قلتيلي طابخة اليوم؟*
- *لوكنت بدي اطبخ بطلت!*
- *ولما امرعليكي المسا شورح تطعميني؟*
- *مين قالك اني رح استقبلك؟*
- *سووووس... كتيرنفسي اكل بيتي!*
- *روح عند امك!*
- *ما بدي اكل امي... بدي انتي تطبخيلي، ازا بدك بساعدك...*

كانت لهجته مختلفة عن تلك الآمرة، كانت راجية، كلهجة طفل يطلب قطعة حلوى من أمه المصرة على أن يتناول غداءه أولاً! ربما تخيلته عبر الهاتف جرواً مترجياً فحنت عليه.

- *شونفسك تاكل؟*
- *باكل اي شي بتعمليلي اياه!*
- *بعملك بيض مسلوق ازن!*
- *موافق... شواجيبلك معي؟*
- *بدي شوكولاتة دارك...*
- *امرك!*

ربما كان منزلها المنعزل مريحاً لعلاقتهما، ربما كان خطيراً، لكنه مريح بابتعاده عما ينغص عليه خطيئته.

دخل البيت بعد أن فتح له العم أبو علي، استقبله كوسا عند الباب وبدأ النباح، لكنه توقف بمجرد أن نزل مراد من سيارته،

كأن كوسا عرفه واعتبره واحداً من أهل البيت، فاقترب منه دافعاً رأسه بيده طالباً من مراد التمسيد على رأسه، ثم رافقه كحارس شخصي في الطريق إلى المنزل.

كانت سلمى تراقبهما من شباك المطبخ، ورأى ابتسامتها الكبيرة لرؤيته متوافقاً مع كلبها الذي كان معادياً له في المرة الماضية.

لم ينتظرها لتستقبله، بل دخل المطبخ حيث رآها واقفة، وضع الكيس في يده على الطاولة، وقبلها بكل اعتيادية... كأن القبلة باتت حتمية عليها لا هروباً منها، مسحت بيدها مكان قبلته على وجهها وقالت له:

- ***تأدب!***
- ***قلتلك لا! الريحة زاكية شو طابخة؟***
- ***لازانيا... منيحة؟***
- ***شو اعمل معك؟***
- ***اجلي!***

نظر إلى المجلى الممتلئ بالقدور، رفع أكمام قميصه، وتناول مريولاً للمطبخ معلقاً رآه ربطه حول خصره، ثم قال متذمراً:

- ***يعني قلتلك بساعدك، مش تستعبديني... شو كل هاد الجلي؟***
- ***قلتلك الاكل لازانيا!***
- ***شو دخل؟***

- *بشاميل وصلصة ومعكرونة وصينية...*
- *مش قلتي بدك تعملي بيض مسلوق؟*
- *بس دلع، بس اشطفهم وحطهم بالجلاية!*

كان إحساس بالألفة غريب يغمره، كأنه يقضي كل يوم له معها، وفي ذات الوقت إحساس إثارة يهز أوصاله، تناول الطعام معها وساعدها في التنظيف بعدها، ثم أرته عملها في مشروعهما المشترك، وتبادلا الملاحظات، فعدل على عملها قليلاً وصلحت تعديلاته قليلاً، ولم ينتبها أن الوقت يمر، كان مستمتعاً جداً في العمل، متعة مرت عليه سنوات طويلة لم يشعر بها.

انتبه أنه يقف خلفها وهي الجالسة أمام شاشة الحاسوب، وضع يديه على كتفيها وقبل رأسها، وكانت على ما يبدو ناسية أن شريكها في العمل مراد الواعد أن لن يتوقف عن قلة أدبه، فلفت وجهها إليه مستغربة، فلف كرسيها إليه وجلس أمامها على الأرض على ركبيتيه مركياً يديه على ركبتيها:

- *سلمى بدي اعيش زي هيك...*
- *كيف يعني زي هيك؟*
- *بالزبط زي ما احنا هيك!*

لم تعطه رداً، بل حافظت على صمتها، فوقف من جلسته وتناول مفاتيحه:

- *شكراً حبيبتي على العشا، يسلموا ايديكي...*

- *مروح؟*
- *بخاف اضل!*
- *بس بعد بكير...*
- *اشتاقيلي مشان تقبليني...*
- *اقبلك؟*
- *تتزوجيني!*

خرج مسرعاً من بيتها خائفاً من جاذبية ستسحبه إلى دوامة لا هروب منها، قابضاً على قلبه الذي أراد أن يبقى معها دونه!

# (٢٤)
# لمة الأصحاب

قصة قارَبَ عمرها الثلاثة عقود، رحلة بحرية مرت بالعواصف ومرت بالدوامات، وسرت أيضاً خلال أيام هادئة، ربما حان الآن الموعد للسفينة لترسو، ربما صار واجباً عليها الوصول للميناء وتفريغ حمولتها.

حماقة تلو الحماقة يرتكبها مراد، منقاداً وراء نبضات اندفاعه، متأملاً أن ترسو سفينته رغم جهل قبطانها، لا خطة لديه ولا خارطة، يسير باعثاً طيور الحمام بين الآونة والأخرى متأملاً ألا تعود إليه، فيدرك أن اليابسة قريبة.

في الأيام القليلة -التي سبقت عرضه الزواج على سلمى- تنازعته فكرة جديدة ما كانت على باله: في الطبيعة قوى التجاذب متبادلة؛ فلو كانت هناك قوة تجذبه إليها فبالضرورة أن تكون القوة مؤثرة عليها بذات مقدار تأثيرها عليه متناسبة عكسياً مع مربع المسافة الفاصلة بينهما! (قانون نيوتن للجذب العام)

بناء على هذه الفكرة الدخيلة إلى عقله، لا بد أن تكون سلمى هائمة به كما هو هائم بها! أتنطبق قوانين الفيزياء على العلاقات أيضاً؟ لا يهم! هو سيطبقها إذا ما تلاءمت مع ما يريد!

حاول إقناع نفسه: سلمى لا تسمح بالعادة للأشخاص غير المرغوب بهم عبور حدودها، ولا تعطي تأشيراتها بسهولة،

ومعاملات تخطي حدودها معاملات صعبة عقيمة تحتاج دهراً! لكن مراداً لم يخض يوماً هذي المعاملات، مذ التقاها أول يوم أعطته التأشيرة، وختمت عليها طابع (VIP) فلا ينتظر دوراً ولا يتوقف عند العبور!

أخطأ بطردها من عالمه، ولكنه عندما عاد إليها بعد عشرين سنة لم تطلب منه تجديد وثائقه، كأنه مواطن يحمل الجنسية، بل كأنه من العائلة المالكة، لا يحتاج أذونات، وحتى عندما بدأ يتجاوز حدوده التي رسمها لنفسه، لم تطرده من أرضها، بل تحملت وقاحاته واستفزازاته... إذا لم يكن ذلك انجذاباً فما هو؟

لم تكن يوماً خائفة منه، لم يشعر يوماً أنها تهابه، لم تأخذ يوماً حذراً، ولم تفقد لحظة الثقة! أوليست الثقة حباً؟

ربما معاملتها له ناتجة عن شفقة بحاله؟ ربما كانت تعد نفسها وصية عليه تراعي مصالحه وتهتم بأمره لأنها كانت تراه ضعيفاً محتاجا للمساعدة؟ لا! لا! ليست تلك شفقة! من المؤكد أنها منجذبة إليه!

وعندما أقنع مراد نفسه أنها تحمل من المشاعر له ما يحمله لها أشفق عليها! أمرّت هي بما مر هو؟ أتألمت كما تألم؟ أكان عالمها مظلماً كعالمه؟ أكانت حية ميتة مثله؟ لا! لا! ليست سلمى من تموت وهي حية! هي أقوى منه، هي أصلب، وهي عنيدة محاربة ثورية ترفض الظلام!

سلمى عرافة تقرأ القلوب وترى المستقبل، من المؤكد أنها كانت تعرف ما في قلبه بدايةً، وعرفت صراع نفسه لاحقاً، ولما اعترضت على علاقته كانت مشفقة على ظلامه القادم، لكنها من المؤكد كانت موقنة أنه سيعود لاهثاً إليها راجياً صفحها!

بدأ قلبه يطمئن، وبدأ يشعر ببعض السلام، لم تنته حربه لكن سيرها مريح! سلمى عنيدة، كم يا ترى ستقاومه؟ متى ستقرر أنها أنهت عقابه؟ متى ستلين؟

تلا يوم عرضه الزواج يوم عطلة، عطلة جديدة لم ينم خلالها، أما مر عليه كان أسبوعاً واحداً فقط منذ لقاء صدفته؟ أسبوع واحد صادفها فيه، ثم اعترف، ثم تقدم بطلب الزواج؟ مجنون هو أحمق! يركض في علاقته معها، ويجرها معه لا يعطيها مجالاً لأخذ الأنفاس! لا يشعر أنه محتاج للأنفاس، فمذ التقاها ملأ الهواء العليل صدره، وبات هواؤه لا ينضب...

أشرقت شمس عطلته، وتذكر أنه بالأمس استخدم معها كلمة (حبيبتي) دونما تفكير، بصدق وبتلقائية، وكان هو يستثقلها سابقاً مع زوجته، لم يكن يعرف استخداماً لكلمات التحبب، وإن نطقها تخرج كاذبة بلا لون، لكنه بعد أسبوع واحد من لقاء سلمى قال (حبيبتي) بمنتهى السهولة! ولم تعترض هي على اللقب، كأنها أيضاً اعتادت سماعه منها، كأن استخدامه لها طبيعي! مغرورة هي ومتعالية! تعرف أنها حبيبته لكنها ترفض تسميته حبيبها!

أرسل لها رابط أغنية لحليم الرومي (***يا مكحل رمشك***) وكتب بعدها (***ما اتحن بقى شوية يا سيدي، وتخلي وصالك يجمعني!***).

ردت عليه بعد عدة دقائق بوجه ساخر و(***ما بدي!***)، فرد عليها بجملة من ذات الأغنية (***يا غرامي وبهجة أيامي، ليه لما أودك تمنعني؟***)، فكأنها تجاهلت قصده وقالت:

***(انا ما بعرف الاغنية لحليم بعرفها لماجدة، صحيح انك جماعة القديم)***

***(القديم أحلى!)***

***(الاغنية حلوة، يمكن بهاي معك حق... بس مش دايماً)***

***(ما تقلقي... انتي قديمي وجديدي!)***

***(يخ! يا دمك!)***

لم يطق التراسل عبر الرسائل فرن عليها مكالمة هاتفية، ودون أن يبدأ بالتحية:

- ***ليش صاحية بكير؟ مش عأساس بيوم العطلة الناس بتنام؟***
- ***أولا انت مزعج، ثانيا انا حرة!***
- ***يعني انا صحيتك، ولا ما نيمتك؟***
- ***انت بس مزعج!***
- ***رح اشوفك اليوم؟***

- *اليوم رح اشوف زينة!*
- *وين؟ عندك؟*
- *اه...*
- *زينة بس ولا معها حدا؟*
- *كنت بفكر احكي لامجد ييجي مع مرته!*
- *وانا؟*
- *انت مبارح كنت عندي!*
- *ما بدي! كيف يعني امجد ييجي وانا لا؟ أي ساعة؟ وشو اجيبلك معي؟*
- *بي؟ عزمت حالك؟*
- *ما عزمت حالي... انا ما بدي عزومة! اسألي كوسا صرت من اهل الدار!*
- *ازا من اهل الدار ليش بتسال عن الساعة؟ تعال وقت ما بدك!*
- *وقت ما بدي؟ انا بدي هلا!*
- *طب جيب معك فطور.*

قفز من سريره، وخلال دقائق كان في سيارته، وصل بيتها بأسرع ما يمكنه، وكانت جالسة على الشرفة، ترتدي ثوباً منزلياً تقليدياً طويل الأكمام، خفيف القماش قليل التطريز بسيطاً، يعطيها صورة ربة منزل في مجتمع زراعي، صورة جديدة لها لم يعرفها عنها، رآها فتاة صبيانية، رآها سيدة أعمال، رآها حسناء في

احتفال، ورآها رياضية، واليوم هي فلاحة! كم من الأدوار تلعب سلمى؟

لم تقم من جلستها لتحييه، كأنها اعتبرته فعلاً واحداً من أهل الدار لا حاجة لمراسم الاستقبال معه، انحنى عليها مزيحاً بعض الشعرات التي تغطي خدها، وقبلها، كأنها اعتادت قبله، لم تعطه أية ردة فعل، سألته وهي تراقب ما يحمل في يده:

- ***شو جبت؟***
- ***طب قوليلي صباح الخير بالاول! قوليلي مرحبا!***
- ***يعني نعمل شاي ولا قهوة؟***
- ***اعملي شاي يا فلاحة!***
- ***ليكون مش عاجبك؟***
- ***ولو مش عاجبني؟***
- ***مش مهم، موضروري يعجبك!***

كانت في انتظاره تستمع لأغنيات لم توقفها بقدومه، انتبه للأغنية الحالية، كانت لماجدة الرومي (***اسمع قلبي***)، فسألها:

- ***الاغنية هاي الي؟***

لم تجبه، تناولت ما في يده ودخلت المنزل تاركة إياه وحيداً مع الألحان: ***(الكلمة اللي عاوزني اقولهالك انا عارفاها، مهما تحاول ريح بالك مش قايلاها)***... لحقها إلى الداخل وقال لها:

- ***سلمى موضروري تقولي، بعرف انك بتحبيني... لولا كان صديتيني!***
- ***انت قلت (أرجوكي خليني احبك!)، انا بس بعطف عليك.***
- ***يعني بتوقعيني بزيادة؟ مش ظلم هيك؟***
- ***انت قلت (سلمى ما تحبيني... ازا بدك اكرهيني!)***
- ***انا عيل! غيرت رايي... ما بيطلعلك ما تحبيني!***
- ***مراد نحكي جد؟***
- ***نحكي جد.***
- ***افرض اني كنت بحبك، شو بخليك تتخيل اني رح او افق ارتبط فيك؟***
- ***ازا كنتي بتحبيني ما قدامك الا ترتبطي فيي!***
- ***لا مو صحيح! ازا كنت بحبك اكيد ما حبيتك بهالاسبوع، ببقى بحبك من قبل اكتر من عشرين سنة، وهيهم مروا السنين علي من دون ما ارتبط فيك!***

أسعدته فكرة حبها له أكثر من عشرين سنة، اعتبر ذلك منها اعترافاً:

- ***سلمى متى بديتي تحبيني؟***
- ***مين قال اني بحبك! قلنا افترض!***

- *شو اللي بخليكي ترتبطي فيي؟ هممم... انا بتخيل لو اتزوجتك... الي تارات عندك... الك سنين طويلة مسيطرة عكل شي بحياتي... بدي اخد حقي منك!*
- *يا سلام؟! وانا شو دخلني... تاراتك عند حالك!*
- *مو مهم! انا بدي اشفي غليلي منك! ازا تزوجتيني... ما رح اكون منيح معك!*
- *حدا بيحكي لوحدة انه ما رح يكون منيح وبستناها ترضى فيه!*
- *اه! ما رح اكون منيح! ما رح امثل ولا رح اكزب! رح اعمل معك اللي حاسس اني بدي اعمله، من دون ضوابط ولا حواجز... رح ازعلك، ولما تزعلي رح اراضيكي... ولما ترضي رح ازعلك مرة تانية!*
- *ولو ما رضيت؟*
- *رح اراضيكي... شغلتي اراضيكي!*
- *...*
- *بوعدك بشي... ما رح أقص جناحاتك، ولا رح اطفي نارك! رح اخليكي تطيري وين ما بدك، وتحرقي شو ما بدك، طول ما انك بآخر النهار بترجعي لحضني!*
- *ولو حرقتك؟*
- *ما عندي مانع!*

وعد أن تكون أنت، وأن تسمح لها أن تكون هي، وعد بأخذ الثأر، وبعد الثأر صلح، وعد بالصدق! ما أصعب وعود الصدق، لكنه يعرف أن الصدق وحده ما يلائم من مثل سلمى.

- *مراد حتى لو قبلت فيك، انت مشعلق بكتير اشياء!*
- *قصدك هبة والاولاد؟ خالد صار عمره ١٦.*
- *قصدك ان كبروا ولادك بطلوا بحاجتك؟*
- *لا قصدي انهم ولادي، وانا دايما مسؤول عنهم، بس هم كبروا واسهل التفاهم معاهم... في كل الحالات انا بطلب منك تاخديني انا، مو مطلوب تاخدي ارتباطاتي!*
- *لو بدي ارضى فيك بدي اخد كل مشاكلك معك! متخيل اني باخد اللي بيعجبني وبترك الباقي؟ انا بنزل شريك بالملك مو مستاجر!*
- *شروطك؟*
- *رتب اور اقك، واتفق مع الناس المرتبطين فيك... ولما تعرف ترسم علاقاتك ارجعلي...*
- *ساعتها بتو افقي؟*
- *ساعتها ممكن اتفاوض معك!*
- *طيب احكيلي بس شغلة وحدة... احكيلي انك بتحبيني!*
- *كمان شوي بوصلوا ضيوفنا... بدي اغير ملابسي!*

لم تعطه جواباً، لكنها استخدمت (نا) على كلمة ضيوف، وكأنه شريكها في ملكية الضيوف، وذهبت لتغير ما ترتديه، كأنها رأت أن ما ترتديه يناسب استقباله ولا يناسب ضيوفها، كأنه فعلاً واحد من أهل دارها!

ترفض الاعتراف بمشاعرها، لكن أفعالها كلها تقول إنها تراه عائلتها.

تزوجت زينة كما كانت خطتها من رجل ثري، لكنه لم يكن زواجاً تقليدياً، نعم كان مدروساً ومخططاً، لكنه في بدايته كان قصة حب لطيفة في إطار العمل! لها الآن ابنتان: الكبيرة في الرابعة عشرة والصغيرة في السابعة من العمر، لم تترك زينة عملها، بل اختارت وظيفة إدارية ذات ساعات عمل محدودة تلائم التزاماتها العائلية والاجتماعية المرتبطة بعمل زوجها، حضرت برفقة ابنتيها دون زوجها لأنه حسب قولها في رحلة عمل.

أما أمجد، طبيب الباطنية، حضر مع زوجته وابنه حديث العهد مع المشي، زوجته لطيفة جداً، طيبة القلب مرحة، يسهل إضحاكها مثل زوجها.

تفاجأ الحضور برؤية مراد مع سلمى، أما أمجد فأسرع لعناق مراد عناق دب كاد يخنقه، ولم يخف ابتهاجه برؤيته، وأما زينة رسمت علامات امتعاض على وجهها، لكنها ما أن مد مراد يده لها يسلم عليها حتى باغتته هي الأخرى بعناق خفيف وقبلة في الخد، تلاهما لكمة خفيفة في صدره وقولها:

- *شو بطلت غبي؟*
- *والله يا زينة عم احاول... بس الغبا بدمي!*

لم يتوقع ردود فعل أصدقائهما، كان دائماً يعدهما صديقي سلمى لا صديقيه، لكنهما اليوم أبديا له حرارة وحباً كان غافلاً عنهما! ربما لم يفاجئه فعل أمجد، لكن مفاجأته الحقيقية كانت في زينة... لطالما اعتقد أنها كرهته، ولطالما خاف من العودة لصداقتها، كان يشعر أنه خذلها رغم أنها ساندته.

في تلك الجلسة لم يكن مراد ضيفاً، بل مضيفاً، كأنه لا يريد إخفاء موقعه الجديد عن الضيوف، كأنه ما عاد يبالي برأي أي كان بعلاقاته ومشاعره، ما عاد يخجل من رغباته، ولا عاد يخفي نوازعه.

من مثل زينة لا يمكن أن يراقب دون تعليق، بعثت ابنتيها برفقة ابن أمجد الصغير ليلعبوا مع كوسا، وبنظرة فاحصة كمحقق قالت موجهة كلامها لسلمى ومراد:

- *هلا اقعدوا انتو التنين وفهمونا شو القصة؟*

مباشرة هي، بلا لف ولا دوران، تريد الجواب أيضاً مباشراً دون حماقات واستغباء. فجاوب مراد مع ابتسامة على وجهه:

- *بحبها وبدي اتزوجها!*

فكان رد أمجد وزينة معاً متفاجئين:

- *أخيراً؟*
- *بس سلمى عم تتعزز!*

كانت السعادة تملأ وجه أمجد، إلا أن زينة أكثر حنكة، نظرت إلى صاحبتها وهزت رأسها كانها تقول لها إنها معها، ثم قالت لمراد:

- *طبعاً بدها تتعزز... لو أنا محلها بمرمرك!*
- *يا ستي انا قبلان، تعمل فيي شو ما بدها بس المهم بالآخر تو افق! بعدين شو قصة (أخيراً) هاي؟*

ضحك أمجد، وقرصته زينة، لكن أمجد لم يستجب لأمر زينة بالتوقف، فقال لمراد:

- *يا ابني كل البلد كانت بتعرف انك ميت بسلمى، انت الوحيد اللي كنت بتستهبل!*
- *كنت اهبل مو بستهبل! بس برضه انا كنت مبين بحبها... وهي؟*

لم يقل أي من الجالسين شيئاً، إلا أن زينة بعد لحظات قالت:

- *جد انك غبي!*

ضحك مراد، ثم لف ذراعه حول كتف سلمى الجالسة بجانبه، وقال:

- ***من يوم ما شافتني وهي بتقوللي اني غبي! وانتي يا زينة بها القعدة قلتيلي اني غبي مرتين! شكلي رح اصدق جد اني غبي!***

رد عليه أمجد:

- ***والله يا صديقي مع اني كنت مثال الغباء بالشلة، بس جد انه طلعت انت الغبي!***

في جلستهم تلك شعر مراد براحة غريبة، وبألفة اشتاق إليها، وكان سعيداً بإعلان حبه امام أصدقائهما، كان فخوراً بإنجازه، فربما بإشهار الحب تتوطد العلاقة.

عاد الرفاق إلى دورهم، وبقي مراد خلفهم قليلاً، كانت سلمى تلملم بقايا الأواني بعد مغادرة الأصحاب، فأمسك ساعدها يوقفها قليلاً، ركز في عينيها وسألها:

- ***سلمى أنا كنت غبي؟***
- ***اه!***

لم يوقف غرائزه هذه المرة، لف يسراه خلف عنقها، شدها إليه، وقرب وجهه إليها، لامس جانب الأنف جانب الأنف، واستدار الرأس قليلاً، ثم لامست الشفاه الشفاه، لم تفلت سلمى نفسها منه، تركت شفتها السفلى مفتوحة قليلاً يتعلق هو بها، توقف مراد قليلاً كمن يأخذ أنفاسه، فأعاد طبع شفتيه على شفتيها بشغف لم يجربه سابقاً، بعطش، وبشهوة، وبقلب يخفق يكاد

يحطم عظام قفصه يخرج منه. ثم قبلها ألف قبلة على كل مكان في وجهها، ثم حررها، ولملم نفسه مستعجلاً:

- *سلمى استنيني ارتب اوراقي... بعديها بتقبليني صح؟ صح؟ بتقبليني؟*

هزت رأسها وكانت من الذهول مختلة الوعي، كأنما قبلاته سحرتها وسيطرت على عقلها... ذابت سلمى!

# (٢٥)
# خاتمة

عناق، فقبلة، فقبلة، فقبلة، فالتقاء شفتين وألف قبلة وعناق، لا يرتوي العطشان منها، بل يزداد عطشاً كلما ظن نفسه ارتوى، ويؤمن أن حبه أفيون، جرعة منه كفيلة بإدمان.

حب تخمر أكثر من عشرين عاماً، فبات أقوى وألذ وأشد سكرة، وفي لحظات يقظته القليلة بين السكرة والإدمان يسأل نفسه إن كانت قصته ستتغير لو لم يكن -كما قال عنه أصدقاؤه- غبياً؟

في مجتمعاتنا أنماط مسبقة الرسم نستخدمها، نحشر أنفسنا فيها حتى لو لم تتسعنا، ونقنع أنفسنا أننا -رغم حشرتنا- مرتاحون، ولكننا ربما بعد مدة من الزمن نجد أصابعنا تخدرت، ونجد بعض عضلاتنا ضمرت، ونجد بضع بقع زرقاء على أجسادنا هنا وهناك! أحياناً نتأقلم مع الخدر والضمور والبقع، وتتشكل أجسامنا بما يناسب الأطر، فنعتقد أننا ارتحنا، ولكننا في الحقيقة نسينا في مرحلة التشكيل من كنا!

مراد أخذ إطاراً رسم له، حشر فيه قصته، وتأمل أن تتشكل لتلائم الإطار... وفي مرحلة ما أدرك أن الأصل رسم الصورة قبل وضع إطار لها! اكتشف ذلك ورغمه استمر في قصته التي قصقصها وشرذمها لتلائم النمط!

ربما أخطأ مراد! وربما لم يخطئ! فليس للجميع قدرة على اختراع أنماط جديدة، وربما ليس للجميع القدرة على الدفاع عن النمط الجديد، وربما لا تؤمن مجتمعاتنا بقدرة شبابنا على تخيل الأنماط!

مراد إنسان عادي يحمل بعض الذكاء، عاش في بيئة اختلطت بين المجتمعات، وجاءت الخلطة في سن كان فيه أصلاً مكركباً ضعيف البنيان. بدأت قصته وكان ضعيفاً، كان جزءاً هشاً من صورة جميلة لمجتمع نظيف، مجتمع علاقاته بيضاء أو سوداء لا مجال فيها للبس، لما التبس أمره ظن أنه مجرم!

أيتهم مجتمعه القائم السائر المنستر بالحماقة والجهل؟ أيملك من هو في عقده الثاني أو الثالث حقاً الصلاحية ليتهم المجتمع بالجهل؟ إن للسنوات في أعمارنا حقوقاً، فلا يملك ابن العشرين ذات الحقوق التي يملكها ابن الأربعين! العقود الأربع التي مرت على ابن الأربعين تشفع له وتعطيه تصاريح لم يملكها نفسه قبل عشرين سنة! أكان مخطئاً إذن مراد؟

قاوم مراد حالة الحب التي غمرته، وحبه رمال متحركة، كلما قاوم أكثر غمرته أكثر، ربما لو ساير قصة حبه لما اختنقت أنفاسه تحت الرمال، ربما كان أراح نفسه من عذاب عالم الرصاص الذي عاشه، لكنه لم يجد من يلقي إليه حبلاً يشده فيه إلى بر النجاة، حتى محبوبته آثرت مراقبته والصمت على غرقه.

ظهرت هبة في القصة لتعطي لمراد وهم الصورة المناسبة للإطار، لكنه لم يعرف أن المشكلة ما كانت يوماً بالصورة، بل كان خشب الإطار الذي أكله السوس هو المشكلة! أظلم مراد هبة؟ ربما... لكن الحقيقة أن هبة ظلمت نفسها! هي دخلت قصة بإرادتها، مدفوعة بذات الوهم الذي رسم في الصورة والإطار، أقنعت نفسها أن الصورة جميلة!

هبة لم تكن مجبرة على القصة!

لكن مراداً كذب عليها ومثل... إذن فهو ظلمها!

تمثيله كان إشفاقاً منه، ورغبة بتنفيذ رغبات لها لم يكن يشعر بطعمها! وأقنع نفسه أنه سيمثل حتى يصبح التمثيل حقيقة. مراد أيضاً اقتنع بما لم يكن مقتنعاً به! اقتنع أن الصبر مفتاح الفرج، وأن الحب يتولد من العشرة، وأن تفاعلات الحب الكيميائية ما هي إلا خزعبلات أضيفت للقصص لتعطيها مصداقية.

معظم شبابنا يتزوجون دون قصة حب! فما المشكلة إن تزوج مراد بتلك الطريقة؟

ربما المشكلة أنه ذاق الحب قبلاً، لا يستطيع من تذوق الطعام المبهر تحمل طعام بلا توابل! لكننا نقول مرة أخرى: مراد كان ضعيفاً جاهلاً مؤمناً بالإطار!

وما ذنب هبة إذن؟

هي واحدة قررت الإيمان بالأطر، ربما كان يجب عليها أن تخلخل إيمانها قليلاً، ربما كان عليها أن تبني لنفسها -ولو حلماً- إطاراً آخر للطوارئ، ربما ما كان عليها الاستسلام لدور ثانوي ضعيف، ربما في المرة القادمة تختار هبة دور البطولة لنفسها بدلاً من دور تابع!

ربما هبة ضحية! ربما مراد ضحية! ربما كلنا ضحايا! لكن لا ضحية بريئة من الجريمة!

ماذا عن سلمى؟ أهي ضحية أيضاً؟

سلمى كانت أقرب للمجرم منها للضحية! لم تكن صاحبة الجريمة لكنها شاركت فيها... كيف؟ بصمتها وسلبيتها! اعتقدت سلمى بابتعادها أنها تعطي مراداً مجالاً لاتخاذ قراراته دون تأثيراتها، رغم أن القصة تبنى على اثنين، فلا يأخذ أحدهما قراره دون الآخر، وإن اتُخذ القرار سيفتقد الاتزان... اعتقدت سلمى أنها تعطي مراداً الحرية والمساحة والفرصة لينضج ويقوى ويصبح قادراً على مواجهة مشاعره تجاهها، لكنها ربما كان يجب عليها أن تدعمه بدلاً من إعطائه المساحة!

سلمى أيضاً اغترت بقوتها وبتنينها، فاعتقدت أنها تستطيع قطع أنفاسها حتى يعود مراد بإرادته إليها، اعتقدت أنها ستكون على ما يرام ريثما يجد مراد الطريق وحده... لكنها ربما أدركت لاحقاً أنها ليست بريئة! وربما شعرت بالذنب أيضاً تجاه معشوقها الذي تركته بين الرمال تسحبه إلى قعرها!

لم تغضب سلمى حقاً من مراد، فكانت رغم جراحها سهلة المنال له، كانت مستعدة للاستسلام مذ أعلن عليها الحرب، ولم تتمنع حقيقة بل ربما كانت تتدلل قليلاً... سلمى أعطته مفاتيح بلادها بمجرد أن قرر هو الاجتياح، لكنها ردت الباب قليلاً فاعتقد أنه متربس!

بعد شبه الاعتراف الذي تلقاه من سلمى هرع مراد ليرتب أوراقه...

نبدأ بالطليقة والأطفال، أما الطليقة فكانت تعرف سلمى سابقاً، وتعرف تلك القصص المحيطة بزوجها وغريمتها قبل ارتباطها به، لكنها لم تسأله يوماً عنها ولم يخبرها هو، فلما رأته أبعدها، ووجدتها اختفت تماماً من قصتها، لم تعد تؤمن بصدق تلك القصص. ذكر اسم سلمى على مسامعها من قبل طليقها كان بمثابة صفعة قاسية كادت تفقدها وعيها، اكتشفت أنها فشلت، اكتشفت انها لم تستطع محو ذكرى قصة لم تكن قصة حقاً، اكتشفت أنها مجرد شبح بلا تأثير مرت مروراً في حياة زوجها!

إذا ما أدرك الشبح أنه شبح فاشل، غالباً ما سيترك لبس صاحبه وسيترك سكنه... مرت أكثر من ثلاث سنوات على طلاقها، لم يبد خلالها أن لمراد نية في العودة إليها، فلماذا ستحارب لإعادته إليها الآن؟ رغم أساها ولوعتها تنازلت هبة عن طليقها لقصته الأولى!

خالد ذو الستة عشر عاماً أخذ الأمور بطبيعية غريبة، تعرف على سلمى دون أية أفكار مسبقة مزروعة في عقله ودون عداء، فوجدها مرحة جداً محببة، فاتخذها صديقة! في الحقيقة لم يكن يضيف ألقاباً إلى اسمها فكانت له (سلمى) فقط، رغم أنها أكبر من أمه عمراً! اعترض والده على قلة احترامه لرفيقته، لكن سلمى وقفت حائط صد تمنع فيه مراداً من التدخل في علاقتها مع خالد! في المستقبل ستصبح سلمى بئر أسرار الشاب ومصدر النصائح في قصصه!

سارة ذات الاثني عشر عاماً رفضت الاعتراف بوجود سلمى، رفضت وجود أنثى أخرى في حياة والدها، رغم أن والدها حاول جاهداً إقناعها أن سلمى لم تسرقه، بل في الحقيقة كانت قصة سابقة لقصة أمها بثمان سنوات. لم تفرض سلمى نفسها على سارة، ولا أصرت على بناء علاقة معها، تركت مسافة مريحة بعيدة عنها، واكتفت بالاعتقاد أنه ربما سيأتي يوم تكتشف فيه سارة أن سلمى ليست العدوة!

أما أم مراد...

رفضت في البداية كما هو متوقع! فسلمى عزباء تجاوزت الأربعين تعيش نسبياً وحيدة! كم من الإشاعات ستغطي هذه الشخصية الغريبة! لماذا لم تتزوج إلى الآن؟ ألا تخفي قصصاً شنيعة خلف ذلك الإطار البريء الذي أحاطت به نفسها؟ ولماذا يتزوج مراد امرأة بنفس عمره، أإذا كان باغياً السعادة أليس عليه

البحث عن فاكهة طازجة؟ ربما ما كانت تعي أن النبيذ المعتق أكثر لذة من فاكهة طازجة!

لم يتزحزح مراد عن قراره، ولاحظت أمه أن هالته حديثاً باتت جميلة ملونة، واعتقدت أنه ربما تكون سيئة الأخلاق هذه سبباً في تلوين هالته... على مضض وافقت! بمجرد موافقتها وافق باقي أفراد أسرته، فلطالما كانت أمه المفتاح!

سيسأل مراد سلمى عن سنواتها العشرين بعيداً عنه، لكنها ستتجنب الإجابة، وسيدرك أنها مشفقة عليه... إذا علم أنها عاشت حياتها طبيعية لتألم، وإن أدرك أن حياتها كانت سوداء لشعر بالذنب، فمعرفة الجواب -مهما كان- كان سيسوؤه.

ستصر سلمى على البقاء في لامكانها، لكنها ستتنازل أحياناً بالقدوم إلى شقة يملكها مراد -أعاد تهيئتها للعروس الجديدة- قريبة من عمله، ستكون حياتهما متنقلة حسب ظروف أعمالهما، لكن مراداً غالباً هو المتنازل وهو قاطع المسافات.

في مشهد أخير لقصتهما، ستعترف له سلمى أن الأغنية التي سمعها (اسمع قلبي) -التي افترضها مهداة له- لم تكن ما تريد هي قوله، بل أغنية سبقتها لم ينتبه لها (أحبك جداً)...

أحبك جداً ...

وأعرف أني تورطت جداً

وأحرقت خلفي جميع المراكب...

وأعرف أني سأهزم جداً

برغم الدموع ورغم الجراح ورغم التجارب

وأعرف أني بغابات حبك

وحدي أحارب

وأني ككل المجانين

حاولت صيد الكواكب

وأبقى أحبك رغم يقيني ...

بأن الوصول إليك محال

يا من دفعت بحبك نصف حياتي

ويا من أشيلك كالطفل في أغنياتي

أنا لا أحبك من أجل شال حرير وعطر مثير

ولكن أحبك حتى أؤكد ذاتي

أحبك وأعرف أن هواك انتحار

وأني حين سأكمل دوري سيلقى علي الستار

وأن صمودي أمام هواك الكبير انتصار!

***(كلمات الأغنية المأخوذة عن قصيدة نزار قباني... تختلف الأغنية قليلاً عن القصيدة)***

**-النهاية-**

## المحتويات


١. صدفة دونما وجهة ..... ٥

٢. رحلة رم في الذاكرة ..... ١٢

٣. لا نصلح للزواج ..... ٢٠

٤. كهف سلمى ..... ٢٧

٥. فنانة مع بعض الغبار ..... ٣٥

٦. نوبة ذعر ..... ٤٣

٧. دعوة ووعد وهدية ..... ٥١

(٨) ..... ٥٩

عبادة الشمس والفنون ..... ٥٩

٩. سيل ماء ودموع ..... ٧٠

١٠. أحمق مراد! ..... ٧٩

١١. توقف عن الغباء! ..... ٨٨

١٢. موديل للرسم ..... ٩٨

١٣. رحلة إلى المطار..... ١٠٨
١٤. سحق رسالة ..... ١١٧
١٥. قصة لم تنته ..... ١٢٧
١٦. رد فعل وفعل..... ١٣٩
١٧. نرجسة لا تحتاج عناية ..... ١٤٩
١٨. لا إثم في العناق ..... ١٥٩
١٩. القصة الجديدة ..... ١٧١
٢٠. خطبة وزواج ولا كهرباء..... ١٨٥
٢١. فرصة عمل..... ١٩٦
٢٢. عالم الرماد..... ٢١٠
٢٣. عشاء عمل ..... ٢٢١
٢٤. لمة الأصحاب ..... ٢٣٥
٢٥. خاتمة ..... ٢٤٩